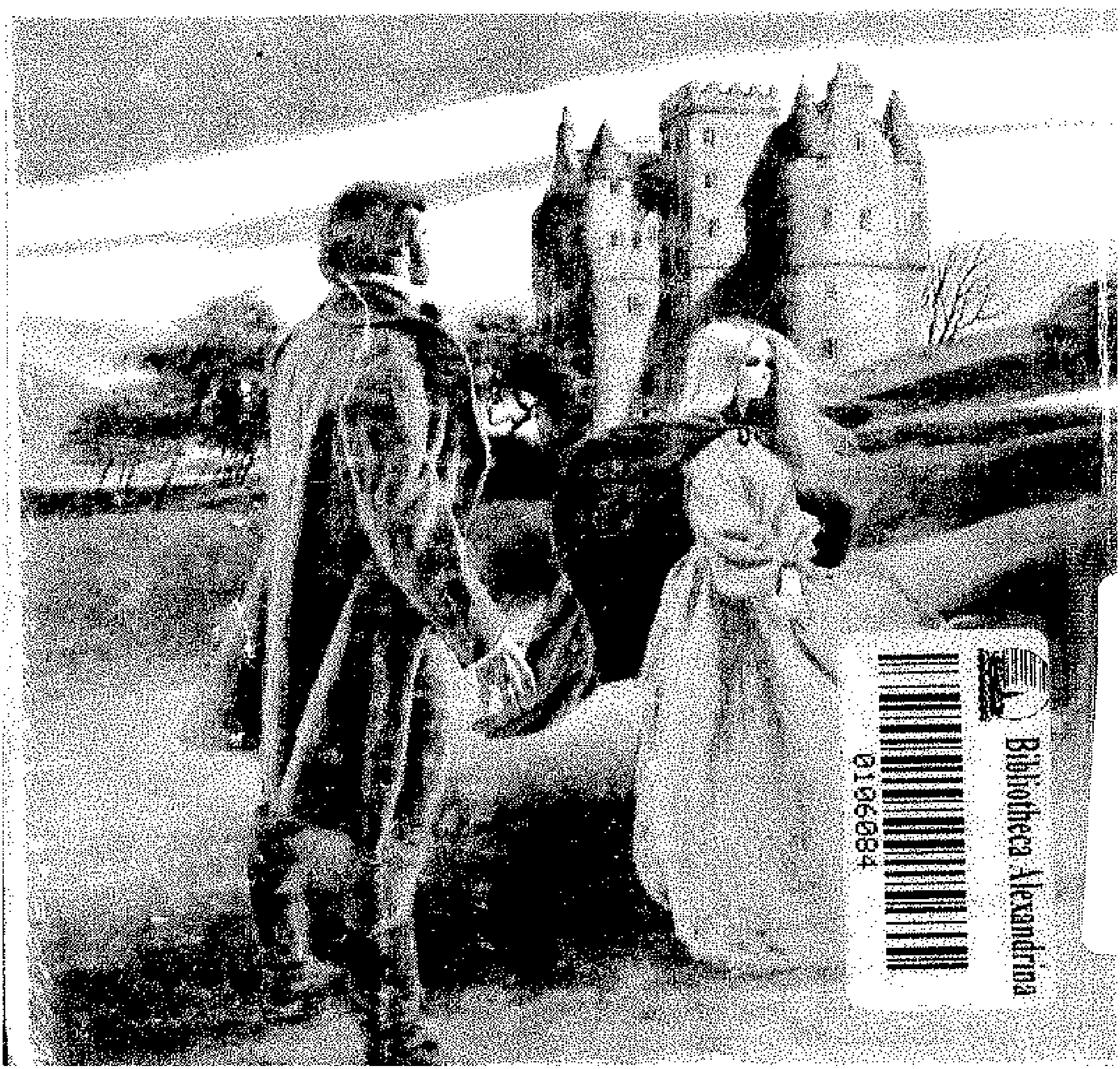
الكونت دي مونت كريستو



الكونت دي مونت كرستو

الكونت دي مونت كريستو

اسكندر توماس

ترجمة

د. فؤاد فريد

منشورات
المكتبة الحديثة بيروت
دار الشرق العربي - بيروت

مؤلف الرواية



لقبوه « بالكبير » تمييزا له من ابنه الذي يحمل اسمه نفسه «اسكندر دوماس » . وقد ولد سنة ١٨٠٢ في قرية فرنسية تدعى « فيلير — كوتريه » وقضى بها أعوامه الأولى خاملا ، ثم انتقل الى باريس وعمل في مكتبة دوق اورليانز ، ثم اتصل بالبارون « تايلور » ومن طريقه عرف وكيل نيابة اسمه «فيلناف» كان قبل الثورة الفرنسية يكتب في كثير من الصحف ، فاتخذه أستاذا ومرشدا

ويعد اسكندر دوماس الكبير أكثر الكتاب الروائيين انتاجا ، وقد ترجمت رواياته الى أكثر اللغات الحية ، ومن اشهرها رواية « الكونت دي مونت كريستو »

واشتهر طول حياته بالاسراف الشديد ، حتى لقد حجز الدائنون على متاعه أكثر من مرة برغم كثرة ما كان يربحه من مؤلفاته . على أنه مع ذلك كان دائم الفكاهة والابتسام ، لا يبالي ما يقع فيه من الأزمات المالية ، ويتلقاها بالسخرية التي كانت من لوازمه

وقد روى ابنه أنه قال له يوما : « انك يا أبي كأنما ترمي أموالك من النافذة » . فأجابه : « لا بأس !.. فهناك من يلتقطونها ! » . وقال لصديق له عاتبه على اسرافه : « كيف أكون مسرفا مع أنني جئت الى باريس وليس معي سوى قطعة ذهبية واحدة ما زلت محتفظا بها حتى الآن ؟ ! »

وطلب اليه يوما أن يساهم في التبرع بنفقات جنازة أحد المحضرين ، فتبرع بضعف المبلغ المطلوب قائلا : « هذا لكي تدفنوا اثنين من المحضرين بدلا من واحد ! »

وذهب ذات ليلة الى مسرح الكوميدي فرانسيز لمشاهدة تمثيلية شعرية لصديقه « اسكندر سوميه » . وهناك رأى أحد النظارة نائما فلفت اليه نظر المؤلف مداعبا . ثم حدث في الليلة التالية أن كانا في المسرح يشاهدان تمثيلية له هو ، فلفت سوميه نظره الى متفرج نائم في المكان نفسه فأجابه قائلا : « هذا الشخص هو نفسه الذي رأيناه أمس لم يستيقظ بعد ! »

الربان الشاب

في يوم ٢٤ فبراير سنة ١٨١٥ سـجل فنار « نوتردام دي لاجارد » اقتراب السفينة «فرعون» من الميناء قادمة من أزمير ، فتريستا ، فنابولى·· وحين دارت السفينة حول جزيرة « قصر ايف » خرج قائدها الى ظهرها ، وسرعان ما امتلأت أرصفة « سان جرمان » بالمتفرجين · ولم ينتظر أحدهم وصول السفينة الى الميناء ، فقفز الى زورق صغير وانطلق به الى عرض البحر للقائها هناك

وكان على ظهر « فرعون » شـاب يقف الى جوار قائدها فلم يكد يلمح راكب الزورق حتى ترك موقفه ومضى مسرعا الى حاجز السفينة حيث أطل منه ملوحا بقبعته في صمت

كان شابا وسيما ، طويل القامة نحيفها ، تتراوح سنه بين الثامنة عشرة والعشرين ، ذا عينين سوداوين وشعر فاحم في لون جناحي الغراب ·· وفي هيئته العامة ما يدل بوضوح على الهدوء والعزم المألوفين في الرجال الذين تمرسوا بالاخطار منذ نعومة أظفارهم

وصاح به الرجل الذي في الزورق وهو يدنو من السفينة :

ــ اهذا أنت يا ادمون ؟· ماذا جرى ؟ ما سبب هذه الكآبة التي تبـدو عليك ؟!

فأجاب الشاب : « لقد أصبنا بخطب جلل يا مسيو موريل · فقد فقدنا عند (سيفيتا فيشيا) قائدنا الشجاع الكابتن ليكلير · مات متأثرا بالحمى المخية ، وكان منظر احتضاره رهيبا يفتت الاكباد ·· والآن حين تصعد الى السطح سوف تجد في خدمتك مسيو دانجلر العامل المنوط به شحن السفينة ، وسوف يتكفل بكل ما تريد ! »

وأمسك المسيو موريل ، وهو صاحب السفينة ، بالحبل الذي دلي اليه ، ثم تسلقه الى ظهرها

وكان دانجلر شابا في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، ذا وجه منفر ·· وكان مكروها من البحارة بقدر ما كان ادمون دانتيس محبوبا منهم ·· فلما رأى صاحب السفينة ابتدره قائلا :

ــ هل سمعت يا مسـيو موريل بالخطب الذي وقع ؟· لقد كان القبطان ليكلير التعس بحارا من الطراز الاول ، وهذا ما أهله لان يضطلع بقيـادة سفينة تابعة لمؤسسة لها مكانتها مثل مؤسسة « موريل وولده » !

فقال له المسيو موريل وهو يرمق ادمون دانتيس بنظرة ذات معنى :

ـ هذا صحيح ، ويلوح لى أيضا أن صديقنا ادمون ـ نائب القبطان ـ يفهم تلك التبعة جيدا !

فقال دانجلر وهو يحدج زميله ادمون بنظرة تفيض بالكراهية :

ـ نعم يا سيدى ، ولهذا لم يكد القبطان يلفظ نفســه الاخير حتى تولى هوَ القيادة دون أن يستشير أحدا ، ثم مكث بالسفينة يوما ونصف يوم فى جزيرة (البا) بدلا من القدوم الى مارسيليا مباشرة !

وهنا قال دانتيس مبررا موقفه : « ألتمس المعذرة يا مسيو موريل ٠٠ وعلى أية حال فالسفينة الآن تلقى مراسيها ، وأنا فى انتظار ما تأمر به ! »

فقال موريل : « ا ت أريد الا أن أعرف لماذا توقفتم فى جزيرة البا ؟ »

فأجاب دانتيس : « كان ذلك استجابة لآخر تعليمات القبطان ليكلير ، فقد أعطانى وهو يحتضر طردا صغيرا كى أوصله الى المارشال برتران ! »

ـ لقد فعلت الصواب يا دانتيس بتنفيذك وصية القبطان ليكليروالتوقف فى البا ، ولو أن ذلك قد يجلب عليك المتاعب فيما لو علمت السلطات انك قد حملت طردا الى الماريشال !

ـ وكيف يجلب ذلك على المتاعب يا ســـيدى ، وأنا لم أعرف شيئا عن محتويات الطرد الذى حملته ؟

ـ هل لك أن تأتى لتناول العشاء معنا ؟

ـ شكرا لك يا سيدى على هذا الشرف الذى تسبغه على ، لكنى أرجـو التفضل باعفائى من هذه الدعوة ٠٠ ان زيارتى الأولى ينبغى أن تكون لأبى

ـ اذن فسوف ننتظرك بعد أن تفرغ من زيارة أبيك

واحمر وجه الضابط الشاب ، ثم قال وهو يغالب حياءه :

ـ مرة أخرى أرى نفسى مجبرا على الاعتـــذار يا مســـيو موريل ، فبعد الفراغ من هذه الزيارة تبقى أمامى زيارة أخرى أنا فى أشد الشـــوق الى القيام بها !

فابتسم صاحب السفينة وقال : « أنت على حق يا دانتيس ٠٠ ان هناك من تترقب وصولك بلهفة لا تقل عن لهفة أبيك ٠٠ وأعنى بها «مرسيديس» الحسناء ! »

وهنا ازداد احمرار وجه دانتيس وقال فى تلعثم : « أشكرك يا سيدى ، ولهذه المناسبة ارجو أن تسمح لى باجازة لبضعة أسابيع »

فقال له المسيو موريل : « اذن أنت تعتزم اتمام زواجكما ؟ »

فأومأ موافقا وقال : « وسنسافر بعد ذلك الى باريس »

فقال المسيو موريل : « حسنا !٠٠ لك الاجازة التى تريدها يا دانتيس ، على أن تعود بعد ثلاثة أشهر »

ثم ربت كتف الشاب واستطرد قائلا :

ـ ان « فرعون » لا تستطيع أن تبحر بغير قبطانها !

فضغط الشاب يد صاحب السفينة وقال وقد اغرورقت عيناه بالدموع لفرط تأثره : « آه مسيو موريل !.. اننى أشكرك باسم أبى .. واسم مرسيديس ! »

وشد المسيو موريل على يد الشاب مهنئا ومودعا ، وقال له :

ـ إنك شاب كفؤ طيب القلب ولن أعوقك عن الذهاب الآن ، ولتصحبك السلامة !

وعلى أثر ذلك مضى دانتيس الى شارع (دى نواى) فى حى (لاكانابيير) .. وهناك دخل منزلا صغيرا الى يسار ممر (دى ميان) . وصعد سلمه المعتم عدوا الى الطابق الرابع ، حيث تمهل أمام باب نصف مفتوح ، يرى الناظر خلاله جميع محتويات الحجرة التى يفضى اليها

وهنـــاك فى تلك الحجرة كان يجلس والد دانتيس ، فما كاد يلمح ابنه حتى أطلق صيحة فرح ، ثم خف الى استقباله واحتضنه مرتجفا من شـــدة الانفعال . ولحظ الشاب شحوب وجه أبيــه فسأله فى انزعاج : « ماذا بك يا أبى العزيز ؟. هل أنت مريض ؟. أين تحتفظ بنبيذك ؟ »

فأجاب الشيخ المسن : « لا فائدة من الانكار يا بنى .. لم يعد عنـــدى نبيذ ! »

فتساءل دانتيس وقد شحب وجهه : « ماذا ؟. ليس عندك نبيذ ؟. هل كنت فى حاجة الى نقود يا أبى ؟.. لقـد أعطيتك مائتى فرنك حين رحلت منذ ثلاثة أشهر ! »

ـ نعم ، هذا صحيح يا ادمون ، لكنك نسيت الدين الصغير الذى كان علينا لجارنا « كادروس » الخياط .. لقد ذكرنى به وأنذرنى ان لم أدفعه بأن يطالب به المسيو موريل .. وهكذا خشيت أن يصيبك الرجل بأذى فدفعت له دينه ..!

فقال دانتيس متعجبا : « دفعت كل الدين الذى فى ذمتى لكادروس ، دفعت مائة وأربعين فرنكا ؟! »

فتمتم الأب المسن موافقا ، بينما واصل دانتيس كلامه قائلا :

ـ اذن فقد عشت ثلاثة أشهر بستين فرنكا ؟! ان هـذا ليحزننى كثيرا يا أبى !

وسكت الشاب فجأة اذ سمع وقع خطى شخص قادم ، ثم ظهر « كادروس » عند الباب ، وكان شابا فى نحو الخامسة والعشرين من عمره تحيط بوجهه لحية سوداء ، وفى يده قطعة من القماش ينتهيا لحياكتهـــا . ولم يكد يلمح دانتيس حتى ابتدره قائلا : « أهـذا أنت يا ادمون ؟.. انك فيما سمعت مستمتع بالحظوة عند المسيو موريل فى هذه الايام . لكنك أخطأت برفض

دعوته الى العشاء ، فلكي يصـــير المرء قبطانا ينبغي أن يتقرب بالزلفى الى رؤسائه »

فأجابه دانتيس : « أرجو أن أصير قبطانا بغير هذه الوسيلة ! »

فقال كادروس : « ان أصدقاءك القدامي جميعا على أية حال ســتسرهم هذه الترقية وأنا أعرف يقينا من سيكون أشدهم سرورا ! »

فالتفت الأب الشيخ الى الخياط متسائلا : « أتعني مرسيدس ؟ »

وسارع ابنه الى الاجابة قائلا : « نعم يا أبي العزيز ، ولهذا أرجو أن تأذن لي في أن أذهب لزيارة أسرتها الآن »

فقال أبوه على الفور : « هذا واجب يسرني أن تؤديه يا بني العـزيز . فلتبارك السماء لك في زوجتك كما باركت لي فيك ! »

ثم عانق الفتى أباه وأومأ الى كادروس برأسه .. وغادر المسكن.. بينما مضى كادروس بعد لحظة ليلحق بصديقه البحار « دانجلر » ، الذي كان في انتظاره ، فابتدره هذا قائلا : « هيه ؟.. هل أشـــار الى أمله في أن يعين قبطانا ؟ »

فأجاب كادروس : « لقد تكلم عن هذا الأمر كما لو كان شيئا مقررا ! »

فغمغم دانجلر : « لو كان للانسان أن يختار ، لآثر الغبي أن يظل حيث هو ، بل لآثر أن يهبط درجة عن مرتبته الحالية ! »

ولما سأله كادروس عما يعنيه ، أجاب قائلا :

ـ لا شيء !.. كنت أحدث نفسي !

ثم تنهد واستطرد قائلا : « هل ما يزال يحب تلك الفتاة التي تنتمي الى عشيرة كاتالان ..؟ »

فقال كادروس : « نعم ، انه ما زال يحبها بكل مشاعره .. ولكن اذا لم أكن مخطئا فسوف تثور عاصفة في ذلك الحي .. فما من مرة رأيت فيهـا مرسيدس تأتي الى المدينة الا كان معها شاب أسمر طويل القامة ، مفتول العضلات ، فاحم العينين ، تبدو عليه الشراسة..وهي تدعوه بابن العم ! »

فسأله دانجلر : « متى يذهب دانتيس لزيارة فتاته ؟ »

فأجاب . « لقد انطلق لأداء هذه المهمة قبل أن أحضر اليك مباشرة ! »

فقال له : « اذن .. يحسن أن نمضي الآن الى هناك لنجلس في حانة (لاريزرف) حيث نشرب قدحا من نبيذ (مالقا) وننتظر ما يجد من الانباء! »

اتهام خطير

كانت القرية التي تقطنها عشيرة « كاتالان » تقع على بعد مائة خطوة من الحانة التي جلس فيها دانجلر وصديقه كادروس يحتسيان النبيذ ، وكانت هذه العشيرة الغامضة قد هاجرت منذ زمن بعيد من وطنها الأصلي « اسبانيا » واستقرت في تلك البقعة من الارض الشبيهة باللسان الممتد في البحر · وقد لبث القوم حوالى ثلاثة قرون أو أربعة لا يختلطون بأهل مرسيليا ، وانما يتزاوجون فيما بينهم ويحافظون على تقاليدبلادهم الاصلية ولغتها وزيها

وفي بيت من بيوت تلك القرية ، كانت تجلس شابة حسناء ذات شعر فاحم كالكهرمان الاسود ، وعينين مثل عيني الغزال · وقد أسندت ظهرها الى الجدار ·· وعلى قيد ثلاث خطوات منها جلس على مقعد هناك شاب طويل في العشرين أو الثانية والعشرين من عمره ، وأخذ يحدجها بنظرات ملؤها القلق والحيرة ·· ثم قال لها :

ـ ها هو ذا عيد الفصح قد اقترب مرة أخرى يا مرسيدس ، فماذا ترين في مسألة زواجنا ؟

فقالت له الفتاة : « لقد أجبت عن هذا السؤال مائة مرة يا فرناند ، وما زلت أؤكد لك أني احبك كأخ ، وأرجـو الا تسألني أكثر من هـذا الحب الأخوى ، لان قلبى ملك لآخر أنت تعرفه وهو « ادمون دانتيس ! »

وهنا حدق فرناند في وجه الفتاة ثم سألها وهو يصر بأسنانه : « واذا فرضنا أنه مات فماذا يكون رأيك ؟ »

فقالت : « اذا مات ادمون فاني أموت أيضا ! »

وفي تلك اللحظة هتف صوت طروب من الخارج :

« مرسيدس ! ·· مرسيدس ! »

فصاحت الفتاة وقد تورد وجهها غبطة وكادالحب يجعلها تقفز من مكانها: « آه ، هذا هو ! »

وعندئذ اندفع فرناند الى الخارج وقدشحب وجهه وارتجفت أوصاله ! ·· وهتف يحدث نفسه وهو يعدو ويشد شعر رأسـه كالمجنون « أوه ، من يخلصني من هذا الرجل ؟ · يا لي من تعس ! »

وفيما هو كذلك سمع صوتا يناديه : « فرناند .. فرناند .. الى أين تعدو هكذا ؟ »

فتوقف الشاب فجأة ونظر حواليه ، فرأى كادروس جالسا مع دانجلر الى منضدة تحت تكعيبة خشبية خارج الحانة المجاورة للمنزل

وقال كادروس وهو يومىء الى صديقه : « أترى يا دانجلر ؟.. ان فرناند شاب شجاع طيب من عشيرة كاتالان ، وهو يحب فتاة تدعى مرسيدس .. ولكن يبدو أن هذه الفتاة تحب نائب قبطان السفينة فرعون ! »

فقال فرناند : « ان الأمر يكاد يدفعني الى هاوية اليأس »

فقال له كادروس : « لماذا تستسلم لليأس بدلا من أن تفكر في حل لمشكلتك . لم أكن أعتقد أن هذا دأب عشيرتك ؟! »

فزفر فرناند زفرة حرى وقال :

— انني على استعداد لان أطعن خطيبها ذاك بسكين ، لكنها أكدت لي أنها لو وقع له أي مكروه فستقتل نفسها !

وهنا قال دانجلر : « هنـــاك حل ناجع لا يقل أثره عن أثر موت ذلك الخطيب .. لو أن جدران السجن مثلا حالت بين ادمون ومرسيدس ، لأدى هذا الى انفصالهما ومنع زواجهما . وهكذا ترى أن لا حاجة بك الى قتله ! »

فتنهد فرناند مرة أخرى وقال : « ومن لي بالوسيلة التي تكفل القاء دانتيس في غياهب السجن ؟. هل لديك هذه الوسيلة ؟ »

فقال : « يخيل الى أنه بعد رحلة كالتي قام بها أخيرا ، وعرج فيها على جزيرة (البا) يمكن بسهولة أن تزج به السلطات الملكية في السجن بتهمة أنه من أتباع بونابرت ! »

فهتف فرناند متحمسا : «حسنا ! .. سأشي أنا به الى السلطات الملكية»

فقال دانجلر مقاطعا : « كلا ! .. لو قررنا اتخاذ هذه الخطوة لكان الافضل أن نأخذ هذه الريشة — كما أفعل الآن — ونغمسها في هذا الحبر ، ثم نكتب الاتهام الذي نتفق عليه باليد اليسرى ، كيلا يعلم أحد بأن لنا يدا في الأمر ! »

ثم كتب دانجلر بيسراه السطور التالية ، وقرأها بعده فرناند بصوت هامس :

« من صديق للعرش والدين الى فخامة النائب العام لصاحب الجلالة الملك .. ان من يدعى ادمون دانتيس ، نائب قبطان السفينة (فرعون) وصل هذا الصباح قادما من أزمير بعد أن مر بنابولي وبورتو فيراجو . وقد عهد اليه (مورا) في مهمة حمل خطاب الى الغاصب (نابوليون بونابرت) .. كما عهد اليه هذا الغاصب حين اجتمع به في حمل رسالة منه الى جماعة من أنصاره ذوي الخطر في باريس .. وسوف تجدون الدليل الذي يثبت هذه الجريمة عند القبض عليه ، لان خطاب الغاصب ما زال عنده ، أو عند أبيه ، ان لم يكن في غرفته الخاصة بالسفينة ! »

ثم قال دانجلر معقبا : « هذا عظيم ! » والآن يبدو انتقامك معقولا ، فهو لا يمكن أن يرتد اليك • وما علينا الآن الا أن نغلف هذا الخطاب ، ثم نكتب على المظروف (الى النائب العام لصاحب الجلالة) وبذلك ينتهي كل شيء ! »

وما أتم دانجلر عبارته حتى كان قد انتهى في الوقت نفسه من كتابة العنوان •• بينما قال كادروس مؤكدا : « نعم ، وبذلك ينتهي كل شيء•• ! » وكان هذا قد استطاع باجهاد قواه الذهنية الى آخر ما تحتمل أن يتتابع عبارات الخطاب أثناء تلاوة فرناند اياه ويفهم مدى فظاعة النتائج التي قد يفضي اليها الاتهام••فعاد يكرر قول صديقه دانجلر : « نعم ، بذلك ينتهي كل شيء ! لكنها تكون فعلة دنيئة تجلب العار ! »

ثم مد الرجل يده محاولا انتزاع الخطاب من يد دانجلر ، فلم يمكنه هذا من الوصول اليه وقال له وهو يبعد الخطاب من متناول يده : « ان الأمر مزاح ، واني لأول من يحزن اذا وقع أي مكروه لصديقنا الهمام دانتيس ! وعلى هذا فها أنذا أمزقه وأقذف به الى الارض بين المهملات والقاذورات ! »

ثم نهض دانجلر بعد أن ألقى الخطاب في ركن من أركان الحانة ، وأخذ طريقه ومعه صديقه كادروس عائدين من حيث جاءا•وبعد أن مشيا خطوات التفت دانجلر الى الخلف فرأى فرناند يلتقط الخطاب ويضعه في جيبه ثم يمضي نحو المدينة !

زفاف الى السجن

أعدت العدة فى اليوم التالى لزفاف مرسيدس الى دانتيس ، وهناك فى الطابق الثانى من حانة القرية التي اجتمع فيها المتآمرون فى اليوم السابق، امتلأت الشرفة بالمدعوين الى المأدبة قبل أن يحين الموعد المحدد لها بساعة كاملة .. وكانوا خليطا من بحارة السفينة « فرعون » زملاء دانتيس ، ولفيف من خاصة أصدقائه ، وقد ارتدى الجميع أحسن ثيابهم

وحينما لاح موكب العروسين هبط المسيو موريل ليستقبله ، امعانا فى تكريم القبطان الجديد ، فى أسعد مناسبات حياته ، وتبعه جمع من الجنود والبحارة ، وكانوا قد علموا منه بنبأ اختيار « دانتيس » قبطانا للسفينة فرعون خلفا للقبطان ليكلير ، فتضاعفت فرحتهم بهذا الاختيار

وحين بلغت العروس منتصف المائدة الكبرى وقفت والتفتت الى أبيها قائلة : «أرجو أن تتكرم يا أبى بالجلوس الى يمينى» . ثم أومأت الى فرناند بابتسامة لطيفة وقالت : « أما عن يسارى فسأجلس ذلك الذى طالما كان بمثابة أخ لى ! »

وكأنما أثارت عبارتها وابتسامتها اللواعج الكامنة فى صدر الفتى فشحب وجهه على أثر ذلك شحوبا مخيفا وتقلصت شفتاه ، وبدا فى منتهى الاضطراب !

وهناك فى الجانب الآخر من المائدة كان دانتيس بدوره يتولى معاونة ضيوفه الممتازين على الجلوس ، فأجلس المسيو موريل الى يمينه ، ودانجلر الى يساره .. ثم أومأ الى بقية المدعوين فجلسوا حيثما راق لهم أن يجلسوا

وفيما هم يأكلون قال دانتيس يخاطبهم :

– اى أصدقائى الأعزاء .. يسرنى أن أخبركم أننا بفضل نفوذ المسيو موريل حصلنا على اذن بالتجاوز عن المهلة القانونية المشروطة لعقد القران ، وعلى هذا سوف ينتظرنا عمدة مارسيليا فى الساعة الثانية والنصف فى قاعة البلدية . أى بعد حوالى ساعة ، ولن تمضى ساعة أخرى حتى يتم الزواج . وفى صباح غد أسافر الى باريس لانجاز المهمة الموكولة الى ، وسوف أعود الى هنا فى أول مارس ، وفى اليوم التالى أقيم المأدبة الحقيقية



وصاح وكيل النيابة : « ادمون دانتيس .. أنى أقبض عليك باسم القانون »

للزواج ، حيث يسعدني أن أدعوكم جميعا اليها منذ الآن !

وبعد حين سمع صوت مرسيدس العذب وهي تقول :

ـ هلا تحركنا ؟ .. لقد دقت الساعة الثانية ، ولم يبق الا ربع ساعة على موعد الذهاب الى البلدية !

وفي تلك اللحظة سمعت على الباب ثلاث طرقات .. وصاح صوت عال من الخارج : « افتحوا باسم القانون ! »

ثم فتح الباب ، ودخل منه محقق من وكلاء النائب العام ، يتبعه عدد من الجنود ، وصاح المحقق على الفور :

ـ ادمون دانتيس ، انى أقبض عليك باسم القانون !.. وسوف تعلن بالاسباب التي دعت الى ذلك في بداية التحقيق !

وساد القاعة على أثر ذلك سكون رهيب ، ثم هبط دانتيس السلم خلف المحقق يتبعهما الجنود .. وكانت أمام الباب عربة استقلها برفقة المحقق واثنين من الحراس .. ثم درجت بهم العربة عائدة الى مارسيليا

وصاح المسيو موريل ببقية المدعوين قائلا :

ـ انتظروني هنا جميعا ، سأهرع الى مارسيليا ثم أعود لأنبئكم بالخبر اليقين عن تطور الامور

وفي الوقت نفسه كان القاء القبض على دانتيس موضع تعليقات مختلفة اللهجة من جانب بعض المدعوين ، فقال أحدهم يسأل دانجلر : « وما رأيك في هذا الحادث ؟ »

فأجاب دانجلر : « أعتقد أن دانتيس لابد قد اتهم بتهريب مادة تافهة من المواد الممنوع دخولها الى هذه البلاد »

وهنا قال والد الشاب في صوت متهدج : « الآن تذكرت .. لقد ذكر لي ابني المسكين أمس انه أحضر لي صندوقا صغيرا من البن وآخر من التبغ » وأخيرا هتف واحد من المدعوين كان مطلا من الشرفة :

ـ أخبار طيبة !.. أخبار طيبة !.. هـــذا هو المسيو موريل قد عاد . لا شك الآن أننا سنسمع منه نبأ الافراج عن صديقنا دانتيس !

وهرعت مرسيدس والوالد الشيخ ليستقبلا صاحب السفينة عند الباب ويستطلعا منه الانباء .. لكن هذا خاطب الحاضرين بقوله في لهجة جادة : « ان الأمر قد اتخذ اتجاها أخطر مما كنت أظن أيها الاصدقاء .. ان دانتيس متهم بانتمائه الى حزب بونابرت ! »

⊏⊐

في الوقت الذي جرت فيه تلك الأحـــداث المتلاحقة في مادبة زفاف مرسيدس الى دانتيس ، كانت هناك في أحد القصور الارستقراطية الواقعة

في شارع «جران كور» تجاه نافورة «ميدوزا» حفلة زفاف أخرى ، يشهدها جمع من صفوة المجتمع الرفيع في مرسيليا

وفي هذه الحفلة نهض رجل مسن يحلي صدره بصليب « سان لويس » ، مقترحا شرب نخب صحة الملك لويس الثامن عشر · ولم يكن ذلك الشيخ سوى المركيز دي سانت ميران · وكانت المركيزة زوجته امرأة ذات وجه عبوس ومظهر مترف جليل ، برغم الخمسين سنة التي انصرمت من عمرها ·· فقالت معلقة :

ـ آه ، لو كان أولئك الثوريون هنا الآن لما استطاعوا الا أن يعترفوا بأن الملك هو حقا راعينا « لويس المحبوب » بينما غاصبهم التعس كان دائما وسوف يكون في كل حين عبقريهم الشرير « نابليون اللعين » ·· ألست على حق يا مسيو فيلفور ؟

والتفت هذا الى المركيزة حين سمعها تذكر اسمه وقال في هدوء :

ـ اسألك المعذرة يا سيدتي ، انني في الواقع ، وأعتذر مرة أخرى عن ذلك ، لم أكن أتتبع النقاش !

وهنا قالت « رينيه دي سانت ميران » وهي شابة حسناء يكلل هامتها تاج من الشعر الكستنائي الجميل وتزين وجهها عينان كأنهما تسبحان في بللور سائل :

ـ لا بأس يا أمي العزيزة ·· لقد كنت أنا المسئولة عن شغل انتباه المسيو دي فيلفور بحيث لم أدعه يصغي الى حديثك ·· والآن يا مسيو دي فيلفور ، دعني أذكرك بأن أمي تخاطبك !

وعلى اثر ذلك عادت الأم تكرر رأيها فقالت : « كنت أقول يا فيلفور ان أنصار بونابرت ليس لهم حماستنا وتفانينا في الاخلاص »

فقال الشاب : «ان لهم مع ذلك ما يعتبر عوضا عن هذه الصفات الرائعة، وأعني بذلك تعصبهم لسيدهم الى أقصى حد ·· ان نابليون يكاد يكون معبود أتباعه ، وليس هذا لأنه زعيم ومشرع للقوانين فقط ، بل لأنه نموذج مجسم للمساواة ! »

ـ هل تعلم يا فيلفور أنك تتكلم بلهجة ثورية مخيفة ؟·لكنني أعذرك !· فمن المستحيل أن ننتظر من ابن الجيروندي أن يكون معصوما من آثار الخميرة القديمة ! »

وعندئذ اصطبغ وجه فيلفور بحمرة القرمز ، ثم أجاب محدثته قائلا « صحيح يا سيدتي أن أبي كان من أنصار الجيرونديين ، لكنه لم يكن بين أولئك الذين صوتوا طالبين اعدام الملك · أما عن نفسي فقد وضعت جانبا كل اعتبار ، حتى اسم أبي ، وتنصلت من مبادئه السياسية · لقد كان ـ بل يحتمل أنه ما زال حتى الآن من أتباع بونابرت ، وهو يسمي نفسه (نوارتييه) ·· أما أنا فعلى العكس منه ملكي متحمس ، وقد خلعت على

نفسي لقب دي فيلفور •• وعلى كل حال فلندع مخلفات الوباء الثوري حتى تذهب وتزول من تلقاء نفسها ! »

فأجابته المركيزة : « من صميم قلبي أرجو أن ينسى الماضي الى الأبد • وكل ما أطلبه أن يكون دي فيلفور في المستقبل حازما لا يلين في مبادئه السياسية • ولتثق بأنه لو وقع في يدك أي شخص متآمر على الحكومة فان واجبك يقضي بأن تعاقبه عقابا صارما ، ولاسيما أنك معروف بالانتماء الى أسرة كانت من أنصار الجيرونديين ! »

فقال فيلفور : « انني يا سيدتي ، بحكم مهنتي والزمن الذي نعيش فيه ، مضطر الى أن أكون صارما • لقد توليت توجيه محاكمات علنية عدة بنجاح تام ، وأوقعت بالمعتدين العقاب الذي يستحقونه ، لكننا لم نقض على الخطر بعد ! »

وهنا هتفت حسناء شابة ، هي ابنة الكونت سالفيو والصديقة الحميمة للآنسة دي سانت ميران :

ــ أواه !• بربك يا مسيو دي فيلفور حاول عقد بعض المحاكمات الكبيرة أثناء وجودنا في مارسيليا ، فاني لم أدخل محكمة في حياتي ، ويقال انها متعة مسلية !

فأجاب الشاب : « نعم انها تكون مسلية بلا شك ، اذا اعتبرنا مشاهدة مآسي الحياة تسلية !• وعلى كل حال كوني على ثقة من أنه لو سنحت أية فرصة قريبة فلن أتردد في دعوتك لكي تحضري احدى المحاكمات ! »

وفي هذه اللحظة دخل خادم وهمس في أذن فيلفور ، فنهض هذا معتذرا من مغادرة القاعة قليلا ، لعمل طارىء ، ثم عاد بعد لحظات متهلل الوجه ، وقال ردا على استفسار من الآنسة دي سانت ميران :

ــ لقد دعيت لتولي التحقيق في مسألة خطيرة قد تنتهي على يد الجلاد ، واذا صحت المعلومات التي تلقيتها فان هناك مؤامرة «بونابرتية» ، وسأقرأ لكم الخطاب الذي حوى الاتهام

ثم تلا عليهم الرسالة التي أعدها دانجلر وكادروس وفرناند في حانة القرية ، متهمين فيها ادمون دانتيس بالمرور على جزيرة (البا) حيث يقيم نابليون منفيا ، وتوصيل رسالة اليه !•• ولم يكد فيللفور يفرغ من القراءة حتى هتفت الفتاة « رينيه » مصفقة وهي ترنو لخطيبها في لهفة واشفاق :

ــ أوه يا فيللفور ، كن رحيما في يوم خطبتنا هذا !•

فأجابها مبتسما : « ارضاء لك يا عزيزتي رينيه ، أعدك بأن أظهر كل التسامح الذي في طاقتي ، ولكن اذا كانت التهمة ثابتة على هذا المتآمر البونابرتي فينبغي أن تأذني لي في أن أقدم رأسه للمقصلة ! »

وغادر فيللفور المكان على الفور قاصدا الى بيته ، الملحق بقصر العدالة ،

وهناك جلس الى مكتبه مكتئبا •• وبعد لحظة أدخل عليه دانتيس ، وقال في هدوء ردا على سؤال المحقق : « اسمي ادمون دانتيس »

ــ هل خدمت في عهد الغاصب ؟

ــ كنت على وشك الانخراط فيسلك البحرية الملكية حين سقطبونابرت

وعندئذ خاطبه فيللفور وهو يخرج الخطاب من جيبه ويعرضــه عليه : « سيدى ، هل تعرف لك أعداء ؟ »

فأجابه هذا بعد أن قرأ الخطاب ، وقد غامت على وجهه ســحابة قاتمة : « كلا يا سيدى !• لست أعرف هذا الخط »

ثم أضاف وهو ينظر الى المحقق نظرة امتنان :

ــ انه لمن حسن حظى أن يحقق معى رجل مثلك ، فهذا الخطاب لا يصدر الا من عدو حاسد !

فقال له فيلفور : « الآن حدثني بصراحة ، حديث الرجل الى رجل يهتم بأمره : أى نصيب من الحقيقة فى الاتهام الوارد فى هــذا الخطاب المجهول المصدر ؟ »

فأجاب دانتيس : « لا شيء البتة !• سأروى لك الوقائع على حقيقتها •• عندما غادرنا نابولى أصيب القبطان ليكلير بحمى مخية • وفى نهاية اليوم الثالث اذ أحس بدنو أجله استدعاني وقال لى : (يا عزيزى دانتيس،أقسم أمامي لتؤدين المهمة التى سأكلفك بها •• ان قيادة السفينة سوف تؤول اليك بعد موتى ، بوصفك نائبى ، وأنا أريد منك أن تعرج بالسفينة عــلى جزيرة البا ، وأن تهبط الى البر فى ميناء (بورتو فيراجو) ثم تسأل عن مكان الماريشال الاكبر وتسلمه هذا الخطاب ، واذا أعطاك ردا عليه خطابا آخر فلتحمله الى حيث يطلب منك •• ولتذكر دائما أن رغبات الانســـان المحتضر مقدسة،علاوة على أن الرغبات الاخيرة الصادرة الى بحار من رئيسه تعتبر بمثابة الأمر !) •• وهكذا أبحرت الى جزيرة البا ، وهناك أمرت جميع البحارة بالبقاء على ظهر السفينة ونزلت وحدى الى البر ، وسلمت الرسالة للماريشال الاكبر ، فزودنى برسالة لأحملها الى شخص فى باريس ! »

فقال فيللفور على الفور : « اذا كنت قد ارتكبت ذنبا فهو ذنب عــدم الحيطة ، الذى جعلك تطيع أوامر رئيسك •• فلتهمل أمر الخطــاب الذى أحضرته من البا ، وعدنى بشرفك أن تحضر متى استدعيناك ، والآناذهب الى أصدقائك ! »

فتساءل دانتيس فرحا : « اذن فأنا مطلق السراح يا سيدى ؟ »

فقال فيللفور : « نعم ، ولكن أعطني ذلك الخطاب أولا ! »

فأجاب : « لقد أخذوه منى حين فتشونى ، وها أنذا أراه ضمن الاوراق التى أمامك ! »

ثم تناول دانتيس قبعته وقفازيه وهم بالخروج ، لكن المحقق استوقفه قائلا : « انتظر دقيقة ·· الى من كتب الخطاب ؟ »

فقال : « الى مسيو نوارتييه ، بشارع كوك هيرون بباريس ! »

ولو أن صاعقة سقطت في الحجرة ، لما كان ذهول فيللفور أشد منه لدى سماعه هذا الاسم ·· فقد شحب وجهه شحوبا مخيفا ، ثم سأل محدثه : « هل أطلعت أحدا على هذا الخطاب ؟ »

فأجاب : « كلا يا سيدى !· وأقسم بشرفي !

ـ أليس لك علم بشيء مما فيه ؟

ـ كلا ·· وأقسم بشرفي يا سيدى !

وغمغم فيللفور محدثا نفسه : « آه لو علم محتويات هذا الخطاب ، وأن نوارتييه هو والدى ، اذن لهلكت ! »

ثم أضاف محدثا دانتيس : « لم يعد في وسعي يا سيدى ـ كما كنت أؤمل ـ أن أطلق سراحك فورا ، لكنني سأجاهدكي أجعل مدة اعتقالك أقصر ما يمكن ، ذلك لأن التهمة الرئيسية ضدك هي هذا الخطاب ، وسترى الآن ما أنا صانع به »

ثم اقترب من المدفأة ، وألقى الخطاب في النار ، وانتظر حتى احترق عن آخره ، ثم قال مستطردا : « ها أنت ذا ترى أنى أحرقت الخطاب··وسوف أحجزك حتى المساء في قصر العدالة ، فاذا استجوبك أحد غيرى فقل له ما ذكرته لى ولكن حذار أن تشير بحرف الى هذا الخطاب ، وثق بأنك ان أطعت هذه التعليمات فلا ضير عليك قط ! »

فتنهد دانتيس وقال : « اطمئن يا سيدى ، لن أشير اليه بحرف ! »

واذ ذاك دق فيللفور الجرس ، فلما ظهر أحد الجنود على الباب همس في أذنه ببضع كلمات ·· ثم قال يخاطب دانتيس : « اتبعه » ·· ولم يكد الباب يغلق بعد انصرافهما حتى ألقى فيللفور بنفسه متهالكا على مقعده وراح في شبه اغماء · فلما أفاق راح يحدث نفسه قائلا : « لو كان النائب العام موجودا في مارسيليا اليوم لهلكت ، ولدمر هذا الخطاب اللعين كل آمالي ·· أواه يا أبي ، الى متى يظل ماضيك يعرقل مستقبلي ونجاحي ؟ »

وفجأة أضاء وجهه خاطر مباغت ورفت على فمه ابتسامة ، وتحجرت عيناه من الانهماك في التفكير ، وقال يحدث نفسه : « هذا يكفي !· من هذا الخطاب الذى كان سيقضى على سوف أجمع ثروة من الملك !·· والآن الى العمل الذى في يدى ! »

⊏⊐

أما دانتيس فقد خرج يتوسط حامية حراسه الى حيث كانت عربة تنتظر

في الخارج فصعد سلمها وجلس بين اثنين من جنود البوليس ، بينما جلس في مواجهتهم جنـــديان آخران ·· ثم بدأت المركبة سيرها فوق الطريق المرصوف بالأحجار··وحين وقفت آخر الأمر طلب الحراس منه أن يهبط . وتقدمه بعضـــهم الى رصيف يفضى الى البحر فأركبوه قاربا انطلق بهم فوق الماء تدفعه مجاديف أربعة من البحارة !

وتساءل دانتيس : « الى أين تأخذونني ؟ »

ولم يتلق أي جواب ، لكنه حين تطلع حواليه وقعت عينـــه على الصخرة السوداء الكئيبة التي يقوم عليها سجن قصر « ايف » ·· وبدت له القلعة الموحشة التي كانت مادة لأبشع الأساطير المخيفة خلال أكثر من ثلاثمائة عام !··

وأحس دانتيس كأنه في حلم ، وهو يصعد سلم القلعة ، ثم حين أغلق الباب الضخم بينه وبين عالم الأحرار ·· بل انه لم يتنبه وهو داخل حتى الى المحيط ، ذلك الحاجز الرهيب الذي ينظر اليه المسجونون نظرة يأس بالغة ·· وقاده حارس الى زنزانة تكاد تقع تحت مستوى الارض ، وكانت جدرانها العارية المبللة ببخار البحر كأنها مشربة بالدموع ، يضيئها مصباح خافت الضوء موضوع فوق كرسي صغير بغير ظهر · وخاطبه الحارس قائلا: « هذه غرفتك التي ستقضي فيها الليلة ·· فالوقت متأخر ، وحاكم السجن نائم ، وقد ينقلك غدا الى غرفة أخرى ·· واليك طعامك من الخبز والماء ، وهو كل ما يستطيع السجين أن يطمع فيه · طابت ليلتك ! »

وبقي دانتيس وحيدا في الظلمة والسكون ، يحس كأن أشباحا وظلالا تتنفس على جبهته الملتهبة··وعند ظهور أول طلائع الفجر عاد اليه السجان يحمل أمرا بترك السجين حيث هو ·· فوجد دانتيس واقفا في الوضــــع الذي تركه فيه أول الليل ، وكأنما تحول الى تمثـال جامد ، وقد تقرحت أجفانه من البكاء ·· لقد قضى الليلة واقفا بلا نوم !··

واقترب السجان منه فلم يبد عـلى دانتيس أنه تنبه الى اقترابه ·· ثم سأله هذا : « ألم تنم ؟ »

فقال : « لست أدري ! »

فسأله : « أأنت جائع ؟ »·فكرر الاجابة نفسها · وحينئذ سأله الحارس : « ألا تريد شيئا ؟ » · فلما أجاب بأنه يريد أن يرى الحاكم !·· هز السجان كتفيه وغادر المكان صامتا بعد أن أغلق باب الزنزانة كما كان

وعندئذ انفجر دانتيس باكيا ، ثم ألقى نفسه على الارض وراح يسائل نفسه : « أية جريمة ارتكبتها حتى أعاقب على هذه الصورة ؟ »

وانقضى اليوم على هذا المنوال ·· لم يكد يذوق طعاما ، وانما راح يدور في الزنزانة كالوحش الحبيس ، ويلوم نفسه على أنه جلس ساكنا مستسلما في الزورق أثناء نقله الى السجن ، في حين كان يستطيع أن يقفز الى البحر

«يبلغ الشاطئ» بفضل براعته المشهود بها في السباحة ·· وهنـاك يخفي نفسه حتى تصل أية سفينة فيستقلها هاربا الى اسبانيا أو ايطاليا ، حيث يلحق به أبوه ومرسيديس

ولن يحيره التفكير في الوسيلة التي يكسب بها عيشه هناك ، فالبحارة الأفذاذ أمثاله يجدون ترحيبا حيثما حلوا ، وهو يتقن الايطالية والاسبانية كأبنائهما !

وكاد يجن ندما على أنه وثق بوعد فيلفور ، فالقى بنفسه في حنق فوق القش المفروش على أرض الزنزانة وأغمض عينيه لعله ينام !

وفي الصباح التالي دخل عليه السجان بصحبة جاويش وأربعة من الجنود ، وقال السجان لهم على الفور : « هيا ·· لقد أمر حاكم السجن بنقل هـذا السجين الى الطابق الأسفل ، ليودع مع أمثاله من المجانين هناك ! »

وأمسك الحراس بدانتيس ، فتبعهم مستسلما ، وبعد أن هبط خمس عشرة درجة من السلم ، فتح أمامه باب قبو معتم ، ثم ألقي فيه وحده وأغلق الباب كما كان !

وتقدم دانتيس مادا ذراعيه في الظلام الحالك حتى لمس الجدار ، فارتمى الى جواره يائسا وحدث نفسه قائلا : « حقا ·· لقد صدق السجان ·· ان الخيط الذي يفصلني عن الجنون المطبق صار الآن أوهى من خيط العنكبوت ! »

بارقة أمل

كان قد انقضى عام على استرداد الملك لويس الثامن عشر عرشــــه بعد هزيمة نابليون في معركة ووترلو

وذهب المفتش العام للسجون ليزور قصر « ايف » ·· وسمع دانتيس وهو في زنزانته بقبو ذلك السجن جلبة الاستعداد لزيارة المفتش العـــام فادرك أن ثمة شيئا غير عادى يجرى فى عالم الأحياء ، وان لم يدرك كنهه بالضبط !

وهبط الزائر السلم الى الطابق الأسفل ، المظلم الموحش ، فلم يملك أن هتف : « أوه ·· من يستطيع أن يعيش هنا ؟ »

فأجابه حاكم السجن الذى يرافقه : « يعيش هنا متآمر خطير ، لدينـــا تعليمات متشددة بأن نراقبه بمنتهى الدقة والصرامة ، لجرأته وشدة بأسه ، وانه الآن لأشبه بمجنون ، ولن يمضى عام آخر حتى يكون جنــــونه قد اكتمل ! ·· وفى الزنزانة السفلى التى سنهبط اليها بسلم آخر لا يزيد طوله على عشرين قدما ، يوجد راهب سجين كان يرأس أحد الأحزاب الايطالية · وهو هنا منذ سنة ١٨١١ ، وقد جن بعد سنتين من دخـــوله السجن ، وهو يضحك أحيانا ويبكى أحيانا ·· وقد نحل جسمه فى البداية، ثم بدأ الآن يمتلىء ويصير بدينا · ولعله يروقك أن تراه ، فان جنونه مسل الى حد كبير ! »

وفيما كان دانتيس مستلقيا فى ركن من القبو سمع وقع خطى بالباب ، ثم صوت المفتـــاح يدار فى القفل ، فهب واقفا متربصا ، وما كاد المفتش يدخل حتى هتف يخاطبه فى ضراعة تثير الاشفاق : « أريد أن أعرف أية جريمة ارتكبتها ؟ · أريد أن أحاكم ، فاذا ثبتت ادانتى أعدم رميا بالرصاص ، والا أطلق سراحى ·· »

فأجابه المفتش : « سوف نرى ·· »

ثم التفت الى الحاكم وهمس قائلا : « ان حالة هذا المسكين تفتت قلبى ، ويجب ان تعرض على الأدلة التى تثبت جريمته ! »

وخرج المفتش وأغلق الباب من جديد ، ولكن بقى مع دانتيس فى زنزانته هذه المرة رفيق جديد هو الأمل الذى بعثته فى نفسه كلمات المفتش العام

وسأل حاكم السجن ضيفه المفتش : « هل تريد الاطلاع على السجل أولا

أم تتابع الجولة لزيارة القبو الآخر ؟ ان الراهب السجين الذى فيه يتخيل أنه يملك كنزا هائلا . وقد عرض فى العام الاول أن يدفع مليـــون فرنك مقابل الافراج عنه ، وفى العام التالى عرض مليونين .. وهكذا دواليك . وهو الآن فى عامه الخامس ، وسوف يعرض عليك خمسة ملايين ! »

▭

وهناك فى وسط ذلك القبو رأى الزائران شيخا لا نكاد أسماله البالية تغطى جسده . ولم يتحرك حين سمع جلبة الداخلين بل استمر مشـغولا بأعماله الحسابية الخاصة بكنزه ، حتى اذا أضاءت المشاعل القبو رفع رأسه وحدق قليلا فى الزائرين ثم أسرع فى لف غطاء الفراش حول جسمه !

وسأله المفتش : « ماذا تريد يا سيدى ؟ »

فأجاب : « سيدى ، أنا الراهب فاريا ، ولدت فى روما وعملت عشرين عاما سكرتيرا للكاردينال سبادا ، وقد اعتقلت سنة ١٨١١ لسبب لا أعلمه. ومنذ ذلك التاريخ وأنا أطلب الافـراج عنى ، تارة من الحكومة الفرنسية وتارة من الحكومة الايطاليه .. وانى مستعد لأن أدفع فى مقابل الافـراج عنى خمسة ملايين من الجنيهات ! »

فأجابه المفتش . « يا سيدى العزيز ، ان الحكومة غنية وليست فى حاجة الى ملايينك ، فاحتفظ بها حتى يفرج عنك ! »

فقال الراهب السجين . « اذا لم يفرج عنى وبقيت هنـــا حتى أموت ، فسوف يضيع الكنز . انى أعرض عليك ستة ملايين ، وسأقنع بالباقى فى مقابل أن ترد الى حريتى .. انى لست مجنونا ، والكنز الذى أتحدث عنه موجود حقا،وأنا على استعداد لان أوقع على تعهدبالارشاد الى مكانه ، فاذا لم تجدوه فأعيدونى الى هنا .. ولست أطلب أكثر من ذلك ! »

فقال المفتش : «انها خطة بارعة ، فلو طلب جميع السجناء ذلك لأتيحت لهم فرصة رائعة للفرار ! »

ثم خرج الزائر ومرافقوه ، وأغلق السجان الباب دون السجين !

ووفى المفتش بوعده لدانتيس ، ففحص سجله ، ووجد فيه هذه العبارة: « بونابرتى عنيف شديد الخطر ، قام بدور ايجابى فى فرار الغـاصب من البا .. ! » ولم يستطع المفتش ازاء هــذه التهمة الا أن يكتب على هامش السجل معلقا : « لا شىء يمكن عمله فى أمره ! »

▭

فى نهاية العام التالى وصل الى السجن حاكم جديد ، وكان عسيرا عليه أن يعرف المسجونين بأسمائهم لأن عددهم يزيد على الخمسين ، فصار يرمز

الى كل برقم رنزانته . وكان رقم القبو الذي يعيش فيه ادمون دانتيس ٣٤
.. وفي الوقت الذى بلغ فيه اليأس بالسجين الشاب غايته حتى دفعه الى التفكير في الانتحار ، فوجيء ذات ليلة بسماع مسموت أجوف صادر من وراء الجدار الذى ينام الى جواره ، وكأنه صوت آلة حديدية تدق الاحجار .. فحدث نفسه قائلا : « لا شك في أن هناك سجينا آخر يحاول الفرار ، آه لو استطعت مساعدته ! »

ومضى ادمون الى ركن قبوه فتناول حجرا ودق به الجدار ثم انتظر قليلا فلما لم يسمع شيئا أفعم قلبه بالأمل في نجاح مساعدته لذلك السجين زميله المجهول . ونهض فنقل فراشه من مكانه وأخذ يبحث عن شيء يثقب به الجدار حتي ينتزع حجرا منه ، ولكنه لم يجد ما يصلح لذلك غير آنية شرابه ، على أن يحطمها ويستخدم قطعة مدببة منها في الغرض المطلوب !

وكان أمامه الليل كله يعمل أثناءه ، برغم أن الظلام كان يعوقه الى حد ما .. وحين وجد الجدار شديد الصلابة أعاد الفراش الى مكانه ليخفي آثار المحاولة وآثر الانتظار الى الصباح .. أما زميله فقد دأب على عمله طيلة الليل

ولما أشرق النهار وجاء السجان الى دانتيس بالطعام ، أخبره بأن الآنية وقعت فانكسرت .. فما كان من هذا الا أن ذهب لاحضار أخرى دون أن يعنى بجمع شظايا الآنية المكسورة ..!

وبعد ثلاثة أيام نجح دانتيس ، بفضل مراعاته منتهى الحذر ، في ازالة طبقة الاسمنت التي تكسو الجدار والكشف عن حجر كبير وراءها ..وصار عليه أن يحفر حول الحجر حتي يستطيع اقتلاعه من مكانه . ولكن بماذا يحفر ؟.. ان الآنية الخزفية تعجز عن ذلك . وهنا خطر له أن يضع الآنية الحديدية التي يحضر له فيها السجان الحساء أمام الباب بحيث يدوسها هذا بقدمه حين يدخل لأخذ الصحاف الفارغة ، فتنكسر !.. فلما تم له ذلك وفق الخطة التي رسمها طلب الى الحارس أن يدع بقايا الآنية المكسورة الى الصباح ، وصادف هذا الطلب هوى من نفس السجان الكسول فقبل !

وكاد دانتيس يجن فرحا .. فلما خرج زحزح الفراش من مكانه وأهوى بمقبض الآنية المدبب على جوانب الحجر .. فلم تمض ساعة حتي أمكن اقتلاعه من مكانه ، وانفتحت في الجدار ثغرة سعتها قدم مكعب ونصف قدم .. واذ ذاك أخذ دانتيس المخلفات التى نتجت عن ثقب الجدار ودفنها في شقوق الجدران .. ثم أعاد فراشه الى مكانه ليخفي آثار فعلته ونام قرير العين !

وبعد مجهود مماثل دام بضع ليال ، فوجيء دانتيس في ذات ليلة بسماع صوت كأنه صادر من تحت الارض ، فوقف شعر رأسه دهشة واجفالا .. ثم قال له صاحب الصوت : « لا تحفر أكثر من ذلك . ولكن قل لي فقط ما ارتفاع ثغرتك ؟ »

فهمس قائلا : « انها في مستوى أرض الحجرة ! »

ـ وعلام يفتح باب حجرتك ؟

ـ على ممر يؤدى الى فناء السجن :

ـ أعتقد أن الجدار الذى تثقبه هو جدار السجن الخارجى ، فلتتوقف عن العمل حتى أتصل بك . أنا السجين رقم ٢٧ . وسأتصل بك غدا .. !

وفى الصباح التالى سمع دانتيس ثلاث طرقات .. فركع على ركبتيه وراح ينصت . ثم قال له ذلك السجين :

ـ هل خرج سجانك ؟

ـ نعم،وهو لن يعود قبل المساء.ومن ثم فأمامنا اثنتا عشرة ساعة للعمل

وبعد لحظة انهار الجزء من الارض الذى كان دانتيس متكئا عليه بيديه ، بينما كان رأسه فى الثغرة .. فارتد الى الخلف فى الوقت الذى هوت فيه كتلة من الاحجار والارض فاختفت فى حفرة انفتحت تحت الثغرة التى فتحها هو .. ثم من أعماق هذا الممر رأى رأس رجل يبرز أولا ثم يتبعه جسمه.. واذا السجين رقم ٢٧ قد صار معه فى زنزانته !

وأخذ دانتيس زميله السجين بين ذراعيه معانقا ، بل كاد يحمله نحو النافذة كى يرى ملامح وجهه .. كان رجلا ضئيل الجسم ، ابيض شعره من الآلام ، ذا عين نافذة تكاد تكون مدفونة خلف حاجبه الأغبر الغزير . وكانت له لحية طويلة تصل الى صدره . أما وجهه النحيل وخطوط ملامحه الجسورة فتنم عن رجل ألف أن يستخدم قواه الذهنية أكثر من قواه الجسمية

وعلم دانتيس من زميله أنه انتزع بعض « شناكل » سريره كى يستعين بها على حفر الطريق الذى سلكه من زنزانته الى زنزانة جاره ، وطوله نحو خمسين قدما

فهتف دانتيس ، شبه مذعور : « خمسون قدما ؟ »

ـ نعم ، هى المسافة بين حجرتك وحجرتى . ولكنى لسوء الحظ أخطأت تبين اتجاه الطريق الذى حفرته ، بسبب نقص الادوات الهندسية اللازمة.. فبدلا من أن ينتهى بى الى الجدار الخارجى المطل على البحر ، قادنى الى الممر الذى تنفتح عليه حجرتك . وهكذا ذهب جهدى كله هباء ، فان الممر يطل على فناء مزدحم بالجنود !

فقال دانتيس : « هذا صحيح ، لكن الممر الذى تتحدث عنه لا يحد غير جانب واحد من زنزانتى . وهناك ثلاثة جوانب أخرى ، فهل تعرف شيئا عن موقعها ؟ »

ـ هذا الجانب ينتهى الى الصخر الصلب .. وهناك جانب آخر ينتهى عند الجزء الاسفل من مسكن حاكم السجن ، ولو نقبناه لوصلنا الى زنزانات مغلقة . أما الجانب الرابع والأخير من زنزانتك فهو يطل على مكان مفتوح يمر فيه الحراس بلا انقطاع ، ويسهرون على حراسته ليل نهار..ومن هذا تتبين الاستحالة المطلقة فى الفرار عن طريق زنزانتك ؟

وبعد أن قضى السجينان فترة يتشاوران في تأمل عميق ، هتف دانتيس فجأة : « لقد وجدت ما كنت تبحث عنه ٠٠ ان الممر الذى سلكته من زنزانتك يمتد هنا في اتجاه الرواق الآخر ، ولا يرتفع عنه أكثر من ١٥ قدما ٠ واذن ينبغي أن نثقب جدار الممر لفتح ثغرة جانبية فى منتصفه ٠٠ وفي هذه المرة ستضع خططك بحيث تجيء أقرب الى الصواب ، فسوف نهبط فى الرواق الذى وصفته ، فنقتل الحارس الذى يحرسه ونلوذ بالفرار ! »

ــ لحظة واحدة يا صديقى العزيز ٠٠ لقد جعلت دأبى حتى الآن أن أعلن الحرب ضد الظروف ، لا البشر ٠٠ لم أجد بأسا أو خطيئة ما فى أن أثقب جدارا أو أحطم درجة من سلم ، ولكنى لا أستطيع اقناع نفسي بسهولة بأن أثقب قلبا حيا أو أنتزع حياة ٠٠ فتعال زرنى فى زنزانتي يا صديقى العزيز وسوف أريك عملا أدبيا كاملا ، هو ثمرة أفكارى وتأملاتى طيلة حياتى !

ــ على أى شيء كتبت مؤلفك هذا ؟

ــ على قميص من قمصانى ٠ لقد اخترعت تركيبا يجعل التيل مثل ورق البرشمان في نعومته وسهولة الكتابة عليه

ــ ولكن ، مم صنعت الحبر الذى كتبت به ؟

ــ كانت فى زنزانتى يوما ما مدفأة ، تغطيها طبقة كثيفة من « الهباب »، فأخذت قليلا منه وأذبته في جزء من النبيذ الذى كانوا يحضرونه الى كل يوم أحد ٠ وأؤكد لك أن الحبر الذى نتج من هذا الخليط لا يضارع ٠ لكنى في المسائل والملاحظات الهامة كنت أخز اصبعى بابرة وأكتب بدمي ذاته ٠٠ اتبعنى !

ومضى الراهب يتبعه زميله عبر الممر تحت الارض حتى وصلا دون صعوبة تذكر الى نهاية الممشى الذى يفضى الى زنزانة الراهب ٠ وهناك في تلك البقعة كان الممر يزداد ضيقا حتى لا يسمح بمرور أحد منه الا اذا زحف على يديه وركبتيه !

وأخيرا بلغا قبو الراهب ، فأخرج من أحد المخابيء ثلاث اسطوانات من التيل مكتوبة كلها ، وقال لدانتيس

ــ هاك المؤلف كاملا ٠٠ لقد كتبت كلمة « النهاية » في آخر الصفحة الثامنة والستين منذ نحو أسبوع ،فلو خرجت يوما من هذا السجن ووجدت في ايطاليا ناشرا له الجرأة على نشر ما كتبت ، فان سمعتى الادبية تكون قد توطدت نهائيا

ثم عرض الراهب على دانتيس « الريشة » التى كان يستخدمها فى الكتابة ، وهى عصا صغيرة طولها ست بوصات ، ربط في طرفها غضروف مأخوذ من رأس سمكة وقد دبب طرفه وشق مثل الريشة العادية ٠٠ فقال له دانتيس :

ــ الشيء الذى يحيرنى هو كيف تعمل فى ظلام الليل ؟

فأجابه فاريا : « لقد فصلت الشحم من اللحم الذي يجيئني في الطعام ، وصهرته فنتج عنه زيت للوقود ، ثم صنعت لي مصباحا صغيرا من قطعتين من الصوان وقطعة من الكتان المحروق . أما الثقاب فقد اضـــطرني تدبير أمره الى التظاهر بأني مصاب بمرض جلدي ، ثم طلبت قليلا من مادة الكبريت لهذا المرض ، فجلبوها لي .. انك لم تر بعد شيئا من أفانيني ! »

ثم أزاح الفراش من مكانه فظهرت خلف أحد الاحجـار ثغرة في داخلها سلم من الحبال طوله يتراوح بين خمسة وعشرين مترا وثلاثين مترا . وقد وجده دانتيس من المتانة بحيث يتحمل أي ثقل ! .. فسأل زميله الراهب : « كيف صنعتها ؟ »

فأجاب فاريا : « صنعتها من أقمصتي التي مزقتها ! »

ثم سد الراهب الثغرة بالحجر وأعاد الفراش الى مكانه وقال :

ـ هل لك الآن أن تروي لي قصتك أنت ؟

وأخذ دانتيس يسرد له قصته حتى أتمهـا ، فأطرق الراهب برهة يفكر ثم سأله :

ـ من الذي يستفيد من اختفائك ؟.. ان الأمر واضح كالشمس ، لكن بساطتك وطيبة قلبك قد أخفيـا الحقائق عليك . والآن قل لي ، هل كان دانجلر يعرف فرناند ؟

ـ لا .. بل نعم ! فالآن تذكرت أنني رأيتهما جالسين معا في الليـلة السابقة للزفاف ، وكان دانجلر يمزح في مرح بينما بدا فرناند شـــاحبا قلقا . ولست أدري كيف لم أفكر في هـــذا الأمر من قبل ؟ اني لأذكر الآن جيدا أنه كان أمامهما على المنضدة حبر وريشة وورق !.. يا للأنذال القساة القلوب !

ـ هل ثمة شيء آخر أستطيع أن أعينك على كشفه ؟

ـ نعم ، أريدك أن تعلل لي سبب القائي في الســـجن دون محاكمة أو تحقيق !

ـ هذا شيء آخر !.. الى من كان ذلك الخطاب الذي أعطي لك في « البا » موجها ؟

ـ الى مسيو نوارتييه رقم ١٣ شارع كوك هيرون بباريس

ـ نوارتييه ، نوارتييه ؟ كنت أعرف شخصا بهذا الاسم من الجيرونديين أثناء الثورة .. وماذا كان اسم المحقق الذي استجوبك ؟

ـ دي فيللفور !

وعندئذ أغرق الراهب في الضحك وقال : « كيف هذا ؟.. ألا تستطيع استنتاج شخصية نوارتييه هذا ، بعد أن حرص المحقق على اخفاء اسمه ؟.. انه أبوه ! »

ولو أن صاعقة سقطت على دانتيس ، لما كان أشد فزعا منه لدى سماع هذه العبارة !٠ وومض في ذهنه ضوء خاطف مباغت أضاء وأوضح كل ملابسات الموقف التي كانت غارقة في الظلام !

وحين عاد الى زنزانته ارتمى على فراشه ، حيث وجده الحارس حين دخل عليه في المساء محملقا في الفضاء صامتا ، بلا حراك ٠٠ لقد انتهى من تفكيره وتأملاته الطويلة الى قرار مخيف أقسم لينفذنه ما وجد الى ذلك سبيلا!

وأخيرا أفاق دانتيس من شروده على صوت فاريا ، الذي جاء على أثر خروج سجانه ليدعوه الى مشاركته عشاءه٠٠فقال له : « ينبغي أن تعلمني بعض ما تعلم ٠٠ على الأقل حتى لا تمل صحبتي !٠٠ وأنا أعدك بألا أشير بكلمة واحدة بعد ذلك الى الفرار من السجن ! »

فأجابه الراهب العلامة متأوها : « ان المعارف البشرية يا بني محدودة داخل دائرة ضيقة ، فاذا علمتك الرياضيات والعلوم الطبيعية والتاريخ واللغات الثلاث أو الاربع التي أتقنها فسوف تضارعني في العلم ٠٠ وهذا يستغرق حوالى عامين ! »

فهتف دانتيس : « عامين فقط ؟ أتعتقد أن عامين يكفيان لاستيعاب كل هذه العلوم ؟ »

وفي تلك الأمسية وضع السجينان برنامجا للدراسة ، وفي اليوم التالى بدأ تنفيذه !

سر الكنز المفقود

في نهاية ذلك العام كان دانتيس ــ بفضل ما تعلمه ــ قد صار وكأنه خلق من جديد !، لكنه لاحظ أن فاريا يزداد كل يوم كآبة ووجوما ، وكأن فكرة ما لا تفتأ تلح عليه وتطارده ٠٠ وذات يوم سمعه يقول في شرود : « آه ، لو لم يكن هناك ذلك الحارس الديدبان ! »

فسأله متلطفا : « هل فكرت في وسيلة لاسترداد حريتنا ؟ »

فقال : « نعم ، ولكن هل أنت قوى البنية ؟ »

فتناول الشاب ازميل الراهب وثناه بيديه حتى صار كهيئة حدوة الحصان ، ثم عاد فقوم اعوجاج الازميل حتى عاد كما كان !

وبدا الاغتباط في وجه الراهب الحزين ، ثم قال له :

ـ هل تعدني بألا تصيب الحارس بأذى ، الا عند الضرورة القصوى ؟

ــ أعدك بشرفي !

ــ اذن نستطيع أن نشرع في تنفيذ خطة الهرب ، وسوف تستغرق منا حوالي عام !

وأخذ الراهب يشرح لدانتيس خطته ، وهي تلخص في حفر نفق تحت الممر الموصل بين زنزانتيهما ، بالطريقة التي تحفر بها المناجم ، ثم الخروج من نافذة قريبة الى جدار السجن الخارجي ، ثم الهبوط الى البحر بواسطة الحبل الذى فتله الراهب وجعل منه سلما

وفي اليوم نفسه بدأ السجينان حفر النفق ، بالنشاط الذى توافر لهما بعد طول الراحة ، مدفوعين بآمالهما في الحرية والخلاص٠٠ولم يكن يعوق عملهما غير حرص كل منهما على العودة الى زنزانته في الموعد المناسب قبل زيارة السجان النهارية أو الليلية ٠٠ !

وانقضى عام ٠٠ وفي نهاية الشهر الخامس عشر تم حفر النفق ، وصار السجينان يسمعان بوضوح صدى خطوات الديدبان وهو يروح ويجيء فوق رأسيهما ٠٠ ولم يبق أمامهما غير انتظار حلول ليلة حالكة الظلام كي ينفذا خطة الفرار !

وفي ذات ليلة سمع دانتيس صوت الراهب يناديه في حشرجة تنم عن ألم شديد ، وكان قد تركه في زنزانته هو ، فخف اليه على عجل ، ليجده

واقفا في وسط المكان ، شاحبا شحوب الموتى ، وقد تصبب جبينه عرقا وتقلصت يداه ، وما كاد يراه حتى ابتدره قائلا :

ــ اصغ الى ما سأقوله بعناية ٠٠ انى مصـــاب بنوبة من نوبات مرض رهيب قاتل ، وقد أصابتنى النوبة الاولى منه فى العام السابق لاعتقالى ، وليس لها غير علاج واحد ٠٠ فأسرع بربك الى زنزانتى واخلع احدى قوائم السرير ، تجد فى داخلها قارورة صغيرة مملوءة الى نصفها بسائل أحمر ٠٠ أحضرها الى بسرعة ٠٠ أو فلتأخـذنى أنا الى فراشى لئلا يفاجئنى الحراس غائبا عن زنزانتى ٠ خذنى قبل أن أفقد ما بقى لى من قوة على جر ساقى !

وحين أرقد دانتيس رفيقه على فراشه قال له هذا وهو يرتجف : «شكرا لك !٠ انى أوشك أن أصاب بنوبة كالصرع ، وحين تبلغ حدتها قد ترانى راقدا بلا حراك كالميت ، أو قد تزداد النوبة شـــدة فتسبب لى تشنجات مخيفة ، فاذا حدث ذلك فاحرص على ألا تبلغ صرخاتى مسامع أحد ، والا فرقوا بيننا الى الأبد وأحبطوا كل خططنا ٠ وحين يبرد جســدى ويسكن كالجثة الهامدة ، فعندئذ ــ وليس قبل ذلك ــ افتح فمى عنوة بسـكين أو نحوها ، واسكب فى حلقى ثمانى قطرات أو عشرا من السـائل الذى فى القنينة ، وبذلك قد أشفى من نوبتى ! »

فتساءل دانتيس فى لهجة المفجوع : « قد تشفى ؟ »

وفجأة صاح فاريا : « النجدة ٠٠ النجدة ٠٠ انى أموت ٠٠ »

وبلغ من عنف النوبة أن المسكين عجز عن اتمام عبارته ، وراح جسده يهتز هزات مخيفة وتنطلق منه صرخات مروعة كتمها دانتيس بوضع الغطاء فوق رأسه ٠٠ واستمرت النوبة ساعتين ، اســترد المريض فى نهايتها هدوءه وسكن جسمه كالميت ٠٠ وانتظر دانتيس حتى زالت منه كل علائم الحياة ثم فتح فمه عنوة وسكب قطرات السائل فى حلقه ٠٠ وانقضت ساعة والمريض لا يبدى بادرة من بوادر العودة الى الحياة !٠٠ وأخيرا صـــعد الى خديه لون باهت ، وارتد الوعى الى مقلتى العين ، وبذل الراهب محـاولة متخاذلة للتحرك ٠٠ وحين استرد قدرته على الكلام قال :

ــ ان النوبة الماضية لم تدم أكثر من نصف ساعة ، وقد أفقت منها دون معاونة أحد ٠٠ أما الآن فانى عاجز عن تحريك ساقى اليمنى أو ذراعى ، ورأسى ثقيل ، مما يدل على حدوث نزيف دموى فى المخ ٠٠ وأغلب الظن أن النوبة الثالثة سوف تقضى على أو تخلفنى مشلولا مدى الحياة ٠ بل ان هذه النوبة التى انقضت قد حكمت على بالبقاء رهن السجن بقية عمرى ، فقد شلت ذراعى نهائيا ٠٠ ارفعها واحكم بنفسك اذا كنت مخطئا

ورفع الشاب ذراع الراهب فلما سقطت من تلقاء نفسها بحكم ثقلها ، قال له فى أسى : « اذن فسوف أبقى أنا أيضا ! » ٠ ثم مسح بيده فى رفق رأس الراهب المريض وأضـــاف قائلا : « أقســم بكل ما هو مقدس أن لا أتركك ما دمت على قيد الحياة ! »

فنظر فاريا الى صـــديقه الشاب نظرة شغف وقرأ فى وجهه توكيـدا لاخلاصه المكين ، فغمغم وهو يمد اليه يده :

ـ أشكرك ، وأقبل ما تعد به ٠٠ ولكن لما كنت لن أستطيع مغادرة هذا المكان ، فلا مناص من سد الثغرة التي في نهاية النفق ، خشسية أن تنهار الارض عندها بمضى المدة فيكتشف أمر ما دبرنا ويفصل بيننا مدى الحياة ٠٠فامض وأتم هذه المهمة ، ولا تحضر الى غدا الا بعد أن يخرج السجان من عندى ٠٠ فان لدى أمرا على أعظم درجة من الاهمية أود الافضاء به اليك !

وحين عاد دانتيس فى صباح اليوم التالى وجد فاريا جالسا وقد بدت عليه الراحة ، وفى يده اليسرى ورقة لوح له بها قائلا :

ـ أنظر الى هذه الورقة يا صديقى !٠٠ان فى وسعى أن أعترف لك الآن ـ بعد أن ثبت لى وفاؤك ـ بأن فيها مفتاح كنزى الذى يخصك نصفه منذ اليوم !٠ لا تحسبنى مخبولا ، فهذا الكنز موجـود فعلا يا دانتيس ، ولئن لم يتح لى أن أظفر به فسوف يتاح لك ذلك ٠ والآن اقرأ هذه الورقة !

وكانت الورقة تحوى هذه الكلمات

« فى هذا اليوم ، الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٤٩٨ ، دعيت الى لعشاء عند صاحب القداسة البابا الكسندر السادس ٠٠ وخشية أن يطمع قداسته فى أن يغـــدو وارثى ، وأن يدخر لى مصير الكردينـــال كابرارا والكردينال بنتيفوجليو اللذين قتلا بالسم ، أعلن هنا لابن أخى « جيــــدو سبادا » وريثى الوحيد أنى دفنت فى مكان يعرفه هو وقد زاره معى،وأعنى به كهوف جزيرة مونت كريستو الصغيرة ، كل ما أملك من المال والذهب والجواهر والاحجار الكريمة ، وهى ثروة تقـدر بنحو مليونين من الريالات الرومانية ٠ ويستطيع أن يجدها اذا رفع الصخرة العشرين من الأخـدود الصغير الواقع الى الشرق على امتداد خط مستقيم٠ولهذه الكهوف فتحتان ، والكنز يوجد فى الزاوية البعيدة من ثانيتهما ، وهذا الكنز أتركه بأكمله له باعتباره وريثى الوحيد !٠٠ قيصر سبادا »

وانتظر الراهب حتى أتم دانتيس قراءة الورقة ثم قال له :

ـ هذه هى وصيةالكردينال سبادا التى عين فيها مكان كنز الأسرة الذى حاول البابا الكسندر السادس اغتصابه بقتل الكردينال ٠ على أن هـــذا الكنز لم يعثر عليه أحد ٠ وقد كنت أنا سـكرتير الكردينال سبادا ، وهو آخر من حملوا هذا الاسم ، وبعد موته اكتشفت هذه الورقة بين طيات كتاب صلوات خلفه لى ٠ وقبل أن أصـــل الى جزيرة مونت كريستو لأبحث عن الكنز ، اعتقلت !٠٠ فلو أننا هربنا يوما معا ، فسيكون لك نصف هـــذا الكنز ٠٠ أما اذا مت هنا وهربت أنت وحدك فانه يكون لك بأكمله !

وتساءل دانتيس متلعثما : « ولكن ٠٠ الم يعد للكنز ورثة شرعيون فى العالم غيرنا ؟ »

فقال فاريا : «كلا !٠لقد انقرضت أسرة سبادا ، علاوة على أن الكردينال الأخير منهم جعلني وريثه الشرعي ٠٠ فلو أننا وضعنا أيدينا على الكنز ففي وسعنا الاستمتاع به دون أدنى وخز من ضمير ٠٠ وهو يســـاوى بعملتنا الحالية نحو ثلاثة عشر مليون ريال ! »

وخيل الى دانتيس أنه في حلم،فتأرجح برهة بين الفرح وعدم التصديق ٠٠ بينما استطرد فاريا : « لقد كتمت عنك قصة هذا الكنز حتى الآن كي أختبر خلقك ، ثم أفاجئك بها ٠٠ ولو كنا قد هربنا قبل أن تصيبني النوبة لقدتك بنفسي الى جزيرة مونت كريستو ، فأنا أعدك بمثابة ابن لي ، وقد أرسلك الله الى كي تواسيني في الوقتالذى لم يعد في استطاعتي أن أكون حرا ، ولا والدا »

ثم مد فاريا ذراعهالسليمة الى دانتيس فأخذها الشاب بينيديه وانخرط في البكاء !

ولم يكن الراهب يعـرف جزيرة مونت كريســـتو ، لكن دانتيس كان يعـــرفها ، فقد طالما مر بها ٠ وهي تقع على بعد خمسة وعشرين ميــلا من « بيانوزا » ، بين جزيرة كورســـيكا وجزيرة البا ٠ وقد كانت الجزيرة — وما تزال — مهجورة تماما ، وهي صخرة مخروطية الشكل تبدو كأنما قد قذفت بها قوة بركانية من جـوف المحيط ٠٠ وقد رسم دانتيس خريطة تقريبية للجزيرة ، وأدلى اليه فاريا ببضع نصائح تتعلق بطريقة البحث عن الكنز

ولكن ، كأنما شاء القدر أن يحرم المسجونين من فرصتهما الاخيرة٠٠فقد اعادت سلطات السجن بناء الجناح المطل على البحر ، لانه كان قد تهدم في كثير من المواضع ، وسدت بكتل ضخمة من الاحجار تلك الثغرة التي أغلقها دانتيس مؤقتا بناء على نصيحة الراهب٠٠وهكذا قام سد جديد منيع يهدم كل آمال السجينين في الفرار !

الميت الهارب

استيقظ دانتيس من نومه فجأة على صوت نداء صادر من زنزانة فاريا زميله الراهب السجين ، فسارع اليه منزعجا ، وعلى ضوء المصباح الصغير هناك رآه شاحب الوجه غائر العينين متشبثا بقوائم السرير ، وقد تقلصت قسماته بتلك الاعراض المخيفة التي ظهرت عليه في النوبة السابقة !

وقال له فاريا بصــــوت خائر : « وا أسفاه يا صــديقي !٠٠ ان النوبة الفظيعة تعاودني ، ولن يمضي ربع ساعة حتى أكون ساكنا كالجثة الهامدة٠٠ فافعل ما فعلته في المرة السابقة ، ولكن لا تطل الانتظار ٠٠ فاذا رأيت بعد أن تسكب في حلقي اثنتي عشرة قطرة ، بدلا من عشر ، أنني لا أفيق ٠٠ فاسكب بقية محتويات القارورة أيضا في فمي ! »

وأخذ دانتيس صديقه المريض بين ذراعيه وأرقده على الفراش٠٠وانتابت الراهب على الأثر تشنجات عنيفة ، فرفع رأسه بمجهود أخير وهمس له : « مونت كريستو ، لا تنس مونت كريستو ! »

وحين قدر دانتيس أن اللحظة المناسبة لاسعاف صديقه قد حانت ، فتح فكيه وسكب بينهما اثنتي عشرة قطرة ثم انتظر ٠ وكانت القارورة تحوي بعد ذلك ضعف هذا القدر٠٠وانقضى نصف ساعة دون أن يحدث أي تغيير في حالة المريض فوضع فم القنينة بين شفتي الراهب القرمزيتين وسكب ما فيها في حلقه !٠٠ فأحدث الدواء أثرا مؤقتا هز كيان المريض هزا عنيفا ثم عاد جسده الى سكونه الاول ، وظلت عيناه مفتوحتين ٠٠ وشيئا فشيئا سرت فيه برودة الموت ، وضعف نبضه تدريجا حتى وقف آخر الأمر !

وكان موعد مرور السـجان قد اقترب ، فأطفأ دانتيس المصباح وأخفاه بعناية ثم خرج الى الممر السرى وأغلق الثغرة بالحجر بكل ما وســعه من اتقان ٠٠ وحين وصل الى زنزانته لم يلبث أن سمع جلبة السـجان وهو يكتشف موت السجين ، ثم أصوات الحاكم وطبيب السجن والحراس ،وكان الحاكم يقول : « انه سوف يدفن الليلة بكل تكريم في أحدث غرارة نجدها هنا ! »

ثم سمعت خطوات أخرى ، وضجيج أعقبه تحريك سرير الميت،وأصوات مختلفة مختلطة ٠٠ وبعد حين هدأ كل شيء وعاد سكون الموت يخيم على السجن ٠٠ فتسلل دانتيس الى الممر ، واذ أيقن من خلو زنزانة صديقه من أى انسان رفع الحجر في حذر ودلف اليها !

كانت الجثة قد وضعت في كفنها داخل غرارة من الخيش ، استعدادا لالقائها في البحر

واذ رأى دانتيس ذلك المنظر الذى يعده للفراق الأبدى عن صديقه الذى كان سلواه الوحيدة في سجنه ، عاودته فكرة الانتحار التي كانت تراوده من قبل ، فراح يذرع المكان جيئة وذهابا ·· وفجأة وقف الى جوار الفراش جامدا ، وغمغم :

ـ يا الهى !· ما الذى أوحى الى بهذه الفكرة ؟· أهى من وحيك ؟· لكن ما دام أن أحدا غير الموتى لا يخرج حرا من هذا المكان ، فلآخذ مكان الميت !

ولم يتمهل ليتدبر هذا القرار اليائس ، بل جذب الجثة من الغرارة وحملها عبر النفق الى زنزانته هو ، حيث وضعها فوق فراشه ، ولف رأسها بالغطاء الذى يتدثر به أثناء نومه ·· ثم قبل جبين صديقه الوفي التعس وأدار رأسه نحو الحائط كي يحسبه السجان نائما حين يدخل في الزيارة التالية، ومرق عائدا الى الممر حاملا معه ابرة وخيطا وسكينا !

وحين بلغ زنزانة الراهب دلف الى داخل الجوال واتخذ الوضع الذى كانت عليه الجثة ثم خاط الغرارة من الداخل كما كانت !

وانقضى الليل على هذه الحال ، دون أن يحضر أحد·وفي الساعة السابعة من الصباح بدأ عذاب دانتيس الحقيقي !· ولم تستطع يده التي وضعها فوق قلبه أن تخفف من عنف ضرباته الشديدة ، بينما راح يمسح بيده الاخرى قطرات العرق المتصبب على وجهه · ومن وقت لآخر كانت تسرى في جسمه قشعريرة باردة تعصر قلبه ، حتى خيل اليه أنه سوف يموت·· وأخيرا سمع صدى خطوات تدنو ، فتذرع بكل ما بقى له من شجاعةوحبس أنفاسه !·· ثم فتح الباب ، ودخل منه رجلان ، بينما وقف ثالث عندالباب يحمل مصباحا بلغ ضياؤه الخافت عين الشاب عبر الغرارة السميكة ·· وحمله كلا الرجلين من طرفي الغرارة ، وسمع أحدهما يقول للآخر :

ـ انها ثقيلة هذه الجثة مع أن صاحبها كان عجوزا نحيل الجسم !

فأجابه زميله : « يقولون ان وزن العظام يزداد بمقدار نصف رطل كل عام ! »

ثم سارت القافلة يتقدمها حامل المصباح ، فصعد رجالها السلم المؤدى من القبو الى الطابق الاول ·· وفجأة أحس دانتيس هواء البحر الرطب المنعش يصدم جبهته ·· ثم وضعه حاملاه وهو في الغرارة على حاجز ، وثبتا ثقلا حديديا بقدميه في عنف كاد يرغمه على أن يصرخ من الألم !·· ثم عادا فحملاه واستأنفا السير حتى سمع اصطفاق أمواج البحر وهى تصدم الصخور التى يقوم عليها بناء السجن ·· ثم قال أحد الحمالين : « يا لها من ليلة باردة ، لا تناسب الغوص في البحر ! » ، فأجابه الثانى : « ان الراهب سوف يصاب بالبلل ! »

ثم انفجر كلاهما ضاحكين في وحشية ! فوقف شعر رأس الشاب من الفزع !.. وعاد الاول يقول : « ها قد وصلنا أخيرا » . فاعترض زميله قائلا : « بل لنصعد بضع درجات أيضا ، فلعلك تذكر أن الميت الذى القيناه آخر مرة قد اصطدم بالصخور ، فاتهمنا الحاكم بالاهمال ..! »

ثم صعدا خمس درجات أو ستا ، وتوقفا أخيرا .. وأحس دانتيس أيديهما تؤرجحه ذهابا وجيئة تأهبا لالقائه في اليم ، وسمع احدهما يقول: « واحد .. اثنين .. ثلاثة ! » .. وفي هذه اللحظة شعر بهما يطوحان به في الفضاء بقوة فيهوى من حالق كالطائر الذبيح ، بسرعة مروعة جعلت دمه يجمد في عروقه !

وبدا له كأن سقوطه استمر قرنا من الزمان !..وأخيرا اصطدم في عنف بالماء البارد ، فأطلق برغمه صيحة حادة اختنقت حين غاص في أعماق البحر ، يجذبه الى قاعه ثقل زنته ستة وثلاثون رطلا ، وما لبث قليلا حتى شعر بأنه استقر في قاع البحر .. في مقبرة سجن قصر ايف !

وبرغم ما لقيه من الفزع خلال « رحلته » الرهيبة هذه ، كان من حضور الذهن بحيث لم يكد يغوص في لجة اليم حتى مد يده اليمنى بالسكين الى الغرارة التى تحتويه فشقها وأخرج ذراعه ثم جسمه ، لكنه عجز برغم جهوده أن يخلص نفسه من الثقل الذى يجذبه نحو القاع .. وأخيرا انحنى على نفسه ، وبمحاولة أخيرة يائسة قطع الرباط الذى يثبت الثقل في قدميه ، في اللحظة التى كاد فيها يموت مختنقا !.. ثم رفع جسمه نحو السطح بكل ما بقى له من قوة .. وحين بلغه جذب نفسا عميقا من الهواء ثم غاص في الماء مختارا خشية أن يلمحه أحد « زبانية » السجن !

وحين برز فوق الماء مرة أخرى كان قد ابتعد عن البقعة التى ألقى فيها نحو خمسين قدما .. وكانت تنبسط فوق رأسه سماء سوداء تنذر بالعاصفة ، ويمتد البحر أمامه فسيحا كئيبا رهيبا ، ، تزأر أمواجه وترغى وتزبد .. وخلفه كان يقوم كالشبح ذلك البناء الصخرى الموحش الذى تمتد صخوره المدببة كالأذرع التى تتأهب للانقضاض على فريستها . وفوق الصخرة العليا كان مصباح يضيء وجهي رجلين . خيل اليه أنهما الحمالان اللذان قذفا به الى البحر وقد سمعا صيحته فوقفا يرقبان ظهوره فوق صفحة الماء !.. وعلى هذا لم يجد بدا من أن يعود فيغوص ويبقى تحت اللجة أطول فترة ممكنة ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير عليه وهو المشهود له بأنه أبرع سباح في مارسيليا .. وحين برز فوق الماء مرة أخرى كان المصباح قد اختفى !

واعتزم دانتيس أن يهرع نحو أقرب جزيرة ، وكانت تبعد فرسخا عن قصر ايف . وبعد انقضاء أكثر من ساعة في السباحة المتواصلة ضد الريح ، احس ألما حادا في ركبته ، فمد يده .. واذا هي تصطدم بعائق من الصخور

٠٠ وبوثبة أخرى بلغ شاطىء جزيرة «تيبولين» ٠ فتمدد هناك فوق صخور الجرانيت وهو يرفع الى الله أحر صلوات الشكر ٠٠ ثم ما لبث قليلا حتى راح في النعاس ، بعد أن نال منه الجهد الذي بذله في الوصول الى هناك !

وبعد حوالى ساعة استيقظ من نعاسه على هزيم الرعد ، وحين نهض كان البرق يضيء الظلمة بومضات خاطفة رأى على هديها زورقا من زوارق الصيد تتقاذفه الامواج وقد تعلق أربعة من ركابه بشراعه الممزق بينما تعلق الخامس بالدفة المكسورة ٠٠ فاندفع دانتيس يعـدو هابطا الصـخور ، فلما بلغ الشاطىء لم ير للزورق أثرا !

وهدأت العواصف بالتدريج ٠٠ ثم أشرق النهار ، فقال الشاب محدثا نفسه : « بعد ساعتين أو ثلاث سوف يدخل السـجان زنزانتي فيكتشف الحادث وتطلق سلطات السجن صفارة الانذار ٠٠! »

واستدارت عيناه في اتجاه قصر ايف ، فلمح عن بعد سـفينة شراعية صغيرة من طراز سفن « جنوة » قادمة من ميناء مارسيليا ٠٠ فهتف جذلا : « هل يعقل أن أكون بعد نصف ساعة عـلى ظهرها ٠٠؟ ان هؤلاء المهربين الذين يرتدون مسـوح التجار سوف يفضلون أن يبيعوني على أن يقوموا بعمل انساني ، لكنني سأزعم أني بحار غرقت في عواصف الليلة السابقة ، وسوف يصدقون قصتي ما دام أن أحدا لن يفندها أو ينقضها ! »

وحانت منه نظرة الى حيث غرق زورق الصيد ، فلمح غطاء رأس أحمر من أغطية البحارة متعلقا بطرف صخرة ، وبضع قطع من أخشابه عائمة فوق الماء ٠٠ وفي لحظة رسم خطته : سبح الى مكان غطاء الرأس حتى بلغه ثم وضعه على رأسه ، وتعلق باحدى قطع الاخشاب الطافية واتجه الى حيث وقف في طريق السفينة المقتربة ٠٠!

فى جزيرة مونت كريستو

قضى دانتيس شهرين ونصف شهر يعمل بحاراً فى سفينة المهربين ، ويمر بجزيرة مونت كريستو ذهابا وايابا بدون أن يجد الفرصة الملائمة للهبوط فيها .. وأخيراً اقترح الربان الوقوف عندها للراحة . وكانت مهجورة تماما بحيث بدت مكاناً نموذجيا لتجارة التهريب !

وفى اليوم التالى لم يرتب أحد فى نوايا دانتيس حين أعلن عزمه على اصطياد بعض الوعول البرية التى تقفز بين الصخور .. ثم تظاهر بأنه سقط من صخرة واصيب فى ركبته اصابة تعجزه عن الحركة .. وحين اقترح عليه زملاؤه أن يحملوه الى السفينة ابى قائلا : « انه يفضل الموت على آلام التحرك ! » .. ثم طلب الى اخوانه ان يتركوا له بعض المؤن ويعودوا اليه بعد يومين أو ثلاثة ، أو يرسلوا اليه أى زورق صيد يصادفونه فى البحر ، فلم يسعهم الا اجابته الى طلبه !

ولم تكد سفينتهم تبحر حتى هب من مرقده فى خفة الغزال حاملا معه بندقيته وفأسه ، وهرع نحو المكان الذى حددته خريطة الراهب مكانا للكنز .. وهناك لمح آثاراً على الصخور تؤدى الى أخدود صغير يكفى اتساعه وعمقه لمرور زورق صغير واخفائه عن العيون ، فرجح أن يكون الكردينال سبادا قد أحضر كنزه الى هذا المكان فى زورق أخفاه فى الأخدود ثم دفن كنزه فى نهايته ، عند صخرة ضخمة تغطى تلك النهاية !

وتمشيا مع هذه النظرية راح يحفر بفأسه مجرى صغيراً بين الصخرة العليا والتى تحتها ، ثم ملأه بالبارود وأشعل طرف الفتيل وانسحب .. فلما حدث الانفجار رفع الصخرة العليا عن قاعدتها وحطم السفلى تحطيما ، وفر من شقوقها آلاف الحشرات ، يتبعها ثعبان ضخم كان كأنه شيطان الكنز الحارس ، لكنه لم يلبث أن تسلل الى الظلمات واختفى !

واقترب دانتيس من الصخرة العليا ، التى مالت نحو البحر .. ثم وضع جذر شجرة زيتون فى احد الشقوق وبذل كل قواه واجهد كل أعصاب جسمه كى يزحزح الحجر .. واخيرا تداعت الصخرة ، وانزلقت تتدحرج من قمة الى قمة حتى اختفت آخر الأمر فى جوف البحر ..!

وكانت البقعة التى تغطيها الصخرة مستديرة الشكل ، تكشف عن حلقة حديدية مثبتة فى بلاطة مربعة ، فوضع « عتلة » شجرة الزيتون فى الحلقة وجذبها بكل قوته ، فانكشفت البلاطة عن سلم يؤدى الى كهف عميق تحت الارض !



« وحين استرد دانتيس هدوءه ، عكف على احصاء محتويات كنزه »

وهبط دانتيس السلم ، لكنه بدلا من أن يجد ظلمة في قاع الكهف وجد ضوءا خافتا يتسرب من شقوق الصخور .. وتذكر أن وصية الكردينال حددت مكان الكنز بأنه في « أبعد زاوية من الفتحة الثانية » .. واذن فعليه أن يبحث الآن عن الكهف الثاني . وخطر له أن هذا الكهف المنشود لا بد أن يوجد في مكان أبعد من شاطيء الجزيرة ، فراح يدق الصخور وينصت الى رنينها عله يسمع رنينا أجوف ينم عن وجود الكهف .. واخيرا خيل اليه انه يسمع الرنين المطلوب ، فعاد يدق الصخور ليتأكد من الأمر ، فتهشمت طبقة خارجية تكسو الصخرة ، وكشفت بذلك عن حجر أبيض كبير !

لقد غطيت فتحة الكهف بالأحجار ثم كسيت بتلك الطبقة وطليت بحيث تشبه ما حولها من الجرانيت !

والفأس التي كانت ثقيلة في البداية صارت الآن في خفة الريشة ..

وحين تم لدانتيس الكشف عن الفتحة هبط الى الكهف الثاني ، فاذا هو أعمق وأحلك ظلمة من الاول !.. والى يسار الفتحة كانت توجد زاوية عميقة مظلمة ، قدر الشاب من منظرها أن الكهف لو وجد فلن يوجد الا فيها .. ومن ثم تقدم نحوها وأهوى بفأسه على أرضها ..!

وعند الضربة الخامسة أو السادسة اصطدمت الفأس بسطح ذي رنين يشبه الحديد ، وسرعان ما رأى الشاب خزانة من خشب البلوط مثبتة بأحزمة من الفولاذ .. وفي وسط غطائها لوحة فضية حفر عليها شعار أسرة سبادا !

وأمسك الصندوق من مقبضه وحاول أن يرفعه ، فلم يفلح .. فحول همه الى محاولة فتحه .. وبعد جهود جبارة بمختلف الوسائل لانت الاقفال وانكسرت . ولكنه أصيب بدوار ، فأغمض عينيه وفتحهما ، ليستوثق من أنه لا يحلم !

كان الصندوق مقسما الى ثلاثة أقسام : لمعت في الاول منها أكوام من العملة الذهبية البراقة .. وكان القسم الثاني يحوى كتلا من الذهب غير المصقول .. أما الثالث فقد اغترف الشاب منه بيديه حفنات من الجواهر الخلابة ، من ماس ولؤلؤ وياقوت ..!

وحين استرد هدوءه وأطربته فرحته عكف على احصاء محتويات كنزه : كانت هناك ألف سبيكة من الذهب الخالص ، زنة كل منها من رطلين الى ثلاثة .. ثم خمسة وعشرون ألف ريال ، يساوى كل منها نحو ثمانين فرنكا من العملة المتداولة ، ويحمل رسم البابا الكسندر السادس وأسلافه .. ثم أحصى عشرين حفنة من الماس واللآليء النادرة

وكان النهار قد أوشك أن ينقضي ، فخشي دانتيس أن يفاجئه أحد في الكهف فغادره وبندقيته في يده. وفي تلك الليلة تناول عشاءه بضع قطع

من البسكويت وكأسا من الروم ، ثم اختلس من الليل بضع ساعات نامها فوق فوهة الكهف ، نوما متقطعا تتخلله مشاعر مختلطة من الفرح والفزع !

◻

ولما أشرق النهار التالى بعد أن انتظره دانتيس بفارغ الصبر ، هبط الى مكان الكنز حيث ملأ جيوبه بالجواهر ثم اغلق الصندوق باحكام واعاد كل شيء الى مظهره الاول سواء فى داخل الكهف أو خارجه ، بحيث لم يترك وراءه أثرا ينم عن اقتراب انسان من المكان !.. ثم ربض على الشاطىء فى انتظار وصول قافلة من البحارة !

وفى اليوم السادس عاد المهربون الى الجزيرة ، فلم يكد دانتيس يلمح شراع السفينة «اميليا الشابة» حتى خف الى الشاطىء ليستقبل اخوانه.. وحرص على أن يقول لهم ان اصابتــه لم تشف تماما ، وان خفت حدة آلامه !.. وفيما هو يثرثر معهم فهم من حديثهم أنهم يخشون أن تلتقى بهم سفينة من سفن حراس السواحل علموا أنهــا غادرت ميــناء طولون لمطاردتهم !. ولم تضيع الجماعة وقتا فى الانتظار فاقلع الجميع بسفينتهم الى ميناء «ليجهورن».. وهناك عرج دانتيس على جوهرى يهودى باع له أربعة من الاحجار الصغيرة التى يحملها فى جيوبه بعشرين الف فرنك .. ثم عاد يقول لزملائه البحارة المهربين ان ميراثا قد آل اليه من عم له ، وانه سوف يتركهم نهائيا . ثم قدم لصديق له منهم كان قد أحبه ــ ويدعى «جاكوبو» ــ سفينة شراعية جديدة على سبيل الهدية ، علاوة على مبلغ من المال يعينه على استئجار بحارة لحسابه والاستقلال بالعمل ، مقابل شرط واحد اشترطه دانتيس عليه ، هو أن يذهب من فوره الى مارسيليا ويستقصى انباء شيخ مسن يدعى « لويس دانتيس » يقطن حارة « دى ميان » ، وفتاة شابة تدعى « مرسيديس » من قاطنات قرية « كاتالان »

وفى صباح اليوم التالى ابحر جاكوبو بسفينته الى مارسيليا ، على أن يعود فيلتقى بولى نعمته فى جزيرة مونت كريستو ، حيث يقدم له تقريرا عن المهمة التى اداها فى مارسيليا !

وبعد ان ودع دانتيس زملاءه « المهربين » ووزع عليهم الهبات والهدايا لمناسبة الارث الذى آل اليه ، رحل وحده الى جنوة .. وعنــد وصوله كان احد اساطين بناء السفن يجرى تجربة « يخت » جديد صنعه لثرى انجليزى ، مقابل مبلغ اربعين الف جنيه . فعرض عليه دانتيس أن يبيعه اياه بثمن يزيد عشرين الفا أخرى !.. ووجد الصانع ان فى وسعه بناء يخت آخر مماثل قبل موعد وصول الثرى الانجليزى لتسلمه ، فقبل ما عرضه عليه الشاب .. وعندئذ قاده دانتيس الى منزل تاجر يهودى ، حيث خلا هو الى التاجر فترة باعه خلالها عددا من الجواهر التى يحملها فى جيوبه ،

ثم خرج فدفع الى صاحب اليخت الثمن المتفق عليه .. وطلب اليـه ان يصنع خزانة سرية توضع في مخبأ غير منظور في كابينـه الخاصة باليخت .. فأتم الصانع المهمة المطلوبة منه في اليوم التالي ..

وبعد ساعتين ابحر دانتيس باليخت من ميناء جنوة ، بين حشـد من المتفرجين الذين تجمهروا ليروا النبيل « الاسـبانى » الذى يقود يختـه بنفسه !.. وعند غروب شمس اليوم التالي رسا دانتيس بيخته في أحد خلجان الجزيرة ، ولم يكد يشرق النهار حتى عكف على نقل كنزه الضخم الى المخبأ السرى الذى في كابينته ، ففرغ من مهمته قبيل الغروب !

ثم قضى دانتيس أسبوعا آخر يتجول بيخته حول الجزيرة ـ في انتظار عودة جاكوبو ـ ويدرس معالمها بعناية الفارس البارع الذى يدرس مؤهلات جواده الجديد الذى يعده للاشتراك في سباق حاسم !

وفي اليوم الثامن لمح سفينة جاكوبو الصغيرة تدنو من الجزيرة ، وحين رسا بها صاحبها الى جوار يخت مولاه حمل اليـه نتيجـة أبحاثه بصدد المهمتين اللتين عهد بهما اليه .. وكانت نتيجـة غير سارة : فان « لويس دانتيس » قد مات .. أما مرسيديس فاختفت ولا يعلم احد عنها شيئا !

أصغى الشاب الى هذه الأنباء بهدوء متكلف ، ثم قفز نحو الشاطىء في خفة معربا عن رغبته في ان يترك وحده بعض الوقت .. وحين عاد بعد بضع ساعات أمر اثنين من بحارة جاكوبو باعداد اليخت للمسـير ، في اتجـاه مرسيليا !.. لقد كان دانتيس متأهبا لنبأ موت أبيه ، اما اختفاء خطيبته الغامض فلم يدر كيف يعلله !

ولم يكن في وسعه أن يزود أحدا من رجاله بتعليمات واضحة بصدد المستقبل ، بغير أن يفشي سره .. الى ان بعض المعلومات التى كان يريد الوصول اليها لم تكن تصلح بطبيعتها لأن يستقصيها سواه . وكانت المرآة قد دلته عند وصوله الى ليجهورن على ان هيئته قد تغيرت بحيث لم يعد في امكان احد أن يعرف حقيقة شخصيته !.. هذا الى كونه يملك الآن من وسائل التنكر ما يكفل اتخاذه أى اسم واية شخصية يقع اختياره عليها !

وهكذا رسا بيخته ذات صباح جميل في ميناء مارسيليا ، تتبعه سفينة جاكوبو الصغيرة .. واختار لرسوه الرصيف المواجه لذلك الذى حمل منه الى القارب الذى أقله الى سجن « قصر ايف » الرهيب ، في تلك الليـلة الليلاء التى لا تنسى !

وبرغم أنه كان يرتجف رجفة غير ارادية كلما وقع بصره على احد رجال الشرطة ، فانه تذرع بقدرته على تمالك نفسه ، وكان قد تعود ذلك أثناء معاشرته للراهب العلامة فاريا في السجن ، فلم يبد عليه أدنى انفعال وهـو يقدم الى شرطة الميناء جواز سفره الانجليزى الذى حصـل عليـه من ليجهورن .. وبفضل ذلك الجواز الاجنبى الذى يحترم في فرنسا أكثر من

جوازات البلاد نفسها ، استطاع أن ينزل الى البر بلا صعوبة تذكر !

وكان أول من لفت نظره على أرصفة الميناء بحار من مرؤوسيه القدامى في السفينة « فرعون » ، فخطر له أن يمتحن تنكره بالتحدث الى الرجل .. فاتجه اليه وراح يلقى عليه بعض الأسئلة المختلفة وهو يرقب تعبير وجهه بعناية .. لكن البحار لم تصدر عنه كلمة أو نظرة تلقى في الروع انه قد رأى محدثه يوما من الأيام من قبل !.. وفي النهاية منحه دانتيس قطعة من النقود جزاء له على شهامته وانصرف !

وكانت كل خطوة يخطوها تقبض قلبه وتثير في نفسه عواطف وذكريات شتى .. فلما بلغ نهاية شارع « دي نواي » ولمح حارة « دي ميسان » اهتزت ركبتاه لفرط تأثره حتى كاد يسقط تحت عجلات عربة عابرة !.. واخيرا بلغ المنزل المتواضع الذي كان يقطنه أبوه !

كان المسكن الصغير الذي عاش فيه الأب يقع في الطابق الخامس ، حيث يسكن الآن شاب وعروس لم يمض على زواجهما أسبوع .. ولم يكن قد بقى من مظهر المسكن القديم غير جدرانه .. فالتمس الزائر رؤية المسكن ، وحين لحظ الزوجان عليه علائم التأثر العميق آثرا أن يحترما قداسة حزنه فلم يسألاه عن سببه وملابساته وتركاه يتأمل المكان كما يشاء .. فلما انسحب آخر الأمر من موطن ذكرياته رافقاه حتى الباب ووجها اليه الدعوة كي يعود لزيارة المكان في الوقت الذي يروقه !

واثناء نزول دانتيس السلم توقف في الطابق الرابع ليستفسر عما اذا كان « الترزي » المدعو « كادروس » ما يزال يقطن مسكنه القديم ؟.. فقيل له ان الرجل قد أصيب بضائقة جعلته يهجر مهنته ، وانه الآن يدير حانة صغيرة على الطريق بين « بيلجارد » و « بوكير »

ثم استفسر عن مالك المنزل ، فلما عرفه وكل مسجلا للعقود فابتاعه له من مالكه باسم « اللورد ويلمور » — وهو الاسم المثبت في جواز سفره الانجليزي — مقابل مبلغ خمسة وعشرين الف فرنك ، وهو مبلغ يساوي عشرة اضعاف قيمته الحقيقية .. ولو طلب المالك نصف مليون من الفرنكات ثمنا له لحصل عليها !.. وفي اليوم نفسه اخطر مسجل العقود قاطني الطابق الخامس أن المالك الجديد يعرض عليهما أن يختارا اى مسكن آخر في المنزل بالايجار الزهيد نفسه ويخليا مسكنهما الصغير !

وقد اثارت هذه القصة الغريبة اهتمام اهل الحي وفضولهم ، فراحوا يعللونها بشتى التعليلات ، لكن تعليلا واحدا منها لم يقترب من الحقيقة الخفية أو يحوم حولها !

جزاء الوفاء

لعل الذى طافوا بجنوب فرنسا ، مروا خلال الطريق بين مدينة «بوكير» وقرية «بيلجارد» بحانة صغيرة يؤرجح الهواء على واجهتها لافتتها المصنوعة من الصفيح .. وقد أشرف على ادارتها خلال السنوات السبع الاخيرة رجل وزوجته ، يعاونهما اثنان من الخدم . أما الرجل فكان صاحبنا « الترزى » القديم « جاسبار كادروس » .. وأما زوجته فكانت امرأة شاحبة يبـدو عليها المرض ، لا تكاد تبرح مخدعها في الطابق الثانى ، بينما يشرف زوجها على استقبال الرواد واجابة طلباتهم !

وفي ذات يوم رأى كادروس رجلا يرتدى مسوح رجال الدين السـوداء ويمتطى جوادا ، مقبلا من جهة بيلجارد ، وعلى رأسه قبعة مثلثة الاركان .. فلما ترجل أمام باب الحانة استقبله صاحبها مرحبا.فألقى عليه القس نظرة طويلة فاحصة ، ثم قال يسأله فيلهجة ايطالية قوية : «أنت مسيو كادروس على ما أعتقد ؟.. أما أنا فأدعى القس « بوزونى » .. هل عرفت فى سنة ١٨١٤ ، أو ١٨١٥ ، بحارا شابا يدعى دانتيس ؟ »

فأجابه كادروس وقد احمر وجهه تحت نظرة القس الصـافية الهادئة : « دانتيس ؟ نعم .. لقد كان ادمون دانتيس من أعز أصدقائى ! »

ثم استطرد بعد حين قائلا : « أخبرنى اذا سمحت أيها الأب : ماذا جرى لادمون التعس ؟ هل تعرفه ؟ هل هو حى مطلق السراح ؟ هل هو موسر وسعيد ؟ »

— بل انه مات سجينا تعسا محطم القلب فريسة لليأس المرير ..!

عندئذ غامت على وجه كادروس سحابة من الشحوب الشبيه بشحوب الموتى ، ثم أدار وجهه بعيدا ، ورآه القس يمسح الدموع عن عينيه بطرف المنديل الاحمر المربوط حول رأسه .. ثم أردف : « هل كنت تعرف الفتى المسكين اذن ؟ »

— لقد استدعيت لأراه على فراش الموت،كى أدخل على نفسه عزاء الدين . ولقد أقسم دانتيس فى حضرة الموت انه يجهل كل شىء عن سبب سجنه !

فغمغم كادروس : « هذا صحيح .. آه يا سيدى ، ان الفتى المسكين قد ذكر لك الحقيقة ! »

فقال القس : « ولهذا السبب ناشـدنى أن أكشف الستار عن لغز لم

يستطع يوما أن يحله ، وان أنقى ذكراه من اية وصمة او شائبة تكون قد علقت بها ! »

وهنا استراحت نظرات القس على وجه كادروس الذى تمشت فيه كآبة وانقباض شديدان .. ثم استطرد قائلا : « لقد عرف دانتيس فى سجنه ثريا انجليزيا أطلق سراحه فى عهد الامبراطورية الثانية ، كان يملك ماسة كبيرة القيمة أهداها يوم خروجه من السجن الى دانتيس ، اعرابا عن امتنانه وشكره له على العناية والعطف اللذين أظهرهما الشاب نحوه وهو يمرضه أثناء اصابته بمرض خطير فى سجنه . وتقدر الماسة بنحو خمسين ألف فرنك ! »

وأخرج القس من جيبه علبة صغيرة فتحها فبهرت الماسة التى فى داخلها عينى كادروس ، الذىسأله ملهوفا : « ولكن كيف وصلت الماسة الى حيازتك يا سيدى ؟ هل أوصى لك ادمون بها ؟ »

فقال القس : « كلا !. بل جعلنى منفذا لوصيته ، وقد ذكر لى أنه كان يوما له اربعة أصدقاء أوفياء ، الى جانب العذراء التى كان خطيبها . وقد شعر بانهم جميعا تألموا لغيابه أشد الألم .. أحدهم يدعى كادروس .. »

وهنا ارتجف صاحب الحانة لذكر اسمه .. بينما استطرد محدثه يروى على لسان دانتيس،متظاهرا بأنه لا يلحظ ارتباك كادروس : « ..والصديق الثانى يدعى دانجلر .. والثالث كان برغم أنه غريمه يحبه أخلص الحب ، وكان اسمه فرناند .. أما خطيبته فاسمها مرسيديس . وقد كلفنى أن اذهب الى مرسيليا لأبيع الماسة واقسم ثمنها الى خمسة أنصبة متساوية ، ثم أعطى كلا من هؤلاء الاصدقاء الاوفياء نصيبا منها . فهم وحدهم الذين احبوه على الارض »

ــ ولكنك لم تذكر غير أربعة أسماء .. فمن الخامس ؟

ــ الخامس هو والد دانتيس ، وقد علمت أنه توفى !

ــ هذا صحيح يا سيدى !.. ان الشيخ المسكين قد مات !

وكادت تخنقه غصته وانفعاله..بينما استطرد الأب بوزونى قائلا وهو يبذل جهدا كبيرا كى يخفى تأثره : « لقد وقفت من أبحاثى فى مارسيليا على معلومات كثيرة ، لكنى عجزت عن الاهتداء الى من يصف لى كيف كانت نهاية والد دانتيس ، فهل تعرف شيئا فى هذا الصدد ؟ »

ــ ومن يعرف اذا لم اعرف أنا ؟.. لقد كنت أعيش فى المسكن الذى يقع اسفل مسكن الأب مباشرة . لقد مات لويس دانتيس بعد نحو عام من اختفاء ولده ، والناس يقولون انه مات من الحزن ، أما أنا الذى رأيته فى ساعات احتضاره فأقول لك انه مات من الجوع !

فهتف القس وهو يهب من مقعده : « مات من الجوع ؟..ان شر الحيوانات لا تموت هذه الميتة البشعة !. هذا مستحيل ، مستحيل ..! »

فاستطرد كادروس مستدركا : « لست أعني أن الجميع قد هجروه أو نبذوه تماما ، فان مرسيديس ومسيو موريل كانا يعطفان عليه ·· ولكن لسبب ما ظل الشيخ التعس يكن كراهية شديدة للمدعو « فرناند » ·· الذي ذكرت اسمه منذ حين بين أصدقاء دانتيس الأوفياء »

ـ أولم يكن كذلك في الواقع ؟

ـ وهل يمكن أن يكون الرجل وفيـا لغريمه الذي ينافسه على الحظوة بالمرأة التي يحبها ويريدها لنفسه ؟··مسكين ادمون ، لقد خدعوه بقسوة، لكنه لحسن الحظ لم يعرف ، والا لتعذر عليه وهو على فراش الموت أن يصفح عن أعدائه ·· والواقع أن هبة ادمون المسكين لا يستحقها الخونة أمثـال فرناند ودانجلر ، اللذين وشيا به باعتباره من عملاء نابليون ·· لقد كنت حاضرا ذلك الحادث

ـ وهل لم تحتج أو تعترض على هذا الاثم ؟·· انك اذا كنت لم تفعل فقد كنت شريكا فيه !

ـ سيدي ، انهما قد سقياني من الخمر ما أفقدني كل وعي تقريبا ،بحيث لم أعد أشعر بما يجري حولي الا شعورا مبهما غير واضح · وقد قلت كل ما كان في استطاعة من في مثل حالتي تلك أن يقول ، لكن اللعينين أكدا لي أنهما يمزحان ولا ضرر من مزاحهما البتة ·· ومع ذلك فان وخز الضمير يطاردني ليل نهار !

ـ لقد أشرت الى شخص يدعى مسيو موريل ، فمن يكون ؟

ـ انه صاحب السفينة فرعون ورئيس دانتيس ، وقد توسط من أجله عشرين مرة · وحين عاد الامبراطور الى عرشه طالب بالافراج عن السجين بحماسة جعلت القوم يضطهدونه فيما بعد باعتباره منأنصار بونابرت!·· وقد ذهب لزيارة والد دانتيس عشر مرات ، ودعاه كي يزوره في بيتـه · وقبل وفاة الرجل بيوم أو اثنين ترك مسـيو موريل كيس نقوده فوق رف المدفأة ، فدفعت منه ديون الميت وأنفق على دفنـه بالمظهر اللائق · وهكذا مات والد ادمون ، كما عاش ، دون أنيؤذي أحدا · وما زلت أحتفظ بكيس النقود المذكور · انه كبير ، ومصنوع من الحرير الاحمر !

ـ وهل ما يزال مسيو موريل على قيد الحيـاة ؟ لا ريب أنه الآن ثري سعيد ؟

فابتسم كادروس في مرارة وأجاب : « انه في أسوأ حال ، يكاد يشرف على الافلاس والدمار ، بعد خمس وعشرين سنة من العمل المتواصل الذي أكسبه أحسن سمعة في دوائر مارسيليا التجارية · لقد فقد الرجل خمس سفن في مدى عامين ، وخسر أموالا طائلة بسبب افلاس ثلاثة من البيوت المالية الكبرى · والآن بات أمله الوحيد معلقا علىوصول السفينة «فرعون» سالمة ، وهي السفينة التي كان دانتيس المسكين ربانها ، وينتظر وصولها

من جزر الهند حاملة شحنة من النيلة ودود القرمز ٠٠ فاذا غرقت هـــذه السفينة مثل سابقاتها فعلى الرجل السلام !٠٠ ان له زوجة كانت تصرفاتها برغم كل الظروف أشبه بتصرفات الملائكة ٠٠ كما أن له ابنة كانت عـــلى وشك الزواج من الشاب الذى تحبه لكن أسرته ســوف تحول الآن دون زواجه من ابنة تاجر مفلس ٠٠ وله أيضا ابن يدعى مكسمليان يعمل ملازما في الجيش ٠٠ وهكذا ترى أن كل ذلك يزيد فى أحزانه وأشجانه ، فلو كان وحيدا فى الدنيا لأفرغ رصاصة فى رأسه واستراح ٠٠! »

ـ هذا فظيع !

ـ وهكذا تكافىء السماء الفضيلة يا سـيدى !٠ فأنا الذى لم أفعل يوما شرا ـ عدا الذى ذكرت لك قصته ـ أعانى ضائقة شديدة،وزوجتى تموت من الحمى أمام عينى ، وأنا عاجز عن أن أصنع شيئا من أجلها ٠ انى سوف أموت جـــوعا ، كما مات والد دانتيس ، بينما يتمرغ دانجلر وفرناند فى الثراء الفاحش ٠٠ لقد جلبت عليهما أفعالهما الحظ الحسن ، بينما أصـاب الشقاء والبؤس الرجال الشرفاء ٠٠!٠

ـ وماذا صار من أمر دانجلر ، المتآمر الأول كما تقول ؟

ـ لقد غادر مارسيليا على أثر اعتقال دانتيس الى حيث عين ـ بوساطة موريل الذى جهل كل شىء عن جريمته ـ صرافا فى بنك اسبانى ٠ وخلال الحرب مع اسبانيا استخدم فىقوميسيرية الجيش الفرنسى حيث جمع ثروة، ثم ضارب بها فى البورصة فضاعفها ثلاث مرات أو أربع مرات٠وقد تزوج أولا ابنة صاحب البنك الذى كان يعمل فيــه ، لكنها ماتت ، فتزوج للمرة الثانية من أرملة تدعى مدام دى نارجون ، هى ابنة مسيو دى سرفيو كبير أمناء الملك ٠ انه الآن مليونير وقد أنعموا عليه بلقب بارون ، فصار يدعى « البارون دانجلر » ٠٠ وهو يقطن قصرا فاخرا فى شارع « مون بلون » ، به حظيرة تضم عشرة جياد ، وستة من الخدم ، أما ملايينــه التى فى البنك فلست أعرف عددها ٠٠!

ـ وفرناند ؟

ـ ان له قصة مشابهة ٠٠ فعلى أثر عودة الامبراطور جند للجيش ، كما جندت أنا أيضا ، لكنى كنت أكبر منه سنا ، ومتزوجا حـديثا من زوجتى المسكينة ، فأرسلت الى الساحل ٠٠ أما هو فقد انضم الى الجيش العــامل ومضى مع فرقته الى الجبهة حيث اشترك فى معركة « لينى » ٠ وفى الليلة التالية للمعركة عهد اليه فى الوقوف (ديدبانا) أمام باب جنرال كان على اتصال سرى بالاعداء ٠٠ وفى تلك الليـــلة كان على الجنرال أن يذهب الى خطوط الانجليز ، فعرض على فرناند أن يرافقه ٠٠ فوافق هـــذا ، وهجر مركز حراسته وتبع الجنرال !٠٠ ولو بقى نابليون على عرشه لحوكم فرناند أمام مجلس عسكرى ، لكن بلاط الملك كافأه على فعلته !٠٠ وهكذا عاد الى فرنسا برتبة صف ضابط ، وبفضل عطف الجنرال ووســاطته رقى الى

يوزباشي في سنة ١٨٢٣ ، خلال الحرب الاسبانية ٠٠ أي في الوقت الذي قام فيه دانجلر بمضارباته الاولى ٠ ولما كان فرناند من أصل اسباني فقد أرسل الى اسبانيا ليعمل على تهدئة شعور مواطنيه ، وهناك التقى بدانجلر وتوطدت بينهما الصلات ٠٠ وما لبث أن ظفر بمعاونة الملكيين في العاصمة وأدى من الخدمات خلال تلك الحملة القصيرة ما نتجت عنه ترقيتـــه عقب معركة (تروكاديرو) الى رتبة اميرالاي ومنحه لقب (كونت) ووســـام الضابط في فرقة الشرف (اللجيون دونور) !

فغمغم القس : « يا لها من أقدار !٠٠ »

واستطرد كادروس : « هذا صحيح ، ولكن اسمع البقية : فعند انتهاء الحرب الاسبانية تأثر مستقبل فرناند ومصالحه بالسلام الطويل الذي بدا أنه يسود أوربا ، ولم يعكره غير اقدام اليونان على شن الحرب ضد تركيا ، من أجل استقلالها ٠٠ وعندئذ استدارت العيون جميعا نحو أثينا ، حتى صار شعار العصر كله الاشفاق على اليونان وتعضيدهم٠٠ومن هنا سمحت حكومة فرنسا بتأليف جيش من المتطوعين لنصرة جارتها ، دون أن تتولى ذلك التعضيد رسميا ٠٠ فســـعى فرناند حتى حصل على اذن بالســـفر للخدمة في اليونان ، وكان اسمه ما يزال مدرجا في سجلات الجيش؛وبعد فترة من الزمن أعلن أن الكونت دي مورسرف ــ وكان هذا هو الاسم الذي صار يعرف به ــ قد التحق بخدمة الوالي الألباني « على باشا » في درجة « مشير عام » ٠٠ وقد قتل على باشا ، لكنه قبل أن يموت رأى أن يكافىء فرناند على خدماته بأن يترك له مبلغا من المال عاد به هذا الى فرنسا ، حيث رقي الى رتبة لواء ٠٠ وهو الآن يملك قصرا فاخرا ــ رقم ٢٧ شارع « دي هيلدر » بباريس !

فتح القس فمه دهشة ، وتردد لحظة ، ثم بذل جهـدا كبيرا كي يتمالك نفسه ، وأخيرا قال : « ومرسيديس ؟ ماذا كان مصـــيرها ؟ يقولون انهـا اختفت ! »

فأجاب كادروس : « مرسيديس اليوم من أعظم نساء باريس !٠٠ لقد أصيبت عقب اعتقال دانتيس بنوبة من اليأس البالغ كادت تقضي عليها٠٠ وكم استعطفت المحقق مسيو دي فيللفور ، ولكن بلا جدوى !٠٠ وأخـيرا جعلت همها أن تعنى بالشيخ المهدم والد ادمون ٠ وفي غمرة يأسها أصابها مكروه جديد ، هو رحيل فرناند الى الحرب٠ولم تكن قد عرفت بدور فرناند في اعتقال حبيبها ادمون ، والجريمة التي اقترفها نحوه ، فلما ذهب بدوره أحست أنها فقدت أخاها بعد خطيبها ، وبقيت وحيدة !٠٠ وانقضت ثلاثة أشهر بدون أن تتلقى أي نبأ من ادمون ، أو من فرناند ، فصار البكاء ملاذها الوحيد٠٠لم تبق لها غير رفقة شيخ مهدم يقتله اليأس قتلا بطيئا !٠٠وذات مساء سمعت خطوات أدركت أنها خطوات فرناند ، وظهر هذا أمامها بسترة صف الضابط ٠ لم يكن هو حبيبها المنشود ، لكنها أحست كأن جانبا من

حياتها الماضية قد رد اليها · لقد ملك آخر قلبها ، لكن هذا الآخر غائب ، مختفٍ ، ولعله قد مات !·· ولدى هــذه الفكرة الاخيرة كانت مرسيديس تنخرط في البكاء ، وتضم يديها في لوعة وضراعة··لكن الخاطر الذي طالما استبشعته من قبل ، حين كان يقترحه عليها أحد ، فرض نفسـه الآن من تلقاء ذاته على ذهنها ·· وفي الوقت عينه كان دانتيس الشيخ لا يفتأ يقول لها : « مات حبيبنا ادمون ·· والا لعاد الينا ! » ·· ولكن لو عاش الشيخ لما صارت مرسيديس زوجة لآخر ، غير ابنـه ·· فانه لم يكن ليكف عن تأنيبها وتحذيرها من الخيانة ·· وقد أدرك فرناند ذلك ، فلما سمع بوفاة الرجل عاد ·· وكان قد صار ملازما · وفي الزيارة الأولى لم يتفوه بحرف لمرسيديس عن حبه اياها ·· وفي الثانية ذكرها بأنه يحبها··فطلبت اليه أن ينتظر ستة أشهر أخرى تحزن خلالها على ادمون وترتدي السواد ··! »

فقال الأب بوزوني وهو يبتسم ابتسامة مريرة :

ـ اذن فقد أخلصت لحبيبها ثمانية عشر شهرا في الجملة · ففيم يطمع أكثر من ذلك أعظم العشاق ولها وهياما ؟ » ثم ردد مغمغما كلمات الشـاعر الانجليزي : (يا ضعف الارادة··يا وهن العزيمة ·· ان اسمك : المرأة!)

واستطرد كادروس : « وبعد ستة أشهر من ذلك التاريخ تم الزفاف في كنيسة « اكول » ! »

فغمغم الكاهن : « الكنيســـة ذاتها التي كان سيعقد فيها زواجهـا من ادمون !·· لم يطرأ غير تغيير في شخص الزوج ! »

واستأنف كادروس حديثه : « وهكذا تزوجت مرسيديس ، لكنها كادت يغمى عليهـــا وهي تمر أمام حانة (لاريزرف) ، حيث احتفل قبـل عام ونصف عام بخطبتها الى ذلك الذي لو أمعنت النظر الآن في أعماق قلبهـا لأدركت أنها ما تزال تحبه !·· وفي حمى فزع فرناند من عودة دانتيس ، حرص على الابتعاد بنفسه وبزوجته عن المدينة ·· فلم تنقض عشرة أيام على الزواج حتى غادرا مرسيليا ! »

ـ وهل لم تر مرسيديس بعد ذلك ؟

ـ بل لقد رأيتها ، خلال الحرب الاسبانية ، في « بربجنان » حيث كان فرناند قد تركها تعنى بتربية ولدها

ـ ابنها ··؟

ـ نعم ·· « ألبرت » الصغير !

ـ ولكن، كي تستطيع تثقيف ابنها لابد أن تكون هي على قدر من الثقافة· وقد فهمت من ادمون أنها ابنة صياد بسيط··جميلة ولكن ليست متعلمة !

ـ انها من الذكاء بحيث كيفت نفسها حسب مركز زوجهـا وثروته ، فتعلمت الرسم ، والموسيقى ، وكل شيء · وأعتقد أنها فعلت ذلك كي تشغل نفسها عن التفكير في حبها القديم وتنسى الماضي · لقـد ملأت رأسها كي

تخفف العبء الذي يثقل قلبها . وهي الآن غارقة في الثراء والمجد والألقاب .. لكنها فيما أعتقد غير سعيدة !

ــ وما الذي يجعلك تعتقد ذلك ؟

ــ عندما اشتدت بي الضائقة فكرت في أن ألجأ الى أصدقائي القدامى ، لعلهم يساعدونني .. فذهبت الى دانجلر ، لكنه أبى أن يستقبلني .. ثم ذهبت الى فرناند ، فأرسل الى مائة فرنك مع خادمه .. وفيما أنا خارج سقط عند قدمي كيس نقود يحوي خمسة وعشرين جنيها ، فرفعت رأسي نحو مصدره بسرعة ، واذ ذاك رأيت مرسيديس في النافذة ، لكنها سارعت الى اغلاقها !

ــ ومسيو دي فيلفور ؟ هل تعلم ما صار اليه ، ونصيبه في المأساة التي حلت بادمون ؟

ــ كلا ، كل ما أعلمه عنه انه بعد اعتقال ادمون بزمن وجيز تزوج من الآنسة دي سان ميران ثم غادرا مرسيليا على الأثر . ولا شك أنه كان محظوظا مثل الآخرين .. وهكذا لم يبق فقيرا تعسا منسيا سواي !

ــ أنت مخطيء يا صديقي .. قد يبدو أحيانا كأن الله ينسى أن ينصف المظلوم فترة من الوقت ، لكن عدالته تمهل ولا تهمل ، واليك الدليل !

وأخرج القس من جيبه العلبة التي تحوي الماسة الثمينة وأعطاها للرجل قائلا : « اليك يا صديقي . خذ هذه الماسة ، فهي لك ! »

فصاح كادروس : « ماذا ؟ . لي أنا وحدي ؟! . بربك لا تسخر مني يا سيدي ! »

ــ كان المفروض أن يقسم ثمن هذه الماسة بين أصدقاء ادمون جميعا .. ولكن لم يكن له في الحقيقة غير صديق واحد ، واذن فلا داعي لتجزئتها . خذ الماسة اذن وبعها ، انها تساوي خمسين ألف فرنك ، وأرجو أن يكفي هذا المبلغ لانقاذك من ضائقتك !

فقال كادروس وهو يمد احدى يديه في خجل ليأخذ الماسة ، ويجفف العرق المتصبب على جبينه باليد الأخرى :

ــ سيدي .. لا تسخر من سعادة انسان أو شقائه !

ــ اني أعلم ما هي السعادة وكيف يكون الشقاء ، وحاشاي أن أسخر من عواطف الناس ومشاعرهم .. خذ الماسة اذن .. وأعطني في مقابلها كيس النقود الحريري الاحمر الذي تركه مسيو موريل فوق رف مدفأة دانتيس الأب والذي تقول انه في حيازتك !

غادة الكرنفال

فى أواخر سنة ١٨٣٧ وصل الى روما لحضور « كرنفالها » الكبير شابان ينتميان الى مجتمعات باريس الرفيعة ، هما : الفيكونت « ألبرت دى مورسيرف » والبارون « فرانز دييبيناى »

وكان الجناح الذى أقاما به فى الفندق مؤلفا من حجرتين صغيرتين وردهة أما بقية الطابق الفسيح الذى به هذا الجناح فكان يشغله ثرى من نبلاء صقلية أو مالطة يدعى « الكونت دى مونت كريستو »

وأوصى الشابان السنيور « باسترينى » صاحب الفندق أن يبحث لهما عن عربة تكون تحت تصرفهما أثناء احتفالات الكرنفال ٠٠ لكنه عجز عن العثور على العربة المطلوبة ، من فرط ازدحام المدينة بالسائحين ٠٠ وفى اليوم التالى عاد اليهما الرجل يقول : « ان الكونت دى مونت كريستو يعرض عليكما مكانا فى عربته ومقعدين فى نافذته بقصر (روسبولى) كى تشاهدا منها الاحتفال »

ثم قادهما الى جناح الكونت ودق الجرس ، فظهر خادم دعاهما الى الدخول وأجلسهما فى حجرة استقبال فاخرة حافلة بالرياش والطنافس والسجاد التركى الثمين والأرائك المريحة والمقاعد الوثيرة والوسائد والستائر الثمينة وظهر خلفها الكونت صاحب كل هذا الثراء ٠٠ وكان برغم شحوبه ذا وجه وسيم وعينين نفاذتين براقتين ، وأنف مستقيم ، وأسنان بيضاء ناصعة كاللؤلؤ ، يعلوها شارب أسود فاحم يزيدها جمالا ٠٠ أما قامته فكانت متوسطة الطول متناسبة التكوين ٠٠ وكانت يداه وقدماه صغيرتين شأن أهل الجنوب

وابتدر الكونت دى مونت كريستو ضيفيه قائلا : « أرجو أن تغفرا لى دعوتكما الى زيارتى أولا ، فقد خشيت أن أزعجكما فيما لو سبقت الى زيارتكما ! »

فقال الكونت وهو يشير الى الشابين كى يجلسا : « الواقع أن ذلك الغبى (باسترينى) هو المسئول عن عدم مبادرتى الى ذلك قبل هذه الساعة ، فهو لم يشر بكلمة الى جيرتكما قبل اليوم ، فى حين أنه يعلم مبلغ ترحيبى — فى وحدتى وعزلتى — بانتهاز كل فرصة للتعارف مع جيرانى ٠٠ والآن أرجو أن تشرفانى بتناول الافطار معى »

فقال البرت : « اننا يا سيدي الكونت لنشكر لك كرمك وأريحيتك ونرجو ألا نكون قد أثقلنا عليك »

فقال : « كلا !٠٠ بل انكما سوف تدخلان السرور على قلبي ٠٠ ولعلي أتشرف يوما بزيارتكما في باريس ! »

ثم تطور الحديث بعد حين الى حكم باعدام اثنين من زعماء العصابات كان مزمعا تنفيذه في ذلك اليوم. فأفاض الكونت في الحديث عن هذا الموضوع ، حتى قال له فرانز : « يلوح لي يا سيدي الكونت أنك درست مختلف العقوبات وأساليب التعذيب عند كل شعوب العالم ! »

فأجاب الكونت في برود : « هناك وسائل معدودة منها لم أشاهدها ! »

فسأله فرانز : « هل تجد متعة في مشاهدة هذه المناظر البشعة ؟ »

فأجاب الكونت بقوله : « كنت أول الأمر أرتاع لمشاهدتها ، ثم صرت أشعر ازاءها بعدم المبالاة ٠ وأخيرا صار الفضول هو الذي يدفعني الى مشاهدتها »

وهنا غمغم البرت قائلا : « الفضول ؟٠٠ يا لها من كلمة رهيبة ! »

فالتفت اليه الكونت وقال له : « ان شغلنا الشاغل في الحياة هو الموت، فليس عجيبا أن يشتد بنا الفضول لدراسة مختلف الوسائل التي تؤدي الى فصل الروح عن الجسد ، أو التي يقابل بها مختلف الناس انتقالهم من الحياة الى الموت ، ومن الوجود الى العدم تبعا لاختلاف شخصياتهم وطباعهم وعادات بلادهم المختلفة !٠٠ واني لأؤكد لك انك كلما رأيت عددا أكبر من الناس يموتون ، سهل عليك أن تواجه الموت ٠٠ وفي اعتقادي أن الموت قد يكون عذابا ، لكنه ليس تكفيرا ! »

فقال فرانزا مأخوذا : « لست أفهم ما تعنيه تماما يا سيدي الكونت ، فهل لك أن توضحه لي ؟٠٠ انك تثير فضولي الى أقصى حد ! »

فأجابه الكونت وقد بدت في وجهه أمارات الاستياء العميق : «سأوضح لك الأمر بمثل أضربه لك ٠٠ فافرض ان انسانا قضى على حياة أبيك أو أمك أو خطيبتك أو أي عزيز لديك ، أليس فقده يترك جرحا لا يندمل في صدرك ، ولا يزال حزنك عليه يؤرقك ويعذبك ما حييت ؟٠٠ ان القصاص الذي يأخذ به المجتمع ذلك القاتل بفصل رأسه عن جسده بالمقصلة في ثوان معدودات ، لا يمكن أن ينسيك العذاب النفسي الذي تقاسيه بسبب الجريمة التي اقترفها ٠ في حين انه هو لا يقاسي مثل ذلك العذاب الا بعض الوقت ، ريثما يؤخذ الى المقصلة حيث يتألم جسمه بضع ثوان ، ثم ينتهي كل شيء بالنسبة له ! »

فقال فرانز : « نعم ٠٠ ان العدالة البشرية لا تكفي لتعزيتنا ، وكل ما تفعله أنها تسفك دما مقابل دم ٠٠ لكن لا ينبغي لنا أن نطالبها بما ليس في طاقتها ! »

ـ دعني أعرض عليك مثلا آخر ، هناك الوف من حالات التعذيب يقاسي فيها المرء أشنع الويلات بلا علم المجتمع ، أو من غير ان يكفل له المجتمع الوسائل الكافية للانتقام ! •• وهناك جرائم لا يعاقب عليها المجتمع ، في حين أن عقابها يجب أن يكون أشد من (خوازيق) الأتراك ، و (بريمة) الفرس ، ووشم الهنود بالنار ! •• الا تقع هذه الجرائم كل يوم ؟ »

ـ نعم ، انها تقع بلا ريب •• ولعل المبارزة ما شرعت الا لتكون وسيلة يلجأ اليها المعتدى عليه للانتقام من المعتدى !

ـ كلا يا سيدي ! •• ليس هو الانتقام المنشود •• فأنا ألجأ الى المبارزة في الأمور التافهة ، وغالبا لا ينجو خصمي من الموت بفضل براعتي في أنواع الرياضة البدنية ، وتعودي الاستهانة بالأخطار ••أما الانتقام بمعنى التعذيب البطيء العميق المستمر ، فمن رأيي أن يتبع المرء فيه القاعدة القديمة (العين بالعين ، والسن بالسن) ، كما يقول الشرقيون أساتذتنا في كل شيء ، أولئك المحظوظون الذين رسموا لأنفسهم حياة من الأحلام وجنة من الحقائق !

ـ لكنك تبعا لهذه النظرية التي تجعل نفسك بها قاضيا وجلادا في قضيتك الشخصية ، يكون من العسير أن تنجو دائما من الوقوع تحت طائلة القانون •• فالكراهية العمياء والحقد يحملانك على أن تركب الصعب من الأمور ، ومن يسكب الانتقام في كؤوس الآخرين يعرض نفسه لخطر الشرب من كأس أمر !

ـ هذا صحيح اذا كان المرء فقيرا وغير مجرب ، لا غنيا حاذقا •• ثم ان أسوأ ما قد يصيبه لن يخرج عن حد العقاب السريع السهل الذي تحدثنا عنه ، والذي اتخذته الثورة الفرنسية الرحيمة بدلا من التمزيق تحت سنابك الجياد أو العجلات• وما أتفه هذا العقاب ما دام الشخص قد انتقم لنفسه ؟!

▭

وفي هذه اللحظة سمعت دقات الأجراس في كنيسة «مونتي سيتوريو» ولم تكن تدق الا عند وفاة البابا أو افتتاح الكرنفال ، فقال الكونت : «لقد بدأ الاحتفال ، ويحسن أن نسارع الى ارتداء ثياب التنكر الخاصة به » • ثم اشار الى أزياء كثيرة أنيقة من حرير الساتان كانت متراكمة على بعض المقاعد ، ليختارا من بينها ما يشاءان

وحين فرغ ثلاثتهم من هذه المهمة ، هبطوا الى حيث كانت العربة في انتظارهم •• فدرجت بهم في شوارع المدينة الحافلة بمواكب المهرجين وعربات الزهور وجموع المتنكرين في أغرب الأزياء والأقنعة ، وكلهم يصخبون ويتصايحون ويتقاذفون كرات الورق الملون والبيض المحشو بالدقيق •

وحين بلغت العربة ثاني منعطف في الطريق ، أشار الكونت الى الحوذي بالوقوف ، واستأذن ضيفيه في الانصراف قائلا : « حين تملان الاشتراك في التمثيل وتبغيان أن تصيرا متفرجين يمكنكما الحضور الى حيث حجزت لكما مكانا في نوافذي .. وفي انتظار ذلك أترك العربة والحوذي والخدم رهن اشارتكما ! »

فشكر فرانز الكونت على كرمه واهتمامه ، بينما انشغل البرت بالقاء الزهر والورق الملون على عربة ملأى بالمتنكرين في زي فلاحي الرومان .. ثم تابعت عربته والعربة الأخرى سيرهما في اتجاهين متضادين ، فتنهد الشاب متحسرا وقال لصديقه : « انك لم تر يا فرانز ركاب تلك العربة ، لست أشك في أنهم جميعا من النساء الفاتنات المتنكرات في زي الفلاحين ! فعسى ألا ينتهي الكرنفال قبل أن تتاح لنا فرصة لقائهن مرة أخرى ! »

ولم يخبْ أمله ، فقد التقت العربتان بعد قليل في أحد الشــــوارع ، فألقت احدى الفتيات المتنكرات باقة من زهر البنفسج على عربتهما، فتلقفها ألبرت بيديه .. وعندئذ وعد فرانز صديقه الماجن بأن يقنع هو في اليوم التالي بمشاهدة الكرنفال من النافذة ويترك له العربة يتابع بها مغازلاته !

وفي المساء تلقى فرانز رسالة مكتوبة بخط البرت ، فقرأها مرتين بامعان قبل أن يفهم مدلولها ، وكان نصها :

« يا صديقي العزيز ..

في اللحظة التي تصل فيها هذه الرسالة اليك ، أرجو أن تتكرم بأخذ دفتر الشيكات الذي يخصني من درج المكتب الصغير الموجود في حجـرة نومي ، ثم تضيف الى محتوياته كل ما تملك من مال .. وتهرع الى بنـك (تورلونيا) لتسحب منه المبلغين فورا وتسلمهما لحامل هذا الخطـــاب .. واني أعتمد عليـــك في امدادي بلا ابطاء بالمـــال المطلوب لسبب غاية في الأهمية ! »

وكانت هناك تحت هذه الاسطر ، ملاحظة بخط البرت نفسه يقول فيها: « لقد آمنت الآن بالعصابات الايطالية ! »

كما كانت هناك عبارة أخرى كتبت تحت هذه الملاحظة بخط مغـــاير ، ونصها :

« اذا لم يصل الى مبلغ أربعة آلاف ليرة قبل الساعة السادسة صباحا ، فلن تحل الساعة السابعة حتى يكون الفيكونت البرت قد فارق الحياة ! »

« لويجي فامبا »

وقال فرانز محدثا نفسه : « اذن فقد وقع البرت في يد عصـــابة من اللصوص الخطرين ! .. وليس في الوقت متسع يمكن اضاعته » . ثم نهض مسرعا ففتح درج المكتب الصغير حيث وجد دفتر شيكات البرت ، وكان الحساب المقيد فيه يدل على أن كل ما بقي له من رصيده في البنـــك ثلاثة آلاف ليرة

ولم يكن لفرانز حساب في البنك لأنه كان يعيش في فلورنسا وقد حضر الى روما ليقضي سبعة أيام أو ثمانية ، ولم يبق من المبلغ الذى أحضره معه الا حوالى ثلاثمائة ليرة ، بينما كان عليه لكي يتم قيمة الفدية المطلوبة أن يحصل على الف ليرة

وهنا تذكر فرانز صديقهما الكونت دى مونت كريستو ، فهرع اليه .. ووجده في حجرة صغيرة تحفل بها الأرائك الوثيرة، فابتدره الكونت سائلا: « أية ريح طيبة حملتك الى هنا في هذه الساعة ؟ هل أتيت لتتناول العشاء معى ؟ ان هذا يكون كرما منك ! »

فأجاب الشاب : « بل جئت لأتحدث اليك في مسألة خطيرة »

ثم قدم له خطاب ألبرت ، فلما فرغ الكونت من قراءته قال يسأل فرانز: « أرى أن أذهب بنفسي للبحث عن « فامبا » هذا ، فهل ترافقني ؟ .. انها ليلة رائعة الطقس تحلو فيها النزهة خارج المدينة .. اين الرجل الذى أحضر الرسالة ؟ »

فقال فرانز : « انه ينتظر في الشارع ! »

فمضى الكونت الى النافذة وأرسل من فمه صفيرا خاصا غريبا ، وسرعان ما برز من جوار الحائط رجل يرتدى عباءة وخرج الى عرض الطريق ، فقال له الكونت بلهجة من يخاطب خادمه : « اصعد » .. فأطاعه الرسول فورا في خضوع ، ولم تمض خمس ثوان حتى كان يطرق باب الحجرة .. فقال له الكونت : « أهذا أنت يا ببينو ؟ »

لكن ببينو بدلا من أن يجيبه ارتمى على ركبتيه عند قدمي الكونت وتناول يديه يغمرهما بالقبلات !.. فقال له الكونت :

ـ آه ، اذن فأنت لم تنس أننى أنقذت حياتك ؟ .. هذا غريب ، مع انه قد انقضى على الحادث أسبوع !

وتمتم الرجل في خضوع : «لن أنسى ذلك ما حييت يا صاحب الفخامة!»

ثم سأله الكونت : « كيف وقع الفيكونت ألبرت في يد لويجي ؟ »

فأجاب : « أن عربة السيد الفرنسى مرت أكثر من مرة بمحاذاة العربة التي كانت فيها تريزا عشيقة الزعيم !.. وقد طلب منها الفرنسى موعدا لمقابلته ، فضربت له الموعد في المكان الذى حملته عربته اليه حيث كانت تنتظره ومعها لويجى في سراديب مقابر سانت سباستيان ! »

فالتفت الكونت الى فرانز وقال له : « انها قصة شائقة ، ولو لم تجدنى هنا لكلفت المغامرة صديقك ثمنا غاليا .. أما الآن فلتثق بأن الانزعاج هو الخسارة الوحيدة التى ستصيب ألبرت . هل تعرف مكان سراديب سانت سباستيان ؟

فقال فرانز : « لم أزرها قط ، لكنى كنت أعتزم ذلك منذ زمن ! »

فقال الكونت : « حسنا ، ها هي ذي الفرصة قد واتتك ، ومن العسير ان تتاح لك فرصة أفضل »

ثم دق الكونت الجرس طالبا اعداد عربته . وبعد دقائق كانت تجتاز به وضيفه طريق « ابيان » العديم ٠٠ وقبل أن تصل الى حمامات «كاركالا» توقفت وهبط منها الرجلان وسارا حتى بلغا منفذا ضيقا يقع خلف أجمة صغيرة تحيط بها الصخور . ومرق « بيبنو » من ذلك المنفذ أولا ثم تبعه الآخران ٠٠ وبعد أن سار الثلاثة خطوات اتسع الممر وسرعان ما وجدوا أنفسهم أمام سراديب عدة . فهبطوا سردابا منها لا يكاد البصر يحد نهايته. وتتخلله أشعه من الضوء ، ومنه تقدموا نحو حجرة كبيرة مربعة يضيئها مصباح ويجلس فيها رجل يقرأ وظهره الى المدخل الذي وقف فيه الزائرون يتأملون المنظر

كان الرجل هو « لويجي فامبا » زعيم العصابة ، وحوله عشرون لصا وقاطع طريق أو أكثر جلسوا مسندين ظهورهم الى مقاعد حجرية ، وأمام كل منهم غدارته ، في متناول يده ٠٠ فلما دخل الكونت نهض فامبا مسرعا، وفي لحظة كانت عشرون غدارة مشهرة في وجه الزائرين !

فقال الكونت بصوت هادىء صاف ، دون أن تختلج عضلة في وجهه : « يبدو أيها العزيز فامبا أنك تستقبل الاصدقاء بقدر كبير من الحفاوة ! »

فصاح الزعيم برجاله وهو يشير بيده اشارة آمرة : «اخفضوا أسلحتكم» بينما خلع باليد الأخرى قبعته احتراما ، ثم استدار نحو ضيفه قائلا : « عفوك يا صاحب الفخامة ، كنت أبعد ما أكون عن توقع شرف زيارة منك، بحيث لم أعرفك أول الأمر ! »

فأجابه الكونت : « يبدو أن ذاكرتك ضعيفة في كل شيء يا فامبا ، بل انك لا تنسي وجوه الناس فقط ، ولكن تنسى الشروط التي تتفق معهم عليها أيضا !٠٠ ألم نتفق على أن تحترم فضلا عن شخصي جميع أصدقائي ٠٠ اذن لم اختطفت الليلة الفيكونت البرت دي مورسيرف ، وأحضرته الى هنا مع أنه من أصدقائي ؟ ! »

فقال زعيم العصابة وهو يستدير نحو رجاله الذين تراجعوا جميعا أمام نظرته : « لماذا لم تذكروا لي ذلك أيها الأوغاد ؟ لقد جعلتموني أحنث بعهدي مع رجل مثل الكونت يملك أرواحنا جميعا في قبضته ! »

ثم استطرد «فامبا» مشيرا نحو ثغرة يحرسها واحد من رجاله : «السجين يوجد هناك ، وسأذهب بنفسي لأخبره بأنه مطلق السراح ٠ تفضل بالدخول يا صاحب الفخامة ! »

وصعد الكونت وفرانز في أثر الزعيم بضع درجات ، ثم فتح فامبا أحد الأبواب ٠٠ فاذا البرت متدثرا بمعطف كان أحد اللصوص قد أعاره اياه ، وقد رقد في ركن من الحجرة المظلمة ٠٠ فلمس فامبا كتفه قائلا : « أنت مطلق السراح يا سيدى »

واذ ذاك نظر ألبرت حوله فرأى فرانز ، وهتف به : « أهذا أنت ياعزيزى فرانز ؟ لقد أظهرت المحنة صدق محبتك وصداقتك ! »

فأجابه فرانز : « كلا ! لست أنا صاحب الفضل ، بل هو جارنا الكونت دي مونت كريستو ! »

فقال ألبرت في مرح : « أوه يا عزيزى الكونت ، هذا عطف كبير منك، وأجو أن تعتبرني مدينا لك مدى الحياة .. ان والدى الكونت دي مورسيرف - وان كان من أصل أسباني - له نفوذ كبير في بلاط فرنسا ومدريد .. وانى أبادر فاضع - بلا تردد - خدماتي وخدمات كل من تعد حياتي غالية في نظرهم ، تحت تصرفك ! »

فأجاب الكونت : « يا مسيو دي مورسيرف ، انى أقبل ما تعرضه على بمثل روح الاخلاص القلبي التى أملته .. بل انى سأخطو خطوة ايجابية فاصارحك بأنى كنت قد اعتزمت من قبل أن أسالك معروفا عظيما ! »

فقال ألبرت في حماسة : « انى رهن اشارتك يا سيدى »

ومضى الكونت فقال : « انى غريب عن باريس تماما ، فهي مدينة لم أرها قط ، ولما كنت لا أعرف فيها أحدا يقدمني لمجتمعاتها الرفيعة ويتيح لى أن أقف على مفاتنها وعجائبها فانى أرى فيما تعرضه على ما يذلل جميع الصعوبات ، فهل أستطيع أن أعتمد عليك كى تفتح لى عند وصولى الى باريس أبواب عالم الطبقات الرفيعة فيها .. اننى لا أعرف عن شخصياتها أكثر مما أعرف عن أهل الصين ؟ »

- انه ليسرني أن أؤدي لك هذه الخدمة مرحبا ، وسوف يعينني على القيام بها خطاب التوصية الذى أحمله من أبى الى أصدقائه الكبار في باريس !

- وأنا سامنحك مهلة قدرها ثلاثة أشهر ألحق بك في نهايتها ، فمن عادتي أن أحسب دائما حساب شتى العراقيل والمصاعب .. فهل نتفق على موعد محدد ، من حيث اليوم والساعة ؟ .. اننى لمضرب الأمثال في دقة مواعيدى ! »

ومد الكونت يده نحو تقويم على الحائط قائلا : « اليوم ٢١ فبراير » . ثم أخرج ساعته من جيبه وأردف قائلا : « والساعة الآن العاشرة والنصف .. فعدنى أن تذكر ذلك ، وأن تنتظرني في مثل هذه الساعة من صباح يوم ٢١ مايو القادم .. ! »

- حسنا يا سيدى ! .. وسوف تجد الافطار معدا لك ..

- أين تقطن ؟

- في المنزل رقم ٢٧ بشارع دى هلدر !

فأومأ الكونت موافقا وقال : « لا تنس ما اتفقنا عليه .. يوم ٢١ مايو، الساعة العاشرة والنصف صباحا ، شارع دى هيلدر رقم ٢٧ ! »

فى باريس

أعد البرت كل شيء في منزله بشارع هلدار بباريس للحفــاوة بضيفه الكبير الكونت دى مونت كريستو ، وفى اليوم المحدد للقائهما هناك جلس مع بعض خاصته يحدثهم عن الكونت المنتظر وصوله وكيف أنقذه من نتيجة مغامرته فى ايطاليا ، فقال له أحدهم ويدعى « لوسيان دبراى » :

— يخيل الى أنك تمزح معنا باختراع هذه القصة ، بل أكاد أعتقــد الا وجود لزعيم العصابة الايطالي الذى تحدثنا عنه ، ولا للــكونت دى مونت كريستو الذى تنتظره !

وقال ضيف آخر يدعى بوشان : « خير لك يا عزيزى ألبرت أن تعترف بأنك رأيت هذا كله في الحلم ، أو تدعنا نتناول طعام الافطار في هــدوء وسلام ! »

ولم يسع ألبرت الا أن يسكت ازاء سخرية أصدقائه ، وبقى صابرا على مضض حتى حان موعد وصول الكونت ، وأخذت ساعة الحائط تدق ايذانا بانتصاف الساعة الحادية عشرة ، وقلبه يدق معها فى عنف ، بينما العرق البارد يتصبب من جبينه خشية أن يزداد خجله اذ لم يصل الكونت فى موعده !

وما انتهت الساعة من دقاتها ، حتى ظهر أحد الخدم بالباب وقال لألبرت: « سيدى .. ان الكونت دى مونت كريستو قد وصل ! »

ودل الاجفال غير الارادى الذى بدا من جميع الحاضرين على شدة تأثرهم بهذا النبأ . ولم يستطع ألبرت نفسه قمع انفعاله ، ولا سيما أنه لم يكن قد سمع صوت عربة تقف أمام الباب ، أو خطوات تخفــق فى الردهة .. ولكنه فوجىء بفتح الباب دون جلبة ثم بظهور الكونت على عتبته مرتديا زيا يجمع بين الأناقة والبســاطة ، وقد بدا فى سن لا تزيد على الخامســة والثلاثين !

على أنه سرعان ما خف لاستقباله مرحبا ثم قال :

— يا عزيزى الكونت ... لقد أعلنت نبأ زيارتك لهؤلاء الأصدقاء بعد أن دعوتهم طبقا لما اتفقنا عليه ، وها أنذا أقدمهم لفخامتك : هذا هو الكونت دى شاتو رينو النبيل ذو الأصل العريق ، الذى اشترك أسلافه فى مؤتمر المائدة المستديرة !.. وهذا مسيو لوسيان دبراى السكرتير الخاص لوزير الداخلية .. ومسيو بوشان الصحفى الذى يصدر صــحيفة تسبب الذعر

للحكومة الفرنسية ، وان كان الأرجح انك لم تسمع باسمه في ايطاليا ــ برغم شهرته الوطنية ــ نظرا الى كون صحيفته ممنـــوعة من الدخول الى ايطاليا ·· وهذا مسيو مكسمليان موريل قبطان السفينة (سباهي) ·· »

وكان الكونت يحيي كلا منهم بانحناءة يشوبها طابع الرسمية والود ، لكنه ما كاد يسمع الاسم الاخير حتى تقدم خطوة الى الأمام وقال لألبرت وقد اصطبغت وجنتاه الشاحبتان بحمرة خفيفة :

ــ يا عزيزي الفيكونت ، انك ذكرت لي في روما شيئا عن مشروع زواج ·· فهل لي أن أهنئك ؟

فقال ألبرت : « ان الأمر ما زال في حيز التفكير ! »

وهنا تدخل دبراي قائلا : « هل أفهم من ذلك أن الأمر قد تقرر ؟ »

فأجاب ألبرت : « كلا ! ولكن والدي شديد الرغبة في تنفيــذ الفكرة ، وأرجو أن أقدمك في القريب ، ان لم يكن لزوجتي فعـــلى الأقل لخطيبتي الآنسة أوجيني دانجلر »

فهتف الكونت دي مونت كريستو : « أوجيني دانجلر ؟ أهي ابنة البارون دانجلر ؟ »

فقال ألبرت : « نعم يا سيدي ، وهو بارون من الطراز الحديث ! »

فقال الكونت : « حسبه أنه أدى للدولة خدمات استحق عليهــا هذا الانعام ! »

وقال بوشان : « الواقع أنه أدى للدولة خدمات جليلة ، فهو برغم كونه من حزب الأحرار ، فاوض في عقد قرض كبير للملك شارل العاشر في سنة ١٨٢٩ ، ولهذا منحه لقب البارون ووسام فارس في فرقة الشرف »

فقال الكونت دي مونت كريستو : « اني لا أعرفه ، وان كان يغلب على ظني أني سوف أتعرف اليه قريبا ، فان لي معه حسابا جاريا لدى ثلاثة من البيوت المالية : أحدها في لندن والثاني في فينا ، والثالث في روما ! »

ثم واصل ألبرت كلامه فقال : « على أي حال وقبل كل شيء ينبغي أن نجد مسكننا في عاصمتنا الكبرى يلائم ضيفها العزيز الجديد الكونت دي مونت كريستو »

فقال الكونت : « شكرا لك يا سيدي ·· انني منذ استقر رأيي عـلى الحضور الى هنا ، ارسلت خادمي الخاص لكي يبتاع لي منـــزلا مناسبا في باريس ويؤثثه ، ولا بد انه قد فرغ من هذه المهمة الآن ! »

فقال بوشان : « اذن فالخادم الخاص لصاحب الفخامة يعـــرف باريس جيدا ؟ »

فأجاب الكونت : « نعم ، انه أميني النوبي الصموت «علي» ، وهو يعرف باريس كما يعرف ذوقي ومطالبي ·· وكان يعلم أنني سأصل اليـــوم في

الساعة العاشرة ، فانتظرني منذ التاسعة عند حاجـــز « فونتسلو » حيث أعطاني هذه الورقة التي تحوي عنوان مسكني الجديد ! »

فقال بوشان : « اذن فلنقنع بان نؤدي للكونت الخدمات التي في مقدورنا .. ويسرني بوصفي صحفيا أن أمنح لفخامته أبواب جميع المسارح »

فشكره الكونت وقال : « ان لدى سكرتيري تعليمات بان يحجـــز لي مقصورة في كل مسرح ! »

وهنا سأله دبراي : « هل سكرتير الكونت نوبي أيضا ؟ »

فأجاب : « كلا ! بل هو كورسيكي ، يدعى مسيو برتوشيو ، وقد كان جنديا ومهربا، بل كان في الواقع كل شيء .. ولست واثقا من أنه لن يحتك بسلطات البوليس يوما بسبب طعنة خنجر أو ما يشبهها من الحوادث التافهة في نظره ! »

وهنا قال شاتو رينو مخاطبا الكونت : « اذن .. ما دام عندك المسكن، والخادم والسكرتير ، فلا ينقصك غير الخليلة ! »

فابتسم الكونت وقال : « الواقع انه عندي من هي خير من الخليـــلة .. عندي الجارية الخاضعة !.. انكم تحصلون على خليلاتكم من الأوبرا ودور اللهو المختلفة ، أما أنا فقد حصلت على صاحبتي من القسطنطينية .. وهي تكلفني نفقات أكثر ، لكنني لا أرى بأسا في ذلك ! »

فقال له دبراي ضاحكا : « لا تنس يا سيدي أننا في بلد الحرية ، وعلى هذا فان جاريتك هذه لا بد أن تغدو حرة في اللحظة التي تطأ فيها قدماها أرض فرنسا ! »

فقال له الكونت : «من أين لها أن تعرف ذلك وهي لا تتكلم بغير لغتها ؟!»

فقال بوشان : « أظن أننا سنراها على كل حال ، ولكن هل فخامتـــك تقتني الجواري ..؟ »

وابتسم الكونت مرة أخرى وقال : « كلا !.. لســـت على هذه الدرجة من التوحش ، بل ان كل واحد حولي له كل الحرية في أن يتركني اذا شاء ، وفي استطاعته أن يعيش بعد ذلك في غنى عني وعن أي انسان آخر .. ولكن جميع من حولي ليس فيهم من يفكر في ذلك بفضل ما يلقون من حسن المعاملة ! »

وحين انصرف أصدقاء ألبرت وخلا الى الكونت ، قاده الى جنـــاحه الخاص الأثير عنده ، فمرا من الصالون الى غرفة النوم ، التي كانت نموذجا للذوق الرفيع والأناقة البسيطة ، وكانت فيها لوحة من رسم فنان شهير تشرق على الحجرة من وسط اطارها المذهب .. فلفتت نظر الكونت ، واقترب منها في خطوات سريعة ثم وقف أمامها وراح يتأملها في اعجاب !

كانت اللوحة تمثل فتاة حسناء سمراء ، ذات عينين مشرقتين لامعتـــين تظللهما أهداب طويلة ، وترتدي ثياب صيادات عشيرة « كاتالان » المؤلفة

من خليط من اللونين الاحمر والاسود ، وتضع في شعرها دبوسا ذهبيا٠٠ وتتجه بعينيها الى البحر ، وحولها المحيط الأزرق والسماء الصافية ٠وكان الضوء في الحجرة ضئيلا الى حد أن البرت لم يلحظ الشحوب الذى كسا وجه الكونت ، أو الرجفة العصبية التى هزت صدره وكتفيه ٠٠!

وحين تمالك الكونت نفسه قال في صوت هادىء :

ـ أرى أن لك خليلة جذابة جدا يا فيكونت ٠ وهذا الثوب الذى لا شك أنه ثوب الرقص ، يناسبها بشكل رائع !

فأجابه البرت : « آه يا سيدى ، ما كنت لأغفر لك هذا الخطأ لو أنك رأيت صورة أخرى الى جانبها ٠٠ انك لا تعرف أمي ، ولكن ها أنت ذا تراها امامك ٠٠ لقد رسمت لها هذه الصورة منذ حوالى ثماني سنوات ، وهذا الزى هو فيما يبدو زى تنكرى ٠ على أن الصورة من الاتقان والمشابهة للأصل بحيث يخيل الى أنى أرى فيها أمي حقيقة كما كانت تبدو سنة ١٨٣٠ ٠ لقد رسمت لها هذه الصورة أثناء غياب أبي ، ولا شك انها أرادت ان تدبر له مفاجأة سارة ٠٠ لكن العجيب في الأمر أن هذه الصورة لم تعجب أبي ، ولم تستطع قيمتها الفنية باعتبارها من أعظم لوحات الفنان الذى رسمها أن تتغلب على بغض أبي لها !٠٠ اغفر لى تحدثى فى أمر عائلى كهذا ، ولكن لما كنت أعتزم أن أقدمك الى أبي فانى أذكر لك هذه التفصيلات راجيا الا تشير الى هذه الصورة في حديثك معه ٠٠ ويخيل الى أن لهذه اللوحة تأثيرا خبيثا ، فما من مرة تدخل فيها أمي هذه الحجرة الا وقفت تنظر اليها مليا ثم انخرطت في البكاء ! »

وكان الكونت يصغى الى مضيفه الشاب في انتباه ، بينما استطرد هذا فقال : « الآن وقد رأيت كل تحفى ، أرجو أن ترافقنى الى جناح أبي ٠٠ لقد كتبت اليه من روما ورويت له قصة اليد التى أسديتها الى ، كما أنبأته بموعد زيارتك هذه ٠٠ وفي وسعي أن أقول : ان أبي وأمي يتلهفان شوقا الى أن يقدما لك شكرهما وامتنانهما ! »

ثم أرسل البرت خادمه الى أبويه ليخبرهما بقدوم الكونت دى مونت كريستو ، ومشيا في أثره حتى وصلا الى الحجرة المفضية الى حجرتهما الخاصة ، وسرعان ما فتح بابها ووجد الكونت دى مونت كريستو نفسه وجها لوجه أمام الكونت دى مورسيرف ٠ وكان هذا في الخامسة والاربعين من عمره وان بدا في الخمسين على أقل تقدير ٠ كما كان شاربه الأسود وحاجباه يتنافران كل التنافر مع شعر رأسه الأشيب القصير ، المقصوص على الطريقة العسكرية ٠٠ وكان يرتدى ثيابا بسيطة ويضع في عروة سترته أشرطة النياشين المختلفة التى حصل عليها

وتقدم الكونت مورسيرف للقاء ضيفه في خطوات متزنة تنم عن الاعتداد بالنفس ٠٠ بينما بقى الكونت دى مونت كريستو في مكانه لا يتحرك ،

وبدا له كأن قدميه سمرتا فى الارض ، وكأن عينيه سمرتا على محيا مضيفه الوقور !

وقال الكونت مورسيرف وهو يحييه مبتسما :

ــ على الرحب والسعة يا سيدي .. انك قد أديت لهذا البيت جميلا لن ينساه مدى الحياة ، اذ أنقذت حياة وريثه الوحيد ! »

ثم قدم لضيفه مقعدا ، فتناوله هذا وجلس بحيث يسقط عليه ظل الستائر الكبيرة التى صنعت من القطيفة .. وقرأ على قسمات وجه مضيفه قصة أشجان خفية حفرها الزمن مع ما حفر من الغضون والتجاعيد فى ذلك الوجه !

ثم صاح ألبرت فجأة : « هذه أمي قد حضرت »

فالتفت الكونت دى مونت كريستو الى حيث أشار ألبرت ، فرأى الكونتيس دى مورسيرف واقفة عند مدخل الصالون ، أمام الباب المواجه لذاك الذى دخل منه زوجها . وكانت شاحبة الوجه لا تتحرك .. وحين التفت اليها تركت ساعدها الذى كان يستند الى مقبض الباب يسقط الى جانبها !

كانت الكونتيس قد دخلت الحجرة قبل ذلك بدون أن يلحظها أحد . ولما نهض الكونت وانحنى لها ردت التحية بغير أن تتكلم .. واذ ذاك قال لها الكونت دى مونت كريستو :

ــ عفوا يا سيدتى ، أرجو ألا تكونى مريضة !

وعندئذ أجابته : « لست مريضة ، وانما هو الانفعال الذى تملكنى فجأة وأنا أرى لأول مرة الرجل الذى لولا شهامته لكنا الآن غارقين فى دموعنا وأشجاننا ! »

ثم استطردت قائلة وهى تتقدم نحوه بجلال الملكات : « سيدى .. انى مدينة لك بحياة ابنى ، ومن أجل هذا أباركك ، وأشكرك على كونك قد أتحت لى فرصة الاعراب لك شخصيا عن امتنانى القلبى ! »

وانحنى الكونت مرة أخرى ، وقد بدا وجهه أكثر شحوبا من وجهها ، ثم قال لها : « سيدتى ، انك وزوجك تبالغان فى تقدير أمر تافه .. فان انقاذ رجل ، من أجل نفسه ومن أجل شعور أبيه وعاطفة أمه ، ليس عملا كبيرا من أعمال الخير وانما هو واجب عادى بسيط من الواجبات الانسانية! »

فأجابته الكونتيس دى مورسيرف : « انه لمن حسن حظ ابنى يا سيدى أن وجد صديقا مثلك .. وأنا أشكر الله على ذلك »

ثم رفعت عينيها الى السماء وقد تجلى فيهما الامتنان الحار ، بحيث خيل الى الكونت أنه لمح فيهما دموعا تلمع .. وهنا اقترب زوجها منها وقال :

ــ يا سيدتى .. لقد استأذنت الكونت فى الانصراف ، وارجو منك أن

تفعل ذلك أيضا ، فان اجتماع المجلس يبدأ في الساعة الثانية ، والساعة الآن الثالثة ، وعلى أن ألقى خطابا فيه اليوم ! »

فأجابته الكونتيس باللهجة نفسها الدالة على التأثر :

ــ اذهب اذن ، وسوف نبذل جهدنا كي ننسى غيابك »

ثم التفتت الى الكونت دي مونت كريستو وقالت له :

ــ الا تشرفنا بقضاء بقية اليوم معنا ؟

فقال : « شكرا لك يا سيدتي على كرمك ، وأرجو قبول اعتذاري من عدم استطاعتي قبول هذه الدعوة ، فقد جئت الى هنا رأسا عقب وصـــولي الى باريس ، وما زلت أجهل كل شيء عن المنزل الذي ساقطنه ! »

فقالت : « اذن ٠٠هل تعد بأن تمنحنا شرف حضورك في فرصة قريبة؟»

فاومأ الكونت دي مونت كريستو موافقا ، بينما استطردت الكونتيس فقالت : « اذن ٠٠ لن أعوقك يا سيدى ! »

⊂⊃

وعلى أثر ذلك انصرف الكونت الى المنزل الذى اختاره له تابعه « على » في حى « الشانزليزيه » ، فلم تكد العربة تقف أمام الباب حتى أقبل « على » و « برتوشيو » فأطلا من نافذتها ، ثم انحنى الأخير لسيده احتراما وقدم له ذراعه ليعينه على النزول ، فقال له الكونت وهو يهبـــط درجات سلم العربة الثلاث : « أشكرك يا مسيو برتوشيو ٠٠ أين مسجل العقود ؟ »

فقال برتوشيو : « انه في انتظار سيدى في الصالون الصغير ! »

وحين دخل الكونت الصالون ابتدر الرجل سائلا : « ألأنت يا سيدى المسجل المكلف ببيع المنزل الريفي الذى أريد شراءه ؟٠٠ وهل أعددت عقد البيع ؟ »

فقال المسجل : « نعم يا سيدى الكونت ، وهذا هو العقد » ٠ ومد يده بالعقد فتناوله الكونت قائلا : « وأين يقع هذا المنزل ؟ »

وقد ألقى الكونت هذا السؤال في هدوء ينم عن عدم المبالاة ، وهو ينظر الى كل من برتوشيو والمسجل ٠٠ فقال الأخير متعجبا : « ماذا ؟٠٠ ألا يعلم سيدى موقع البيت الذى يشتريه ؟٠٠ انه في (اوتوى) ٠٠ »

واذ ذاك شحب وجه برتوشيو ، بينما وقع الكونت على العقد بسرعة وهو يلقى نظرة على البيانات الخاصة بموقعه وملاكه الســـابقين ، ثم التفت الى برتوشيو وقال له وهو يشير الى المسجل :

ــ اعط هذا السيد خمسة وخمسين ألف فرنك »

ولم يكد الكونت يخلو الى نفسه حتى أخرج من جيبه كتابا مغلقا بقفل ففتحه بمفتاح كان يحتفظ به حول رقبته ٠٠ وبعد أن قلب محتوياته بضع

لحظات توقف أمام ورقة تحوى بعض البيانات ، فراح يقارن ما فيها بما ورد في عقد الشراء الموضوع فوق المنضدة ، وهو يحدث نفسه : « أوتوى ، شارع النافورة رقم ٢٨ ٠٠ انه هو بعينه ٠ والآن هل أعتمد على الاعتراف المنتزع بالتعذيب الديني أو الجسماني ؟ على أية حال سوف أعرف كل شيء في خلال ساعة ! »

وبعد عشرين دقيقة كان الكونت كريستو وبرتوشيو في طريقهما الى ضاحية « أوتوى » ، وازداد انفعال الوكيل وهما يقتربان من القرية ٠ وكان المنزل رقم ٢٨ في أقصى أطرافها ، وقد خلع الظلام على المناظر المحيطة به طابع المناظر المسرحية المصنوعة !

وطرق برتوشيو الباب وسرعان ما فتح وأطل الحارس منه فقدم له برتوشيو عقد الشراء قائلا وهو يشير الى الكونت :

ـ هذا هو سيدك الجديد !

ثم سأل الكونت الحارس : « ماذا كان اسم سيدك القديم ؟ »

فأجاب : « المركيز دى سانت فيران ، وهو شيخ مسن من أتباع أسرة البوربون الملكية ، وليس له الا ابنة واحدة متزوجة من المسيو فيللفور الذى كان وكيلا للنائب العام فى (نيم) ثم فى (فرساى) ٠٠ »

فقال الكونت : « يخيل الى أنى سمعت أن هذه الابنة قد ماتت ؟ »

فقال الحارس : « نعم يا سيدى ، لقد ماتت منذ احدى وعشرين سنة ٠٠ ومنذ ذلك التاريخ لم نر أباها المسكين سوى ثلاث مرات ! »

ـ شكرا ، شكرا ٠٠ أعطنى مصباحا

وكف الكونت عن استجواب الرجل ، بعد أن لمح من نظرة وكيله أنه لن يستطيع المضى فى ذلك دون تعريض نفسه لخطر اثارة الريب والشكوك فى نفس الحارس ٠ ثم قال له الحارس : « هل أرافقك يا سيدى ؟ »

فقال : « كلا ! لا ضرورة لذلك ٠٠ سوف يرافقنى برتوشيو »

وأطاع الوكيل صامتا ، لكن ارتجاف يده التى تحمل المصباح دل على مدى الجهد الذى كلفته اياه طاعة سيده ! ٠٠ وقال الكونت وهما يدخلان : «أهذا سلم خاص ؟ ٠٠ هذا بديع ٠٠ أضىء لى يا مسيو برتوشيو وتقدمنى ٠٠ سوف نرى الى أين يؤدى السلم »

ولم يسع برتوشيو الا أن ينفذ أمر الكونت ، فلما بلغا الحديقة تريث عند الباب الخارجى برهة ثم صاح وهو يضع المصباح عند زاوية الجدار الداخلى : « لا ، لا ، يا سيدى ٠٠ مستحيل ! ٠٠ لن أستطيع المضى أكثر من ذلك ! »

وهنا سأله الكونت فى هدوء : « ماذا تعنى ؟ »

فأجاب قائلا : « ينبغى أن توافقنى يا صاحب الفخامة على أن هذا أمر غير طبيعى ٠٠ أن تشترى المنزل فى أوتوى ، وفى شارع النافورة بالذات ، ورقم ٢٨ دون غيره ! ٠٠ أوه ، لم لم أصارحك بكل شيء ؟ أنا واثق بأنك

ما كنت لتجبرني على الحضور · لقد رجوت أن يكون البيت الذي اشتريته غير هذا الذي وقعت فيه جريمة القتل ! »

فصاح الكونت وهو يتوقف عن السير فجأة : « ماذا ؟·· ما هذا الكلام الذي تقوله ؟ يا لك من شيطان كورسيكي لعين !·· ألا تفكر الا في المآسي والخرافات ؟·· هيا تناول المصباح ودعنا ندخل الحديقة ·· لعلك لست خائفا من الاشباح وأنت معي ؟ »

فحمل برتوشيو المصباح وأطاع الأمر ·· وحين فتح الباب المفضي الى الحديقة طالعتهما سماء قاتمة يحاول فيها القمر جاهدا أن ينفذ من خلال السحاب ·· فأراد الوكيل أن ينعطف الى اليسار ، لكن صوت الكونت لاحقه قائلا له :

ــ كلا ·· كلا ! ·· ما جدوى السير في الممرات ؟·· هذا هو بستان جميل ، فلنمض الى الأمام !

ثم تقدمه الكونت وواصل السير حتى بلغ أجمة من الاشجار فتوقف ·· واذ ذاك عجز الوكيل عن أن يقمع انفعاله فصاح :

ــ تحرك يا سيدى من مكانك بسرعة ، أتوسل اليك : انك تقف في البقعة التي سقط فيها بالضبط ·· وها أنت ذا في وقفتك هذه مرتديا هذا المعطف الذي يخفي وجهك تذكرني بمسيو دي فيلفور ، يا للاثيم !

فقال الكونت بلهجة جعلت الرعدة تسرى في أوصال الوكيل المسكين : « اذن فقد خدعني الأب بوزوني حين أرسلك الى عقب رحلته في أنحاء فرنسا سنة ١٨٢٩ ، مزودا بخطاب توصية عدد فيه صفاتك الحميدة · حسنا !·· سوف أكتب الآن الى الأب بوزوني وأحمله مسئولية سوء مسلك مبعوثه ·· وسأعرف كل شيء عن جريمة القتل هذه · لكنني أنذرك منذ الآن بأني حين أقيم ببلد ما أخضع لجميع قوانينه ، ولست أرغب الآن في أن أضع نفسي تحت رحمة القانون الفرنسي من أجلك ! »

فقال برتوشيو في برود : « ولكن يا صاحب الفخامة ؟·· ألم يذكر لك الأب بوزوني ما تضمنه اعترافي الكامل له في سجن نيم ؟ ان عبئا جسيما يجثم فوق ضميري ؟ »

فقال الكونت : « لقد ذكر لى الأب بوزوني انك تصلح وكيلا مثاليا ، وقد حسبت أن جريمتك كانت جريمة سرقة لا غير ·· هذا كل ما في الأمر ·· والآن لا بد من أن تكاشفني بكل شيء ! »

أخذ برتوشيو يرى قصته للكونت بالتفصيل قائلا :

ــ ان القصة تبدأ في سنة ١٨١٥ ، وكان لى أخ أكبر يعمل في خدمة الأمبراطور · وكان أخي وصديقي في الوقت نفسه ، تولى تنشئتي كما

لو كنت ابنه . وفى سنة ١٨١٤ تزوج ، فلمـا عاد الامبراطور من جزيرة البا انخرط أخى هذا فى الجيش، ثم أصيب بجرح خفيف فى معركة(واترلو) وانسحب مع الجيش وراء (اللوار) . وذات يوم تلقينا خطابا منه جاء فيه أن الجيش تفرق شمله وأنه سوف يعود من طريق (نيم) ، ثم طلب الى أن أترك له ما أملك من نقود عند صاحب حانة من حانات (نيم) كانت لى معه معاملات تتصل بالتهريب .. ولما كنت أحب أخى حبا قويا فقد رأيت أن أحمل النقود اليه بنفسى ، وفى ذلك الوقت حدثت تلك المذابح الشهيرة فى جنوب فرنسا ، فان ثلاثة من قطاع الطرق هم : ترستايون ، وتروفيمى ، وجرافان ، أخذوا على عاتقهم أن يذبحوا علانية كل من يتوهمون أنه من أتباع بونابرت . فلما دخلت (نيم) خضت فى بحار من الدم حتى بلغت منزل صديقى صاحب الحانة ، ومنه علمت أن أخى وصل فى الليلة السابقة، وأنه ذبح غيلة على باب الدار التى جاء يلتمس ضيافتها !

وبذلت كل ما فى وسعى كى أعرف القتـلة ، لكن أحدا لم يجرؤ على مكاشفتى بأسمائهم ، لفرط الذعر الذى أشاعوه فى المدينـة .. فلم أجد مفرا من أن ألجأ الى وكيل النائب العام ، مسيو دى فيللفور !.. وقد تلقانى يومها قائلا : « لكل ثورة فواجعها ، وقد كان أخوك واحدا من ضحاياها .. انه سوء حظ والحكومة ليست مدينة لأسرته بشىء .. ان ما حـدث أمر طبيعى ، يتفق مع قانون الأخذ بالثأر .. فاذهب الآن فـورا والا أمرت بطردك ! »

نظرت اليه لأرى هل هنـاك جدوى أو أمل يرجى من متابعة التوسل اليه ، لكنه كان رجلا ذا قلب حجرى ، فدنوت منه ، وقلت بصوت خافت : « حسنا !.. اذن دعنى أخبرك بشىء واحد : انى سوف أقتلك ، وأننى منذ هذه اللحظة أعلن الثأر ضدك ، فحاول حماية نفسك بكل وسيلة .. فحين نلتقى فى المرة القادمة تكون ساعتك قد حانت ! » .. وقبل أن يفيق الرجل من ذهوله فتحت الباب وغادرت الحجرة !

ولبثت بعد ذلك ثلاثة أشهر وأنا أراقب مسيو دى فيلفور عن كثب ، حتى اكتشفت أنه يذهب خلسة الى (أوتوى) ، فتبعته حتى رأيته يدخل هذا البيت الذى نحن فيه الآن !.. وفى ذات مساء ، بينما أنا متربص له وراء هذا السور رأيت امرأة حسناء فى نحو التاسعةعشرة من عمرها تتمشى فى الحديقة وحدها ، وقد ارتدت ثوبا فضفاضا من الموسلين يشى بأنها تنتظر مولودا فى القريب .. وأدركت أنها تنتظر قدوم دى فيلفور . وبعد لحظات فتح الباب الصغير ودخل منه رجل تلقته المرأة معانقة فى لهفة ، ثم ابتعدا نحو نهاية الحديقة .. ولم يكن الرجل سوى مسيو دى فيلفور

وعمدت بعد ذلك الى استئجار غرفة تطل على الشارع الذى يقع فيـه باب الحديقة .. وبعد ثلاثة أيام ، حوالى الساعة السابعة مســاء ، رأيت دى فيلفور مقبلا وقد تدثر بعباءة ، ثم فتح الباب الصغير المفضى الى الحديقة

ودخل منه ثم أغلقه وراءه .. فهبطت من غرفتي أعدو الى حيث اختبأت في أجمة مشرفة على الممر الذى لابد أن يجتازه غريمي عنـد انصرافه .. ولم ألبث قليلا حتى سمعت تأوهات وصيحات مكتومة ، وحين دقت الساعة معلنة انتصاف الليل فتح باب الحديقة الصغير وخرج منه دي فيللفور ، ثم اقترب من الأجمـة التي كمنت وراءها ، وحين اطمأن الى أن أحدا لا يراه انحنى على الأرض فوضع صندوقا صغيرا كان يخفيه في عباءته ، ثم بدأ يحفر حفرة تتسع له.. وحين أتمها وبدأ يسوي الارض كما كانت انقضضت أنا عليه وأغمدت سكيني في صدره وأنا أهمس له : « أنا جيوفاني برتوشيو .. أقتلك أخذا بثأر أخي ، وآخذ كنزك لأرملته» .. وهكذا ترى أن انتقامي جاء أوفى مما كنت أؤمل !.. ولست أدرى اذا كان قد سمع ووعى هذه الكلمات أم لا ، فقد سقط دون أن يطلق صرخة واحدة . وبعد لحظة كنت قد أخرجت الصندوق من مخبئه ثم هرعت الى ضفة النهر حيث فتحته بسكيني عنوة . فاذا في داخله طفل حديث عهد بالولادة مدثر بثوب من التيل الفاخر يطلق صيحات ضعيفة واهنة !

.. وكنت أعلم أن في باريس ملجأ لأمثال هذا اللقيط ، فمزقت ثوب الطفل ــ وكان يحمل حرفين يرمزان لاسم ما ــ الى قسمين ، كل قسم يحمل حرفا منهما ، وتركت أحد القسمين حول جسم الطفل وأخذت القسم الثاني معي .. ثم ضغطت جرس باب الملجأ وأسرعت بالفرار .. وحين وصلت في اليوم التالي الى (رجليانو) حيث تقطن أرملة أخي (اسانتا) قلت لها : (اطمئني يا أختاه ، فلقد انتقمت لأخي) .. ثم سردت عليها تفصيلات القصة ، فلما انتهيت منها قالت لي : «كان ينبغي أن تحضر معك ذلك الطفل ، كي نكون له بدلا من والديه اللذين حرم منهما ، ونطلق عليه اسم (بنديتو) ولعل الله كان يباركنا لهذا » . فأعطيتها نصف ثوب الطفل كي تستـرده اذا صرنا في حال من اليسر تسمح لنا بتربيته ! »

وهنا قاطعه الكونت دي مونت كريستو قائلا : « ما هما الحرفان اللذان كانا على الثوب ؟ »

فقال : « هما حرفا الهاء ، والنون تعلوهما شارة لقب البارون !.. وعلى أثر ذلك عدت الى تجارة التهريب ، مدفوعا بدافعين : الانفاق على الأرملة المسكينة ، واغراق ذكريات الماضي التي تطاردني !.. وحين راجت أحوالنا عدت يوما من احدى مغامراتي لأجد الارملة قد استردت الطفل ، وكان قد بلغ الشهر السابع أو الثامن من عمره !

« وكان (بنديتو) طفلا جميلا ، ذا عينين واسعتين زرقاوين وشعر ذهبي خفيف ، وابتسامة تنم عن شيء من الخبث والدهاء .. وحين كبر صدقت فراستي في خلقه ، وطبيعته الشريرة ، فلم يبلغ الحادية عشرة حتى صار يعاشر الفتيان الأغرار الذين في الثامنة عشرة أو العشرين ، والذين اشتهروا

في كورسيكا بشرورهم وفساد خلقهم ، حتى لقد صـــاروا مطاردين من البوليس ! ٠٠

واستجابة لنصيحتي أبت الأرملة المسكينة أن تدعن لمطالب بندينـــو الذي كان يرهقها بطلب النقود كل حين لاشباع ميوله الشريرة ٠٠ وذات ليلة احضر معه الى البيت اثنين من رفاقه الأنذال وهددوا المرأة بالتعذيب اذا لم تسلمهم ما تملك من نقود ، فلما رفضت ساقوها الى قرب الموقد كي يجبروها على الاعتراف بمكان النقود ٠٠ وخلال الصراع امتدت النـار الى ثوبها فاضطروا الى تركها خوفا على أنفسهم من الاحتراق ٠٠

وفي الصباح التالي استبطأت جارتها ، زوجة فاسيليو ، ظهورها خارج غرفتها ، فاستنجدت بالسلطات التي حطمت الباب ٠٠ ووجدت (اسانتا) التعسة ما زالت على قيد الحياة ، برغم الحروق الفظيعة التي أصابتهـــا ٠٠ فروت لهم قبل موتها حقيقة ما حدث ، ووجدت أدراج البيت كلها محطمة ومحتوياتها مبعثرة والنقود كلها مسروقة !

ومنذ ذلك اليوم لم يظهر بنديتو مرة أخرى في (رجليسانو) ٠٠ ولا سمعت أنا بدوري شيئا عن مصيره أو أحواله ! »

وهنا أخفى برتوشسيو وجهه بين يديه ، بينما رمقـه الكونت بنظرة غامضة !

جوادان أصيلان

فى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالي لوصول الكونت دي مونت كريستو الى باريس ، وقفت بباب منزله عربة فاخرة يجرها جوادان انجليزيان مطهمان وأطل منها شخص يرتدى سترة زرقاء ، وصدارا ابيض تتدلى من احد جيوبه سلسلة ذهبيـة ثمينة ، وبنطلونا بنى اللون .. وكان شعره الأسود يتدلى على جبهته حتى كاد يصل الى حاجبيه .. وكان الرجل فى حوالى الخمسين من عمره وان حرص هو على أن يبدو فىالاربعين !.. وانحنى الرجل على حاجز العربة الذى رسمت عليه شارة البارونية ، ثم طلب من تابعه أن يسأل : هل الكونت دي مونت كريستو فى الداخل أم لا .. فقيل للتابع : « ان صاحب الفخامة لا يستقبل زوارا اليوم ! » .. وعندئذ قال هذا لمحدثه : « اذن اليك بطاقة سيدى البارون دانجلر فلتحملها الى الكونت وتخبره أن سيدى برغم عجلته لحضور اجتماع المجلس ابى الا أن يعرج فى طريقه لزيارة الكونت ! »

وعندئذ اضطجع البارون دانجلر فى عربته الى الخلف وقال لحوذيه بصوت يمكن سماعه من الشارع : « الى مجلس النواب »

اما الكونت الذى علم بالزيارة فى حينها ، فقد راح من وراء خصاص نافذته يرقب البارون بدقة بواسطة منظار مكبر .. ثم دعا اليـه وكيله برتوشيو وابتدره قائلا : « انك ولا شك قد رأيت الجياد التى وقفت امام الباب بضع دقائق ؟ فهل لك أن توضح لى كيف غاب عنك هذان الجوادان اللذان هما فى روعة جيادى ، حين أوصيتك أن تبتاع لى أحسن جياد باريس ؟

فقال برتوشيو : « اؤكد لفخامتك ان الجوادين اللذين تتحدث عنهما لم يكونا معروضين للبيع حين اشتريت لك جيادك ! »

فهز الكونت دي مونت كريستو كتفيه وقال : « حسنا !.. اذن فلتعرض على البارون دانجلر ضعف ثمنهما ، فان الرجل المالى لا يضيع ابدا فرصة مضاعفة رأس ماله ! »

وما كادت عقارب الساعة تشير الى الساعة الخامسة حتى دق الكونت الجرس ثلاث مرات ، ثم هبط السلم الى باب قصره ، فرأى عربتـه وقد اسرج اليها الجوادان بعينهما اللذان ابدى اعجابه بهما منذ ساعات وهما يجران عربة البارون دانجلر !

وقال الكونت لحوذيه : « الى دار البارون دانجلر ، شارع لاشوسيه دانتان » . .

وقال البارون وهو ينحني ترحيبا بزائره :

ـ اسمح لي ان اخبرك يا كونت بانى قد تلقيت خطاب نصح من بنك (تومسون وفرنش) في روما . . لكني اعترف بانى لم افهم مدلوله بالضبط ، فهو يعطي (الكونت دى مونت كريستو) حسابا جاريا غير محدد على مؤسستنا !

فسأله الكونت في هدوء : « ماذا يتعذر عليك فهمه في ذلك ؟ »

فأجاب دانجلر بابتسامة شبه ساخرة : « ان بنك تومسون وفرنش مقتدر ماليا ، بينما كلمة (حساب غير محدد) تدل في الامور المالية على معنى غامض ! »

ـ اتعني ان تومسون وفرنش لا يجعلان حدودا لالتزاماتهما ، بينما التزامات مسيو دانجلر لها حدودها ؟ !

فقال المالي الكبير وهو ينفخ اوداجه زهوا : « سيدى ، ان حدود مواردى لم تكن يوما موضع شك أو تساؤل »

فقال الكونت في برود : « يبدو لي اني اول من سيضعها هذا الموضع ! »

وعندئذ القى دانجلر بنفسه في مقعده الى الوراء ، وقال بلهجة الغرور والاعتداد بالثراء : « أرجو منك الا تتردد في الاعراب عن رغباتك . . فعندئذ ستقتنع أن موارد بنك دانجلر ـ مهما تكن محدودة ـ لا تزال قديرة على أن تواجه أجسم المطالب . . ولو أردت مليون فرنك ! » .

فقال الكونت في هدوء : « ما اظنني يا سيدى استطيع ان اكتفي بمليون فرنك ! ولو ان مبلغا تافها كهذا يكفيني لما كلفت نفسى عناء فتح حساب جار ! »

ثم اخرج الكونت حافظته وسحب منها شيكين على الخزانة قيمة كل منهما نصف مليون فرنك ، يدفعان لحاملهما . . ففغر دانجلر فاه ولم يحر جوابا ، بينما استطرد الكونت : « كن صريحا اذن واعترف بانك لا تولي مؤسسة تومسون وفرنش ثقتك الكاملة ، فاني قد افهم هذا . . واحتياطا لمثل هذا الاحتمال رأيت ـ برغم جهلي بالامور المالية ـ ان اتخذ بعض الضمانات . . فهذان مثلا خطابان مشابهان تماما لذاك الذى تلقيته ، احدهما من بنك (ارشتاين واسكيلس) في فينا ، الى البارون روتشيلد . . والآخر من بنك (بارنج) في لندن الى مسيو لافاييت . . والآن ما عليك يا سيدى الا ان تنطق بكلمة فاجنبك كل مشقة وحرج بتقديم خطاب ضماني الى احدى هاتين المؤسستين . . ! »

ونهض دانجلر بعد أن استوثق من صحة الوثائق التي يحملها الكونت ، وانحنى أمام الكونت كانما يحيي قوة الذهب الممثلة في شخصه

فقال الكونت بلهجة ودية لطيفة : « على كل حال اعتقد أن مؤسستك لا يمكن أن يثقل عليها مثل هذه المبالغ التافهة .. وإذن ففي وسعك أن تعطيني بعض المال ، أليس كذلك ؟ .. ويمكننا أن نحدد مبلغا يكفي النفقات التقريبية للعام الأول .. وليكن مثلا ستة ملايين من الفرنكات ! »

فقال دانجلر وهو يشهق فزعا : « ستة ملايين ؟ ! »

واستطرد الكونت فقال في لهجة تدل على عدم المبالاة : « إذا أحوجني الأمر الى أكثر من هذا المبلغ ففي وسعي أن أسحب شيكات عليك .. لكن نيتي حاليا تنصرف الى عدم البقاء في فرنسا أكثر من عام .. وأرجو أن تتكرم فترسل الى غدا صباحا نصف مليون فرنك ، وسوف أكون في داري حتى الظهر .. وفي حالة خروجي سأترك إيصالا بالمبلغ مع وكيلي ! »

فقال دانجلر : « سيكون المبلغ الذي تطلبه عند وكيلك في الساعة العاشرة من صباح غد يا عزيزي الكونت .. والآن هل تسمح لي بأن أقدمك للبارونة دانجلر زوجتي ؟ اغفر لي لهفتي يا عزيزي الكونت ، فان عميلا مثلك هو في مركز فرد من أفراد الأسرة ! »

فأومأ الكونت موافقا ، ثم مشى خلف البارون عبر عدد من الحجرات والأجنحة المفروشة بأفخر الأثاث الذي يوحي بالثراء الفاحش .. حتى بلغا مخدع البارونة ، وكانت هذه ما تزال تحتفظ بجمالها الصارخ برغم تجاوزها ريعان الشباب ، وقد جلست الى البيانو ، بينما وقف (لوسيان دوبراي) أمام منضدة صغيرة يقلب صفحات (ألبوم) صور .. فقال لها البارون :

ــ اسمحي لي بأن أقدم لك الكونت دي مونت كريستو ، لقد أوصاني به توصية حارة وكلائي في روما جميعا . وسأكتفي بذكر حقيقة واحدة من شأنها أن تجعل نساء باريس بلا استثناء ينشدن التفاته .. وهذه الحقيقة هي أنه قد جاء ليقضي في باريس عاما ، وسينفق خلاله ستة ملايين من الفرنكات ، وهذا يعني سلسلة من الحفلات والمراقص والمآدب لا نهاية لها ، وأرجو ألا ينسانا الكونت فيها ، كما نعتزم نحن أن نذكره في حفلاتنا المتواضعة !

فقالت البارونة تخاطب الكونت : « لقد تخيرت لزيارتك لباريس أسوأ وقت ، فهي في الصيف لا تطاق .. والملاهي التي بقيت لنا فيها تنحصر في حفلات السباق .. في حلبتي (شون دي مارس) و (شاتوري) .. فهل تعتزم اشراك بعض جيادك في هذا السباق يا كونت ؟ »

ــ سأفعل ما يفعله غيري في باريس يا سيدتي ، إذا أسعدني الحظ فوجدت من يرشدني الى ضروب اللهو المختلفة !

وفي هذه اللحظة دخلت المخدع وصيفة البارونة المفضلة ، واقتربت من سيدتها وهمست في أذنها ببضع عبارات ، شحب على أثرها وجه البارونة ، فاستدارت نحو زوجها متسائلة في لهفة :

ــ أهذا صحيح ؟ .. ان وصيفتي أبلغتني أن سائق عربتي فوجيء وهو

يهم باعدادها الآن بأن جواديها أبدلا بدون علمه .. فكيف كان ذلك ؟! »

فأجابها زوجها : « كوني لطيفة يا سيدتي واصغي الي »

لكنها انفجرت فيه صائحة : « أوه نعم ، سوف أصغي اليك يا سيدي ، فاني لفي فضول شديد الى سماع الايضاح الذي ستتكرم به على .. ان بين الجياد العشرة التي تحتويها حظائرك جوادين يخصانني ، وهما من أحسن الجياد الموجودة في باريس كلها .. وقد وعدت مدام دي فيلفور بأن أعيرها عربتي كي تتنزه بها غدا في غابة بولونيا ، فلما ذهب الحوذي ليعد العربة اكتشف الامر .. ولا شك انك ضحيت الجوادين بغية الحصول على بضعة آلاف أخرى من الفرنكات الحقيرة . اوه ، يا لها من فئة بغيضة ، فئة هؤلاء المضاربين المحترفين ! »

فقال لها دانجلر : « سيدتي . ان الجوادين لم يكونا بالهدوء الذي يناسبك . واقسم بشرفي أمام الكونت انني لو لم أتصرف فيهما منذ ساعات لسرني أن أهديهما اليه .. فهما لا يصلحان الا لشاب في مقتبل العمر ، وقد كنت متلهفا الى الخلاص منهما ! »

فقال الكونت : « شكرا لك يا عزيزي البارون ، لكنني في الواقع قد ابتعت لعربتي اليوم جوادين رائعين بثمن لا اذكر انه كبير .. فهل للمسيو دبراي ان يصارحني برأيه فيهما ، انه خبير في مثل هذه الامور كما سمعت ! »

وهنا اقترب دبراي من النافذة ، ليطل منها على الجوادين ، بينما اقترب دانجلر من زوجته وهمس لها : « لم استطع ان اصارحك أمام هؤلاء السادة بسبب تصرفي في الجوادين ، لقد أرسل شخص مجنون أو أحمق وكيله ليشتريهما بأي ثمن .. فربحت فيهما ستة عشر ألف فرنك !.. لاتغضبي ، فسوف أعطيك ربع هذا الربح تفعلين به ما تشائين ، كما اني ساعطي أوجيني ألفي فرنك .. أفلم اكن محقا بعد هذا في بيع الجوادين ؟ »

وحدجت البارونة زوجها بنظرة احتقار بالغة .. بينما صاح دبراي فجأة : « يا الهي !.. لا يمكن أن أكون مخطئا . ان الجوادين اللذين نتحدث عنهما ، مسرجان الى عربة الكونت ! »

فهتفت البارونة وهي تهرع نحو النافذة : « أتعني جوادي العزيزين ؟ » ثم أردفت بعد أن رأتهما : « حقا انهما جواداي »

فصاح الكونت متكلفا الدهشة بدوره : « عجبا !.. يا للمصادفة ! »

وشرد البارون وهو يهيىء نفسه للمشادة المقبلة بينه وبين زوجته ، التي لم حاجباها عن اقتراب العاصفة .. واذ ذاك تذكر فجأة انه مرتبط بموعد سابق !.. كما انحنى الكونت دي مونت كريستو مستأذنا في الانصراف وخرج تاركا دانجلر يواجه تأنيب زوجته ..!

وبعد ساعتين تلقت البارونة رسالة رقيقة من الكونت يرجو فيها ان تقبل جواديها العزيزين هدية منه ، قائلا : « لست استطيع أن أتحمل فكرة

اندماجي في المجتمع الباريسي الرفيع اذا اشتريت ابهة موكبي بدموع سيدة حسناء ! »

◻

... وفي اليوم التالي ، حوالي الساعة الثالثة ، استدعى الكونت خادمه النوبي « علي » بدقة واحدة للجرس ، فلما مثل في حضرته ابتدره بقوله :

ـ لقد طالما حدثتني عن براعتك الخارقة في رمي الانشوطة . وبعد قليل سوف تمر أمام البيت بأقصى سرعة عربة يجرها الجوادان اللذان رأيتهما في عربتي امس .. والآن أريدك أن توقف هذين الجوادين امام بابي ولو كلفك ذلك تعريض حياتك ذاتها للخطر ! »

.. فهبط « علي » الى الطريق ، ورسم خطا مستقيما على الرصيف عند مدخل البيت تماما ، ثم اشار للكونت نحوه فعاد هذا الى الطابق الثاني من المنزل واثقا من نجاح خطته !

وحين اقتربت الساعة الخامسة سمع صوت عجلات عربة تقترب مسرعة ، ثم ظهرت العربة على الفور يجرها جوادان جامحان حاول الحوذي المذعور أن يحد من سرعتهما المخيفة ، ولكن دون جدوى !.. وكانت في داخل العربة امراة حسناء وطفل في السابعة أو الثامنة وقد تعانقا بقوة واعجزهما الرعب حتى عن اطلاق اية صرخة !..

وفجاة اخرج « علي » الانشوطة من جيبه ، والقاها بحيث اقتنصت الساقين الاماميتين للجواد القريب ، ثم جذبه وراءه في عنف بالغ عدة خطوات قبل أن يسقط الجواد على « العريش » فيقصمه ، وبذلك يعوق الجواد الآخر عن متابعة عدوه !

وانتهز الحوذي هذه الفرصة الفريدة فقفز من فوق مقعده لينجو بنفسه ، بينما امسك علي بخياشيم الجواد الثاني وضغطها بقبضته الحديدية حتى خر الجواد بجانب زميله وهو يتلوى من الالم .. وقد حدث ذلك كله في ثوان معدودات ، لكنها كانت كافية لأن يخرج اصحاب الدور القريبة وخدمهم ليروا ما هناك ، وسرعان ما فتح الحوذي باب العربة واخرج راكبتها التي كانت احدى يديها متقلصة على الوسائد بينما يدها الاخرى تضم الى صدرها ولدها الذي فقد رشده !

وتقدم الكونت دي مونت كريستو فحمل المراة وابنها الى صالونه حيث ارقدهما فوق احدى الارائك المريحة وهو يقول

ـ استريحي يا سيدتي ، فقد زال كل خطر !

فرفعت المراة عينيها لدى سماعها هذه الكلمات ورمقته بنظرة أبلغ تعبيرا من اي رجاء ، وهي تشير الى ابنها الذي ما زال غائبا عن الوعي ... فقال الكونت وهو يفحص الصبي بعناية :

— اني اقدر سبب انزعاجك يا سيدتي ، لكني أؤكد لك أن ليس ثمة داع للقلق ، فما اغماؤه الا نتيجة طبيعية للرعب ، وسوف يفيق بعد قليل ! »

فسألته : « أانت واثق من انك لا تقول ذلك كي تسكن روعي وتهدىء مخاوفي ؟ ! »

ثم انحنت على ولدها وهتفت به : « يا حبيبي ادوار ، تكلم .. تحدث الى أمك ، افتح عينيك الغاليتين وانظر الي مرة أخرى ! »

وعادت فالتفتت الى الكونت وقالت : « سيدي .. ارجو أن ترسل في طلب طبيب .. اني لأبذل كل ثروتي في سبيل انقاذ حياة ولدي ! »

فأجابها الكونت بابتسامة هادئة وحركة لطيفة من يده ، ثم اشار عليها بأن تنحي مخاوفها جانبا .. وفتح صندوقا صغيرا كان على قيد خطوة منه واخرج منه قنينة صغيرة من الزجاج المغلف بالذهب تحوي سائلا أحمر في لون الدم ، وسكب قطرة واحدة منه على شفتي الصبي الذي كان جامدا كالتمثال ، فسرعان ما فتح عينيه ونظر محملقا فيما حوله .. فكادت الأم تجن فرحا ، وقالت تلوم نفسها وقد هدأت مخاوفها :

— ان فضولي التعس هو المسؤول عن ذلك كله .. لقد سمعت باريس بأسرها تطنب في امتداح جمال جوادي البارونة دانجلر فخطر لي أن أرى بنفسي هل يستحقان كل ذلك الاطراء . هل سيدي يعرف البارونة دانجلر ؟

فقال الكونت : « نعم يا سيدتي ، وان مما يزيد في سعادتي بنجاتك من الخطر الذي كان يتهددك أني كنت بلا قصد مني سبب هذا الخطر الذي تعرضت له . فقد ابتعت أمس هذين الجوادين من البارون ، ولكني حين تبينت مبلغ أسف البارونة عليهما أعدتهما اليها راجيا أن تتكرم بقبولهما هدية مني ! »

فقالت له : « اذن فأنت الكونت دي مونت كريستو ، الذي حدثتني عنه (هرمين) كثيرا ؟ »

فقال : « لقد صدقت فراستك يا سيدتي ! »

فقالت : « وانا مدام هيلويز دي فيلفور .. سيكون زوجي شاكرا لك حين يقف على نبأ انقاذك لزوجته وابنه ! .. انه سيظل مدينا لك بحياتنا ، فلولا شهامة خادمك الباسل لكان كل منا الآن في عداد الأموات ! »

وكان فيلفور قد شفي من اصابته بسكين برتوشيو الذي ظن أنه قتله

وفي تلك الليلة سهرت باريس بأسرها تتحدث عن هذه المغامرة ، فقد رواها البرت لأمه ، وقص « شاتو رينو » نبأها في نادي الجوكي ، وسرد « دبراي » تفصيلاتها الكاملة في صالون الوزير .. كما خصص « بوشان » عشرين سطرا من صحيفته للاشادة بشجاعة الكونت وشهامته ، واعتباره بطل الساعة في انظار نساء الطبقة الارستقراطية في باريس !

المنقذ المجهول

استقل الكونت دى مونت كريستو عربته فى اليوم التالى الى بيت جميل يقع فى شارع ميلاى — رقم ٧ — حيث دعى الى زيارة مكسمليان موريل ، ابن ولى نعمته القديم صاحب السفينة « فرعون » .

ولم يكد يدخل البيت حتى مد الضابط الشاب يده يصافح بها الكونت فى حرارة ، قائلا : « هيا بنا ·· ساكون لك بمثابة الدليل ·· ان أختى فى الحديقة تقطع الورود الذابلة ، وزوجها يقرأ الصحف على بعد ست خطوات منها ، فحيثما تكون مدام « هربول » يوجد مسيو « ايمانويل » دائما داخل دائرة لا يزيد قطرها على أربعة أمتار !

ولما دخلا الحديقة رأى الكونت هناك شابة فى نحو العشرين أو الخامسة والعشرين من عمرها ، ترتدى ثوبا حريريا من ثياب الصباح ، وما سمعت وقع خطاهما حتى رفعت رأسها عن ورودها متطلعة الى القادمين ، وكانت هى « جولى » ، التى أضحت تدعى بعد زواجها «مدام ايمانويل هربول» ·· وقالت للضيف الكبير :

— آه يا سيدى ! ·· انها لخيانة من أخى أن يحضرك على هذا النحـــو ، بلا اخطار سابق ·· لكنه لم يقم يوما أى حساب لأخته المسكينة · أرجو أن تسمح لى بأن أتركك لبضع دقائق !

وقبل أن تنتظر جوابا اختفت وراء أجمة من الاشجار ، ثم أسرعت الى البيت من طريق ممر جانبى ·· بينما قال مونت كريستو لأخيها :

— انى لشديد الأسف اذ أرى انى أسبب لأفراد المنزل انزعاجا كبيرا !

فقال مكســـمليان ضاحكا : « أنظر هناك ، هـــذا زوجها يبدل سترته بأخرى · أؤكد لك أنك معروف جيدا فى شارع ميلاى ! »

فقال الكونت كأنما يحدث نفســـه : « يبـــدو أن أسرتك من الأسر السعيدة ؟ »

فقال الضـــابط : « بلا شك ، اذ لا ينقصها شىء من مقومات السعادة ، فأفرادها يستمتعون بالشباب والمرح ، وكل منهم شديد التعلق بالآخر ، وبفضل ايرادهم البالغ خمسة وعشرين ألف فرنك فى السنة يحسون أنهم فى غنى روتشيلد ! »

وقال الكونت دى مونت كريســـتو بلهجة عذبة رقيقة وقعت من سمع مكسمليان موقع صوت الأب البار :

ـ مع ذلك فان هذا المبلغ ليس كبيرا ، وهم لن يقنعوا به ٠٠ هل زوج أختك محام ، أم طبيب ؟ »

فقال : « كان تاجرا ، وقد خلف أبي المسكين في تجسارته ٠٠ ذلك أن مسيو موريل عند وفاته ترك نصف مليون فرنك قسمت بالتساوى بين أختي وبيني ، فقد كنا ولديه الوحيدين ٠ أما زوج أختي ـ الذى لم يكن يملك عند زواجه منها غير ميراثه النبيل من نزاهة اليد وكفاءة الذهن والسمعة النظيفة ـ فقد أراد أن يكون له مال لا يقل عن ارث زوجتـــه ، فراح يكد ويجتهد حتى جمع في خلال ست سنوات ربع مليون فرنك بمعاونة زوجته التي شاركته كفاحه وتعبه ٠٠ وقد ضجت مارسيليا بأسرها بالثنـــاء على جهادهما المشترك ٠٠ وأخيرا جاء امانويل ذات يوم يقول لزوجته وقد فرغت من مراجعة الحسابات :

ـ لقد سلمني الوكيل منذ برهة المائة فرنك الأخيرة التي يكتمل لنا بها مبلغ الربع مليون فرنك الذى حددناه ثروة لنا ٠٠

فهل تتمتعـــين بهذه الثروة الصغيرة التي ستكون عمادنا للمستقبل ؟ أصغي الى ، ان مؤسستنا تتداول أعمالا تبلغ المليون فرنك سنويا ، يصيبنا منها دخل قدره أربعون ألفا ٠٠ وفي استطاعتنا اذا أردنا أن نبيع تجارتنا في أية ساعة ٠٠ فقد تلقيت خطابا من مسيو (ديلونای) يعرض فيه أن يشتريها بثلاثمائة ألف فرنك ، فماذا ترين ؟

فأجابته أختي مؤكدة له أن مؤسسة موريل لا ينبغي أن يتولاها غير فرد من أسرة موريل ٠٠ وأن ثلاثمائة ألف فرنك لا تساوى احتفاظهـــا باسم أبيها وحمايته من شرور الثروة الحرام أو الافلاس !

« فقال لها امانويل « هذا ما رأيته ، لكني أردت أن أعـرف رأيك أنت ٠٠ على انى أقترح أن نصفي مؤسستنا ونكتفي بالايراد الذى يجلبه لنـــا رأس المال »

« وقد اتفقا على هذا ، وكانت الساعة وقتئذ الثالثة ٠ وبعد ربع ساعة دخل تاجر ليؤمن على سفينتين له لدى المؤسسة ، الأمر الـــذى كان يدر عليهما ربحا قدره خمسة عشر ألف فرنك ، فقال له امانويل : (لقد أغلقنا مكاتبنا وصفينا أعمالنا منذ ربع ساعة فقط !)

« ومنذ ذلك التاريخ قنعت أختي وزوجها بايرادهما البالغ خمسة وعشرين ألف فرنك في السنة ! »

لم يكد مكسمليان يفرغ من قصته ، التي أرهفت مشاعر الكونت كريستو من فرط ما نمت عن نبل وقناعة ، حتى أقبلت جولى وأمانويل ، فقـــال الكونت يخاطب الزوجة :

ـ اغفري لى الانفعال الذى يبدو على يا سيدتي ، وقد يدهشك هذا أنت التي ألفت السعادة التي ترفرف على هذا البيت ٠ لكن منظر البشر والقناعة

على محيا انسان لا شك انها منظر جديد بالنسبة الى ، بخيت لن أمل النظر اليه على وجهك ووجه زوجك ! »

فأجابت جولى : « نحن سعداء حقا يا سيدى، لكنا عرفنا أيضا التعاسة فترة من الزمن ، بل قل بين الناس من ذاقوا مثـــل الآلام المريرة التى ذقناها ! »

وهنا بدت على وجه الكونت علائم الفضول ، بينما أردف مكسمليان : « ان هذا يفضى بنا الى صورة متواضعة من تاريخ الأسرة قد لا تعنيك كثيرا أنت الذى ألفت ألا ترى غير مباهج الأثرياء والبـــارزين وحدهم .. لكن الواقع أننا قاسينا الكثير من الأحزان المرة »

فقال الكونت دى مونت كريســــتو فى لهجة تساؤل : « عسى أن يكون الله قد شفى أحزانكم بفضله ورحمته كما يصنع لجميع المعذبين الصابرين؟ »

فأجابت جولى : « نعم يا سيدى الكونت ، ليس يســـعنا الا أن نعترف بذلك ، فلقد صنع الله من أجلنا ما لا يصنعه الا لخاصته المختارين فأرسل الينا أحد ملائكة الرحمة لانقاذنا مما كنا نعانيه ! »

وهنا تورد خدا الكونت فصارا فى لون القرمز ، ثم سعل كى يجد مبررا لوضع منديله على فمه .. بينما أردف أمانويل قائلا : « ان أولئك الذين يولدون فى الثراء ويملكون وسائل اشباع جميع رغباتهم لا يعرفون كيف تكون السعادة الحقيقية فى الحياة ، أما الذين عاشوا وسط أمواج الحيـــاة وأعاصيرها فهؤلاء وحدهم يقدرون قيمة الجو الذى يسوده الصفاء والهدوء ! »

ونهض الكونت دون أن يجيب بكلمة ، خشية أن يفضح صـــوته مدى انفعاله ، ثم راح يذرع الحجرة ذاهبا أيبا فى خطوات بطيئـــة ، فقال له مكسمليان وهو يتبعه بعينيه : « ان أقوالنا تدهشك ، أليس كذلك ؟ »

فوضع الكونت احدى يديه على قلبه ليهدىء من ثائرته ، وأشار باليـــد الأخرى الى غطاء من البللور تحته كيس من الحرير موضوع فوق وسادة من القطيفة السوداء وقال : « كلا يا سيدى ! .. وانما كنت أتأمل هذا الكيس الذى يحوى ورقة فى أحد طرفيه ، وماسة كبيرة فى طرفه الآخر ! »

فقال مكسمليان وقد ارتسمت على وجهه علائم الجد : « سيدى الكونت .. هذه هى أثمن كنوزنا العائلية ! »

فقال الكونت : « حقا .. ان هذه الماسة تبدو ثمينة جدا .. ! »

وهنا تدخلت جولى فى الحديث قائلة : « ان أخى لا يعنى قيمة هذه الماسة — برغم أنها قدرت بمائة ألف ريال — ولكنه [illegible]ى أن الأشياء التى يحتويها هذا الكيس هى تذكار (١٨٤٨) الذى حدثتك عنه الآن ! »

فقال الكونت وهو ينحنى لها : « عفوا يا سيدتى .. اننى لا أفهم شيئا من هذا . ولست أطلب الوقوف على خفايا أمره ، فليس من عادتى أن أتطفل على أسرار عائلية لا تخصنى ! »

فقالت جولى متحمسة : « ليس هذا تطفلا يا سـيدى ·· كلا ! بل انه ليسعدنا أن تعطينا الفرصة كى نفيض فى هذا الموضوع · ولو كنا نبغى اخفاء الصنيع النبيل الذى يرمز اليه هذا الكيس لما عرضناه للعيان هكذا ! آوه !·· ليتنا نستطيع أن نروى القصة لكل انسان وفى كل مكان ، لعل هذا يوصلنا الى معرفة ذلك المحسن المجهول ! »

فتساءل الكونت فى صوت أشبه بالمختنق : « حقا ؟ »

وسارع مكسمليان الى رفع الغطاء البلورى عن الكيس الحريرى ثم لثمه فى احترام وتوقير وقال للكونت : « سيدى ·· ان هذا الكيس قد لمس يد الرجل الذى أنقذ أبى من الانتحار ، وأنقذنا نحن من الدمار ، بل أنقذنا من العار والفضيحة !·· نعم ان ذلك الملاك الكريم الذى لا يبارى جعلنا ننجو من مصير كله فاقة وعوز ونصبح فى حال يحسدنا عليها النـاس ويغبطوننا على سعادتنا !·· واليك الخطاب الذى كتبه ذلك الملاك الكريم فى اليوم الذى انتهى فيه أبى الى اتخاذ قرار الانتحار !·· أما هذه فهى الماسة التى وهبها المحسن المجهول لأختى لمناسبة زواجها ! »

ونشر الكونت الخطاب وقرأه فى غبطة ظاهرة · وكان الخطاب موجها الى جولى ، وموقعا عليه باسم « السندباد البحرى » !·· فتسـاءل الكونت : « هل الرجل الذى أدى لكم هذه الخدمة مجهول لديكم تماما حتى الآن ؟ »

فأجاب مكسمليان : «نعم يا سيدى،اذ لم يسعدنا الحظ يوما بأن نصافحه برغم اننا طالما التمسنا من السماء أن تمنحنا هذه المنة ·· لكن الأمر كله قد اتخذ اتجاها غامضا عجزنا عن فهمه ، وقادته من بدايته الى نهايته يد خفية ــ وان تكن قوية ــ أشبه بأن تكون يد ساحر ! »

فهتفت جولى : « انى لم أفقد الأمل بعد فى أن أستطيع يوما تقبيل تلك اليد كما أقبل الآن هذا الكيس الذى لمسته !·· ولقد كاد يتم لى ذلك ·· فمنذ أربعة أعوام كان (بنيلون) البستانى الذى يعمل فى حديقة الدار ــ وقد كان فيما مضى بحارا ــ يجول على رصيف ميناء (تريستا) حين رأى ثريا انجليزيا يتأهب للابحار فى يخته الخاص ، فعرف فيه الشخص الذى زار أبى فى الخامسة من يونية سنة ١٨٢٩ والذى كتب لى هذا الخطاب فى الخامس من سبتمبر · وقد استوثق (بنيلون) من شخصه لكنه لم يجرؤ على مخاطبته ·· ! »

فقال الكونت كريستو وقد أقلقته النظرة الفاحصة التى رمقته بها جولى: « انجليزى ؟·· أهو ثرى انجليزى ؟ »

فأجاب مكسمليان : « نعم ، انجليزى تقدم الى أبى باعتبـاره المندوب الخاص لبنك (تومسون) وفرنش فى روما · وهذا ما جعلنى أجفل حين سمعتك تذكر فى منزل مسيو دى مورسيرف ان البنك الذى تتعامل معه هو بنك تومسون وفرنش ·· فقل لى بربك : هل تعـرف ذلك الثـرى الانجليزى ؟ »

فقال الكونت وهو يتكلف الهدوء : « لكنك ذكرت لى أن بنك تومسون وفرنش أنكر جازما أنه أدى لكم تلك الخدمة ؟ »

فأومأ مكسمليان موافقا ، بينما واصل الكونت كلامه فقال :

ـ اذن ·· ألا يحتمل أن يكون ذلك الانجليزى شخصا أدى له والدك صنيعا يوما ما ، نسيه بعد ذلك ، ففكر هو أن يرده له بهذه الطريقة الغامضة ؟

ـ كل شيء جائز في هذا الشأن !

ـ وما اسم هذا الانجليزى ؟

ـ اننا لا نعرف له اسما غير اسم (السندباد البحرى) الذى وقع به على خطابه !

ـ ألم تكن له قامتي ، أو أطول قليلا ، وكان يرتدى رباط رقبة يصل الى ذقنه ، وسترة ملتصقة بجسمه ·· ومن عادته أن يخرج قلمه من جيبه كل حين ؟

فهتفت جولى وقد لمعت عيناها غبطة : « نعم ·· نعم ·· انك اذن تعرفه يا سيدى ·· وافرحتاه ! »

فقال الكونت : « كلا !·· وانما أنا أستنتج فقط ، فقد عرفت شخصا اسمه اللورد ويلمور اعتاد أن يقوم بتصرفات من هذا النوع »

فسألته : « هل كان لا يفصح عن شخصيته أيضا ؟ »

فأجاب : « انه كان مخلوقا شاذا ، لا يؤمن بأن لعرفان الجميل وجودا ! »

فهتفت متعجبة : « رباه !·· وبم كان يؤمن اذن ؟ ! »

فأجاب الكونت وقد لمست شغاف قلبه لهجة جولى الفياضة بالامتنان : « انه لم يكن يؤمن بذلك في الفترة التى عرفته فيها ·· ولعله تبين بعد ذلك أن الاعتراف بالجميل ما زال موجودا على الارض ! »

فقالت له متوسلة : « اذا كنت تعرف هذا الشخص ، فانى أرجو ملحة في الرجاء أن ترشدنا الى مكانه ··· آه لو عثرنا عليه ! ·· اذن لأقنعناه بوجود الاعتراف بالجميل ، والاعتراف الصادر من القلب ! »

وأحس الكونت ان الدموع تكاد تطفر من عينيه ، فنهض وراح يذرع الحجرة مرة أخرى بخطوات سريعة ·· بينما ناشده مكسمليان قائلا : «بحق السماء ، أذكر لنا ما تعرفه عن ذلك الشخص »

فهتف الكونت دى مونت كريستو وهو يجاهد ليقمع انفعاله ، اذا كان لورد ويلمور هو ولى نعمتكم المجهول فأخشى أنكم لن تروه ثانية · لقد افترقت عنه منذ عامين في (باليرمو) ·· وكان يتأهب للابحار الى أقصى أطراف الأرض ، بحيث أعتقد أنه لن يعود مرة أخرى ! »

فقالت جولى وقد طافت الدموع بمآقيها : « تعنى اننى لن أراه يا سيدى ·· هذه قسوة منك ! »

فأجابها الكونت في لهجة جادة وهو ينظر بشغف الى اللؤلؤتين المنحدرتين على خديها : « لو كان لورد ويلمور قد رأى ما أراه الآن ، لأحب الحيـاة ، فان الدموع التي تذرفينها كانت كفيلة بأن تعيد اليه حسن ظنه بالبشر !

ثم مد الكونت يده الى جولى مصافحا ، فقالت وهى تضع يدها فى « ولكن .. أليس للورد ويلمور أسرة أو أصدقاء تستطيع أن ... ؟

فقطع الكونت كلامها قائلا فى تلطف :

ـ لا تتعبى نفسك في الاستقصاء ، فلعله لا يكون الشخص الذى أدى لكم ذلك الصنيع .. لقد كان اللورد صديقى الحميم ، ولم يكن يخفى عـلى أى سر خاص به ، فلو أنه كان صاحب ذلك الصنيع لأفضى الى بما فعل !

وعندئذ خف مكسمليان الى نجدة الكونت وقال لأخته :

ـ ان السيد على حق يا أختاه .. تذكرى ما طالما قاله لنا أبونا البار : (ليس الرجل الانجليزى هو الذى أنقذنا !)

وهنا سأله الكونت فى لهفة : « ماذا قال لك والدك يا مسيو موريل ؟ »

فأجاب : « كان من رأى والدى أن ذلك الصنيع من قبيل المعجزات ، وأن صانعه قد بعث من القبر لينقذنا . أوه . انها كانت خرافة مؤثرة يا سيدى ، وبرغم انى شخصيا لم أصدقها فانى لم أشأ ان أحطم ايمان أبى بها .. وكم من مرة حام حولها وذكر اسم الصديق العزيز الذى فقده للأبد ، والذى عزا اليه ذلك الصنيع ، بل انه حين حضرته الوفاة ، وأضاءت ساعة الاحتضار ذهنه بنور خارق للطبيعة ، تحـولت عنده هذه الفكرة الى يقين قاطع .. فكانت كلماته الاخيرة لى (مكسـمليان .. انه ادمون دانتيس الـذى أنقذنا !) ... »

وهنا بلغ شحوب وجه الكونت درجة مزعجة ، فلم يقو على الكلام ، ونظر الى ساعته كمن نسى موعدا هاما ، ثم نطق على عجل ببضع عبارات موجهة الى مدام هربول وصافح كلا من مكسمليان وايمانويل وهو يقـول لها : « سيدتى ، انى لأطمع فى أن تسـمحى لى بزيارتكم بين حين وآخر ، فأنا أقدر صداقتكم وأشكركم على حفاوتكم ، فهذه هى المرة الأولى التى أطلق فيها العنان لمشاعرى منذ سنوات ! »

ثم غادر البيت مسرعا !

وقال ايمانويل على أثر خروج الكونت :

ـ ان الكونت دى مونت كريستو رجل غريب الأطوار !

فقال مكسمليان : « نعم .. لكنى أحس عن يقين أن له قلبا نبيلا ، وأنه يحبنا ! »

وقالت جولى : « لقد تغلغل صوته الى أعماقى ، وخيل الى مرتين أو ثلاثا أننى سمعته من قبل ! »

درس فى السموم!

لم يبطىء الكونت دى مونت كريستو فى العودة الى زيارة مدام دى فيللفور .. ولم يكد الخادم يعلن اسمه حتى عم الهرج والمرج انحاء البيت ، وطلبت مدام دى فيللفور — التى كانت فى الصالون وحدها وقتئذ — ان تحضر المربية ولدها كى يجدد شكره وامتنانه للكونت .. وكان الصبى — واسمه ادوارد — قد سمع أهله يتحدثون عن هذه الشخصية العظيمة طيلة اليومين السابقين ، فبذل جهده كى يخف اليه سريعا ، لا طاعة لأمه او تقديرا لفضل الكونت عليه ، بل بدافع الفضول المحض .. ورغبة فى ان يجد فى شخصه ما يصلح لأن يتخذه فيما بعد مادة لتعليقاته السليطة التى تطلق لسان امه بلومه وتأنيبه من حين لآخر ، وان كانت معجبة بذكائه

وبعد تبادل التحيات المألوفة التفتت الى ابنها ادوارد قائلة : « ماذا تفعل اختك فالنتين ؟ .. دع احدا يبلغها انى اريدها لاتشرف بتقديمها للكونت »

فسألها الكونت : « ألك ابنة ايضا يا سيدتى ؟ . لا بد انها صغيرة السن ؟ »

فأجابته الزوجة الشابة : « انها ابنة مسيو دى فيللفور من زوجته الاولى .. وهى فتاة رائعة »

فقاطعها الصبى ادوار وهو ينتزع بضع ريشات من ذيل ببغاء كانت تتصايح فوق قفصها الذهبى : « لكنها متهوسة ! »

فصاحت به أمه : « صه يا ادوار ! » . ثم اضافت تحدث ضيفها : « هذا الولد الشقى اللعين مصيب مع ذلك الى حد ما ، وهو يردد ما سمعنى اقوله متألمة مائة مرة . ذلك أن الآنسة دى فيلفور — برغم كل ما نبذله من اجلها — ذات طبيعة سوداوية وميل الى الصمت والانزواء ، الامر الذى يغض من جمالها . ولكن ما الذى يعوقها ؟ . اذهب يا ادوار وادعها »

فقال ادوار : « انهم يبحثون عنها فى المكان الذى لن يجدوها فيه كما هو شأنهم دائما ! »

فسألته : « اين يبحثون عنها ؟ »

فأجاب : « عند جدى نوارتييه .. وانا على يقين من انها ليست هناك ! »

فسألته : « واين هى اذن ؟ .. اذا كنت تعرف مكانها فلم لا تقول ؟ »

فأجاب : « انها تحت شجرة الكستناء الكبيرة ! »

فمدت الام يدها الى الجرس كى ترشد الخدم الى مكان الفتاة . ولكن هذه

سرعان ما ظهرت مقبلة ، وقد بدت عليها الكآبة ، بحيث كان الفاحص المدقق يستطيع أن يلمح في عينيها آثار دموع قد جففت !

كانت « فالنتين » فتاة طويلة القامة رشيقة القد ، في التاسعة عشرة من عمرها ، ذات شعر كستنائي ، وعينين زرقاوين عميقتين ، ومظهر وقور يوحي بالارستقراطية الهادئة التي كانت تميز أمها .. وكانت أصابعها البيضاء الدقيقة وعنقها العاجي وخداها المصطبغان بألوان وظلال شتى ، تذكر الناظر اليها بالحسان الانجليزيات اللواتي قارنهن الشعراء بالبجعات ذوات الجلال !

وحينما دخلت الفتاة الحجرة ، ورأت الى جوار زوجة أبيها الرجل الذي سمعت كثيرا من الاحاديث عنه عمدت الى تحيته دون أي ارتباك صبياني ، بل دون أن تغض من بصرها ، وبرشاقة ضاعفت انتباه الكونت اليها ، فنهض ليرد لها التحية ! •

وحين قدمتها له زوجة أبيها باسمها ، أردف ادوار أخوها يكمل التعريف وهو يرمقها بنظرة ماكرة : « وهذا مسيو دي مونت كريستو ملك الصين وامبراطور الهند الصينية ..! »

وهنا شحب وجه أمه واستبد بها الغضب على الغلام الشقي ، لكن الكونت ابتسم في غير غضاضة ونظر الى ادوار في تسامح جعل قلب الأم يسترد فرحته وتحمسه .. ثم واصل حديثه فقال وهو ينقل بصره بين مدام دي فيللفور وفالنتين : « ألم أتشرف من قبل بلقائكما ؟. لقد دار هذا بخاطري منذ البداية ، وحين دخلت الآنسة أضاف مرآها شعاعا جديدا من الضوء على ذكرى مشوشة في ذهني ؟ ! »

فأجابت السيدة دي فيللفور : « لست أعتقد ذلك يا سيدي ، فان الآنسة دي فيللفور ليست شغوفة بالمجتمعات ونحن لا نخرج الا نادرا ؟ »

فقال : « اذن .. لم يكن المجتمع موضع لقائي بالآنسة أو بك يا سيدتي ، أو بهذا الغلام المرح الجذاب .. ثم ان مجتمعات باريس غريبة على تماما ، فاني لم أحضر الا منذ أيام .. ولكن ربما كان ذلك اللقاء في ايطاليا .. كانت الآنسة تسير في الحديقة ، وذهب ابنك يطارد طاووسا ! »

وهنا تدخل الغلام ادوار فقال بعد أن أومأ موافقا : « نعم .. نعم يا أماه ، وقد أمسكت بذلك الطاووس وانتزعت ثلاث ريشات من ذيله .. الا تذكرين ؟ »

واستطرد الكونت : « أما أنت يا سيدتي فبقيت في ظل الكرمة .. الا تذكرين أنك وأنت جالسة على مقعد حجري ، في غيبة الآنسة دي فيلفور وابنك ، تحدثت فترة من الوقت الى شخص ما ؟ »

فأجابت الزوجة الحسناء وقد صعد الدم الى وجهها : « نعم .. هذا صحيح .. أذكر أني تحدثت الى رجل يرتدي عباءة طويلة من الصوف . كان طبيبا على ما أذكر ! »

فقال الكونت : « تماما يا سيدتي ، وذلك الرجل أو الطبيب لم يكن سواي !. كانت قد انقضت مدة على وجودي في الفندق ، وقد استطعت خلالها أن اشفي خادمي من حمى أصابته ، واشفي صاحب الفندق من داء اليرقان ، فاكتسبت بذلك صيتا ذائعا هناك . وقد تحدثنا يومئذ يا سيدتي فترة طويلة من الوقت ، في موضوعات شتى مثل (بيروجنتو) ، و (رافاييل) ، والعادات ، والأزياء .. كما تحدثنا عن علم مزج السوائل ؛ وذكرت لي أن اشخاصا معينين في (بيروجيا) يحتفظون بسره »

فقالت المرأة متعجلة ، في شيء من القلق : « نعم ، هذا صحيح .. اذكر ذلك الآن ! »

واستطرد الكونت فقال في هدوء تام : « .. لست اذكر جميع الموضوعات التي تكلمنا فيها يومئذ يا سيدتي ، لكنني اذكر بوضوح أنك وقعت في الخطأ الذي وقع فيه غيرك بصدد براعتي في الطب فاستشرتني بشأن صحة الآنسة دي فيللفور »

وفي تلك اللحظة دقت الساعة السادسة ، فالتفتت مدام دي فيلفور الى فالنتين وقالت لها في انفعال : « الساعة السادسة الآن .. هل لك أن تذهبي لتري هل جدك يريد تناول عشائه ؟ »

فنهضت فالنتين وغادرت الغرفة ، بعد أن حيت الكونت ، دون أن تجيب بكلمة .. فقال الكونت : « أواه يا سيدتي ، هل بسببي ابعدت الآنسة دي فيللفور عن الغرفة ؟ »

فقالت : « كلا ! . انها الساعة السادسة وهي الموعد المحدد لاعطاء المسيو نوارتييه الوجبة الاجبارية التي تعينه على الاحتفاظ بما بقي من قواه .. انك على علم يا سيدي بحالة الانحلال التي اصيب بها والد زوجي ، أليس كذلك ؟ »

فقال : « نعم ، لقد حدثني مسيو دي فيلفور عنها مرة .. انها حالة تدل على ما اذكر ؟ »

فقال : « نعم ، ان الكهل المسكين لا يقوى على اية حركة ... ولم يبق محتفظا بنشاطه في جسمه غير عقله ، ولو أنه بدأ يضعف ويختلج كنور المصباح الذي يوشك أن ينطفيء . ولكن اغفر لي يا سيدي كلامي في متاعبنا البيتية . لقد قاطعتك في اللحظة التي كنت فيها تحدثني عن براعتك في الكيمياء ! »

فقال : « كلا يا سيدتي !. لم أقل ذلك تماما . وما درست الكيمياء الا على اثر اعتزامي العيش في الأجواء الشرقية ، كي انهج نهج الملك ميتريداتس الذي .. »

وهنا قطع الصبي كلامه وقال وهو ينتزع بعض الصور الجميلة من

« البوم » ثمين : « أهو الملك ميتريداتس الذى كان يفطر كل صباح بكأس من السم الممزوج بالكريمة ؟ ! »

فهتفت به وهي تنتزع البوم الصور من قبضته :

ــ أسكت أيها الشقى ! . لقد صرت لا تحتمل . انك تزعجنا وتقطع حديثنا ، فاتركنا والحق بأختك فالنتين فى غرفة جدك

ثم نهضت فقادت الغلام من يديه حتى الباب . وتبعها الكونت بعينيه وهو يحدث نفسه : « ترى . . هل تغلق الباب خلفها ؟ »

واغلقت مدام دي فيللفور الباب باحكام بعد خروج الصبى ، فتظاهر الكونت بأنه لا يلحظ حركتها ، ولما عادت الى مقعدها اخذت تلقى على ما حولها نظرة فاحصة . . فاستطرد الكونت قائلا : « لقد قاطعت الغلام وهو يذكر فذلكة تاريخية تثبت مدى اهتمام معلمه بتثقيفه . . ! »

فقالت الأم فى شيء من الزهو : « انه ذو قابلية للعلم ، وهو لا ينسى أى درس يلقى عليه . . لكن عيبه الوحيد انه شديد العناد . ولمناسبة هذا الذى قاله ، هل تصدق حقا أن ميتريداتس كان يستعمل تلك الوسائل ، وأنها كانت ذات أثر حقيقى ؟ »

فقال : « نعم اعتقد ذلك يا سيدتى ، لأنى أنا نفسى قد جربتها كى آمن شر الموت بالسم فى رحلاتى المتعددة فى نابولى ، وبالرمو ، وأزمير . . أعنى فى مناسبات ثلاث كنت فيها سأفقد حياتى لولا تلك الوسائل الاحتياطية ! »

فقالت : « انى أذكر الآن انك أشرت الى شيء من هذا القبيل خلال حديثنا فى بيروجيا . . أليس كذلك ؟. كما أذكر انى سألتك يومها : هل السموم تحدث أثرها فى أهل الشمال وأهل الجنوب على حد سواء ، فأجبت بأن الشماليين بطبعهم أميل الى البرود والكسل ، وهذا يجعل قابليتهم للتسمم أخف من قابلية أهل الجنوب ذوى الطبائع النشطة والحيوية »

فقال : « هذا صحيح ، ولقد رأيت بعينى أفرادا من الروس يتناولون أعشابا خاصة ، لو تناولها انسان من العرب أو سكان الشرق الأوسط لقتلته فورا ! »

فسألته فى اهتمام : « اتعتقد هذا حقا ؟. . أعنى هل خطر هذه الأعشاب أشد على من يعيشون فى جو لا تكثر فيه الأمطار والغيوم ؛ لأن هذه تجعل الأجسام أقل قابلية لامتصاص السموم ؟ »

فأومأ الكونت موافقا وقال :

ــ نعم ، ولا ريب يا سيدتى . . لذلك ينبغى أن يحصن ضد السم من لم يألفه من قبل لكى يتعوده جسمه !

فقالت : « أستطيع أن أفهم ذلك . . ولكن كيف تعود نفسك السم ؟ أعنى كيف عودت نفسك فى المرات السالفة ؟ »

فقال : « هذا سهل جدا . . فلو فرضنا انك عرفت سلفا نوع السم

الذى سوف يدس لك .. وليكن هو (البروسين) مثلا .. ثم تناولت في اليوم الاول مقدارا منه ، وفي اليوم الثانى ضعف هذا المقدار .. وهكذا لمدة عشرة أيام فانك تصيرين قادرة على ان تتعاطى مقدارا كبيرا منه دون ان يصيبك ضرر يذكر .. بينما لو اعطيت هذا المقدار نفسه لانسان لم يتناول المقادير الصغيرة السابقة فانه يقتله !.. وهكذا يمكنك في نهاية الشهر أن تشربي الماء من اناء واحد مع شخص آخر ، فيموت هو .. في حين لاتشعرين انت بغير مضايقة بسيطة ..!»

فقالت مدام دى فيلفور في لهجة من يمعن في الفكر : « لقد طالما قرأت تاريخ ميتريداتس ، وأعدت قراءته ، لكنى كنت أعتبره بمثابة اسطورة خرافية ! »

فقال : « كلا يا سيدتى !. انه ـ بعكس اكثر ما يرويه التاريخ ـ صحيح تماما !.. لكن ما تستفسرين عنه ليس فيما يبدو ثمرة فضول طارىء ، فمنذ عامين سألتني هذه الاسئلة نفسها ، وقلت لى يومئذ ان تاريخ ميتريداتس قد شغل فكرك زمنا ؟ »

قالت : « هذا صحيح ، فقد كان علم النبات والجيولوجيا أحب العلوم الى في زمن الدراسة .. وأنا أميل بطبعى الى العلوم التى تخاطب الخيال كالشعر ، والعلوم التى تخضع للأرقام مثل الجبر .. ولكن استمر ، فحديثك يلذ لى جدا ! »

فقال الكونت : « الأغرب من ذلك يا سيدتى ان الشرقيين لا يستخدمون السم كدرع للوقاية ـ كما فعل ميتريداتس ـ بل كخنجر للعدوان !.. فالعلم في أيديهم لا يكون سلاحا دفاعيا فقط ، بل للهجوم ايضا ، وهكذا يحميهم من خصومهم ويخلصهم منهم في الوقت نفسه .. فهم بواسطة الأفيون وست الحسن (البلادونا) وغيرها من العقاقير ينيمون الى الأبد كل من يخشون ان يبقوا ساهرين !.. وما من امرأة من نساء المصريين والأتراك واليونان اللواتى نسميهن هنا (النساء الفاضلات) لا تعرف كيف كيف تستعين بالكيمياء على قضاء اغراضها ، بحيث تدهش الطبيب المحترف ، وتذهل العالم النفسانى الذى يتلقى اعترافات الناس ! »

فتساءلت مدام دى فيلفور وقد لمعت عيناها بوهج غريب : « حقا ؟ ! » . بينما استطرد الكونت فقال :

ـ اما عندنا نحن فان اى ساذج تملكه شيطان الحقد او الطمع ورغب في التخلص من عدو أو قريب ، يذهب عادة الى حانوت البقال او الصيدلى منتحلا لنفسه اسما زائفا ـ يؤدى الى افتضاحه في الواقع اكثر مما لو ذكر اسمه الحقيقى ! ـ ثم يبتاع خمسة جرامات او ستة من الزرنيخ ، بحجة أن الفيران تزعج نومه !.. واذا كان الشخص ماكرا فانه يحصل على هذه الكمية من حوانيت مختلفة ، يكرر في كل منها القصة ذاتها ، فيضع نفسه تحت رحمة شهود عديدين متفقى الشهادة .. ثم يسقى خصمه جرعة من السم تكفى لقتل اضخم فيل أو حوت ، وتجعله يصرخ مستغيثا فيجمع

حوله الجيران وسكان المنطقـة .. ثم لا يلبث ان يصـل رجال البـوليس والمباحث ، وفى اثرهم الطبيب الشرعي الذى يشرح الجثة فيجد فى امعائها من بقايا الزرنيخ ما يملأ ملعقة !.. وفى اليوم التالى تصدر الصحف جميعا وفى صدرها كل البيانات ، واسم القتيل والقاتل فيهرع البقالون والصيادلة ليشهدوا ضد المتهم الذى يساق الى المحاكمة كما يساق الكبش الى الذبح ، ثم يصدر ضده الحكم وينفذ فيه الاعدام .. او ــ اذا كانت امرأة ــ تسجن مدى الحياة !.. هذه هى الطريقة التى تفهمون بها أنتم اهل الشمال علم الكيمياء ... لكن (ديرو)كان فى الواقع أبرع من ذلك !

فقالت المرأة ضاحكة : « ماذا تنتظر منا يا سيدى ؟.. نحن نفعل ما فى مقدورنا .. وليس جميع الناس على علم بأسرار وسائل أسرة بورجيسا وأسرة مديتشى ! »

فأجاب الكونت وهو يهز كتفيه : « هل تبغين ان اذكر لك سبب هـذه الحماقات ؟. انها مسارحكم التى ألف النظارة فيها أن يروا الممثـل يجرع محتويات قارورة بأكملها ، فيسقط ميتا على الفور .. وبعد خمس دقائق يسدل الستار ويتفرق المتفرجون دون ان يفكروا فيما يحدث عادة فى مثل ذلك الحادث من حضور مفتشى المباحث واستجوابهم المتهم ، ثم الاقتصاص منه .. وهذه الروايات غير المتقنة تؤثر فى ذوى العقليات الضعيفة فيتوهمون ان الأمور تجرى على هذا المنوال .. ولكن أبتعدى عن فرنسا وتوغلى جنوبا الى حلب او القاهرة ، أو حتى الى نابولى وروما .. فسوف تجدين هنالك اناسا يمرون بجانبك فى الطريق ، منتصبى القامة ، باسمى الثغور ، متوردى الوجوه .. ولكن لو رآهم (أسموديوس) لقال على الفور : « هذا الرجل قد دس له السم منذ ثلاثة أسابيع ، وسوف يموت بعد شهر ! »

وهنا سألته مدام دى فيلفور : « اذن فقد اكتشفوا مرة اخرى أسرار علم السوائل والسموم ، الذى قيل انه فقد فى بيروجيا ؟ »

فقال : « نعم يا سيدتى .. وهل تفقـد البشرية يوما شيئا ؟.. ان السموم تحدث أثرها بصفة خاصة فى عضو من الجسم دون آخر .. فهناك سم يسبب سعالا مثلا ، والسعال يحدث التهابا فى الرئتين ، أو شيئا من هذه الأمراض المميتة المنصوص عليها فى كتب الطب ، وهى وان لم تكن مميتة بطبيعتها فان الأطباء الأغبياء ــ الذين هم عادة جهلة بالكيمياء ــ كفيلون بأن يزيدوا الداء استفحالا ... ثم يموت المريض الذى قتل ببراعة وفن ، دون أن يصل الى علم العدالة شىء عن الجريمة ! »

فقالت الزوجة الشابة وقد اجلسها الانتباه جامدة فى مكانها بلا حراك : « هذا امر مخيف جدا ، لكنه شائق فى الوقت ذاته .. واعترف بأنى كنت احسب هذه الاقاصيص من ابتداع القرون الوسطى ! »

فقال الكونت : « انها لكذلك حقا ، ولكن تحسينات كثيرة أدخلت عليها فى عصرنا الحاضر .. فما جـدوى الزمن بل ما جـدوى مكافآت التفوق

والأوسمة والنياشين والجرائد العلمية اذا هي لم تأخذ بيد المجتمع نحو كمال أوفى ؟.. على أن الانسان لن يبلغ درجة الكمال المطلق حتى يتعلم كيف يخلق ويهلك ، وهو يعرف كيف يهلك .. وهذه نصف المعركة ! »

وهنا بدا على مدام دى فيلفور الانهماك فى التفكير ، ثم قالت :

ـ انه لمن حسن الحظ أن تلك المواد لا توجد ونركب الا عند الكيميائيين ، والا لقتل الناس جميعا بعضهم بعضا بالسم !

فقال الكونت فى غير مبالاة : « عند الكيميائيين والمولعين بالكيمياء ! »

واستطردت المرأة وهي تحاول جاهدة التخلص من أفكارها الملحة : « ثم ان الجريمة مهما يتم تدبيرها ببراعة فانها تبقى آخر الأمر جريمة يعاقب عليها القانون ، وحتى ان أفلت مرتكبها من حكم القانون فلن تغفل عنها عين الله الساهرة .. ان الشرقيين أقوى جنانا منا فى مسائل الضمير ، ولا جحيم عندهم .. هذا هو الفارق ! »

فقال : « الواقع يا سيدتي ان هذا شك خليق بأن يراود ذهنا طاهرا مثل ذهنك ، لكنه لا يلبث ان يتبدد امام المنطق السليم .. فهناك اشخاص قليلون يعمد الواحد منهم الى اغماد سكينه فى قلب مخلوق بشرى مثله ، أو يدس له مثل تلك الكمية التى تحدثنا عنها من الزرنيخ كى يزيله من الوجود ويمحوه محوا .. ومثل هذا القاتل المتوحش يكون شاذا او غبيا وخارجا على المألوف ، ولكى يبلغ هذه الدرجة من التوحش يجب ان يغلى دمه فى عروقه ويرتفع نبضه ، وتستثار مشاعره الى أقصى حد .. ولكن لو فرضنا انه استعاض عن الكلمة الخشنة بمرادفها الأكثر نعومة ، وبدلا من ان يرتكب جريمة القتل الفظيعة يكتفى بابعاد خصمه عن طريقه ببساطة ، دون عنف او خشونة ، ودون لجوء الى الالام التى تجعل من الضحيــة شهيدا ومن المعتدى جزارا .. بل دون دم ، أو تأوهات ، أو هزات عنيفة .. ودون احساس بوطأة اللحظة المروعة الحاسمة ، لحظة ارتكاب الجريمة الفاصلة بين الحياة والموت .. عندئذ يصبح فى امكان الشخص أن ينجو من قبضة القانون البشرى الذى يقول : (لا تزعج المجتمع) .. وتلك هى الطريقة التى يدبر بها الشرقيون هذه الأمور وينجحون فيها ، حيث لا يقيم النــاس اعتبارا للزمن ولا يستعجلون النتائج ! »

فقالت مدام دى فيلفور بصوت منفعل وتنهدة مختنقة : « ولكن .. يبقى هناك عقاب الضمير ! »

فأجاب مونت كريستو : « نعم ، من حسن الحظ أن عقاب الضمير يبقى ، ولولا ذلك لكانت الحياة تعسة شقية لا تطاق .. فعلى اثر كل فعل يتطلب اجهاد النفس فى التبرير والتخريج يتولى الضمير وحده انقاذنا ، فهو يزودنا بألف عذر وعذر لا يكون قبوله فى يدنا وحدنا .. على ان هذه الأعذار التى تفعل فعل السحر فى جلب النعاس الى أجفاننا لا تكاد تجدينا نفعا حين نمثل أمام المحكمة كى نحاكم عن جريمتنا !.. ومن قبيل ذلك مثلا أن ضمير

ريتشارد الثالث خدمه أجل خدمة بعد أن قتل ولدي أدوارد الرابع . فقد راح يلقي في روعه أن هذين الولدين اللذين ورثا عن ابيهما القاسي المستبد مساوئه وصفاته البغيضة يقفان حجر عثرة في سبيل ارتقائه العرش وانقاذه الشعب الانجليزي من مظالمهما! وكذلك كان ضمير ، ليدي ماكبث ، — في رواية شكسبير — خير شفيع لها حين ارادت أن تمنح ابنها — وليس زوجها — عرش البلاد !. . ان الحب الاموي فضيلة عظيمة وحافز قوي ، بل انه من القوة بحيث يبرر اشياء كثيرة . . ! »

وبقيت مدام دي فيلفور تصغي صامتة الى هذه المبادىء والآراء الرهيبة ثم قالت له :

— هل تعلم يا عزيزي الكونت أن لك منطقا مقنعا شديد الخطر ، وانك كيميائي بارع ، فان الدواء الذي اعطيته لابني في ذلك اليوم قد أعاده فورا الى وعيه !. . »

فقال لها : « الواقع أن قطرة واحدة من ذلك الاكسير أعادت الطفل المغمى عليه الى وعيه ، ولكن ثلاث قطرات كانت كفيلة بأن تقذف الدم الى رئتيه بعنف يحدث سرعة هائلة في نبضه . . وكانت ست قطرات كافية لأن توقف تنفسه وتحدث له اغماء أخطر من الذي اصيب به يومئذ . . اما لو اعطيته عشر قطرات فانها تقتله !. . اولاتذكرين يا سيدتي كيف اختطفت القارورة من جواره حين لمسها بيده ؟ »

فقالت : « هل كان السائل الذي تحويه سما فظيعا الى هذا الحد ؟ »

قال : « كلا يا سيدتي !. ولنبدأ اولا بالتفاهم على أن كلمة سم لا وجود لها ، لأن الطب يستخدم أعنف السموم فيجعل منها وفقا لطريقة استعمالها احسن الأدوية وافضلها للعلاج ! »

فسألته : « اذن ماذا كان السائل الذي بها ؟ »

فأجاب : « لم يكن سوى مستحضر ناجع الأثر من تركيب صديقي البارع الراهب (اديلمونت) الذي علمني طريقة استعماله »

فقالت : « اذن فهو مفيد في معالجة التشنجات العصبية ؟ » .

فقال : « نعم يا سيدتي ، كما رأيت بنفسك . . وأنا أستعمله كثيرا في العلاج ، مع مراعاة منتهى الحذر طبعا »

فقالت : « الواقع انني في حاجة الى استشارة مثل الدكتور اديلمونت كي يبتدع لي دواء لنوبات الاغماء العصبي التي تنتابني ، فيجعلني اتنفس بسهولة ويهدىء ثائرتي وانزعاجي الذي مبعثه الخوف من أن أموت يوما مختنقة خلال نوبة من تلك النوبات . . وحتى يتيسر لي ذلك العلاج ، ونظرا الى أن صديقك الراهب قد يكون مستعدا للحضور الى باريس خصيصا من اجلي ، فاني مضطرة لأن أستمر في استعمال دواء مسيو (بلانشين) المضاد للتشنجات ، فضلا عن قطرات (هوفمان) واقراص النعناع . . واليك بعض الأقراص التي ركبت خصيصا من أجلي . . »

وفتح الكونت الصندوق الصغير الذى قدمته اليه ، واختبر رائحة الاقراص بمقدرة الهاوي الخبير بما تحوى من مركبات .. ثم قال : « انها قوية الاثر ، ولكن لما كانت تؤخذ من طريق الفم فان تناولهـا يتعذر على الانسان اثناء اغمائه ، ولهذا افضل عليها دوائى ! »

فقالت : « بلا شك ، وانا ايضا افضله ، بعد ما رايت من قوة تأثيره .. لكنك تعتبره سرا بطبيعة الحال ، ولست من التطفل بحيث اطلبه منك ؟ »

فقال : « لكنى من الشهامة بحيث اتطوع لتقديمه لك يا سيدتي ! »

وبدا السرور والاغتباط فى وجه مدام دى فيلفور ، بينما واصل الكونت كلامه فقال :

ـ ان جرعة صغيرة منه علاج نافع ، اما الجرعة الكبيرة فسم قاتل .. القطرة الواحدة تكفى لرد الحياة الى الجسم كما رايت ، اما خمس قطرات فانها تقتل .. ويزيد فى خطورتها انها لو وضعت فى كأس من النبيذ مثلا لا تبين لها رائحة مطلقا !

□

وهنا دقت الساعة السادسة والنصف ، واعلن الخادم وصول سيدة من صديقات مدام دى فيلفور جاءت لتتناول العشاء معهـا .. فقالت ربة البيت لضيفها الكبير :

ـ لو كانت هذه هى زيارتك الثالثة او الرابعة يا سيدى الكونت .. ولو كان لى شرف الحظوة بصـداقتك ، بدلا من أن تكون لى سعادة العرفان بجميلك فقط .. لاصررت على دعوتك للبقاء وتناول العشاء معنا ، لكنى اخشى ان يشوب رفضك الدعوة الآن صداقتنا فى بدايتها ؟ »

فقال : « اشكرك الف شكر يا سيدتي .. لكنى فى الواقع مرتبط بموعد لا استطيع ان اتحلل منه ! »

فقالت : « اذن فالى اللقاء ، ولا تنس الدواء ..! »

فقال : « لن انساه يا سيدتى ، لانى لكى انساه يجب ان انسى الحديث العلمى الذى كان بيننا طيلة ساعة كاملة ، وهذا أمر مستحيل فى نظرى ! »

ثم نهض محييا وانصرف ، بينما بقيت مدام دى فيلفور شاردة الفكر لحظة ، تحدث نفسها : « انه رجل غريب الأطوار ، واعتقد انه هو نفسه الطبيب (اديلمونت) مبتكر طريقة تركيب الدواء ! »

اما الكونت كريستو فقد فاقت نتيجة المقابلة كل ما كان يرجوه ، فحدث نفسه وهو منصرف من البيت : « هذا بديع !.. انها تربة خصبة وانا واثق ان البذرة التى بذرتها لن تموت ! »

وفى صباح اليوم التالى ارسل قنينة الدواء .. وفاء بوعده !

اب .. وابن ... زائفان !

نهض الكونت دى مونت كريستو لاستقبال ضيفه الغريب وابتـــدره بقوله : « دعنى أتذكر : السن المركيز بارتلميـــو كافالكانتى البـــكباشى بالجيش النمسوى سابقا ؟. لقد أرسلك الأب بوزونى..أليس كذلك ؟ »

وأومأ الضيف موافقا ، وقال وهو يناول الكونت خطابا مغلقا : « وقد حملنى الى فخامتك هذا الخطاب ! »

فتناول منه الكونت الخطاب وقرأ فيه : « البكباشى كافالكانتى ، من نبلاء (لوتشا) وسليل أسرة كافالكانتى الشـهيرة بفلورنسا .. يملك ايرادا قدره نصف مليون فرنك ، وهو شخص لا ينقصه من أسباب السعادة غير أن يسترد ابنه الحبيب الضائع الذى سرق منه فى طفولته اما بواسطة عدو له من أسرته النبيلة واما بواسطة الغجر .. وقد جددت أمله حين ذكرت له أن فى مقدورك أن ترد اليه ابنه الذى يبحث عنه دون جدوى منذ خمســة عشر عاما ! »

ثم أردف الكونت قائلا : « ان فى مقدورى حقا أن أصنع لك ذلك ... أرد اليك ابنك أندريا ! »

فقال الضابط فى برود تام : « لقد حسبت ذلك .. ولعله هنا ؟ »

فقال الكونت : « نعم .. ولـكن ينبغى أن تتمالك عـواطفك ريثما أعد الشاب للقائك ! »

.. ثم مضى الكونت الى غرفة جانبية،حيث كان يوجد شاب أنيق المظهر جليل الهيئة ، وصل منذ نصف ساعة .. فخاطبـه بقوله : « أعتقد أنى أتحدث الى الكونت اندريا كافالكانتى ؟ »

فكرر الشاب الاسم وراءه وهو ينحنى : « الكونت اندريا كافالكانتى ! »

ـــ وأنت تحمل خطاب تقديم موجه الى وموقع عليه بامضـاء « السندباد البحرى » ، أليس كذلك ؟.. انه صديق حميم لى .. وهو ثرى انجليزى ذو شذوذ يبلغ حد الجنون ، واسمه الحقيقى اللورد ويلمور .. فهلا تكرمت بأن تعطينى بعض المعلومات عن نفسك وأسرتك ؟

ـــ بلا شك ، أنا الكونت اندريا كالفالكانتى ابن البكبـــاشى بارتلميو كالفالكانتى سليل أسرة كافالكانتى التى ورد ذكرها فى الكتــاب الذهبى لمدينة فلورنسا.وأسرتنا برغم أنها ما تزال تتمتع بالثراء وايراد أبى يصل

الى نصف المليون ـ الا انها عانت كثيرا من المتاعب والاحداث السيئة ، فأنا مثلا قد اختطفت فى سن الخامسة بمساعدة معلمى الخائن ، بحيث انقضت على منذ ذلك التاريخ خمسة عشر عاما لم أر فيها الشخص الذى كان السبب المباشر فى وجودى ·· ومنذ بلغت رشدى وصرت سيد نفسى لم أتوان عن البحث عن والدى بكل الوسائل ولكن دون جدوى ·· حتى تلقيت أخيرا هذا الخطاب من صديقك المذكور وفيه أن أبى موجود فى باريس ، وأن على أن أتصل بك كى ترشدنى الى المعلومات الخاصة به !

ـ لقد أحسنت اذ نفذت تعليمات صديقى السندباد البحرى بدقة ، فان اباك موجود هنا حقا ، وهو يبحث عنك كما تبحث عنه !

ـ حقا ؟·· هل أبى هنا حقا ؟!

ـ نعم ، أبوك البكباشى برتلميو كافالكانتى بعينه !

وعندئذ تبدد تعبير الرعب الذى كسا وجه الشاب لدى سماع النبأ لأول وهلة ، ثم قال : « آه يا سيدى ، لقد مضت سنوات طويلة منذ افترقنا ، بحيث لم أعد أذكر شكل أبى على الاطلاق ! »

ـ سوف تراه الآن ·· انه مليونير ، ايراده السنوى ٥٠٠ ألف فرنك ، سوف يمنحك منها خمسين ألفا كل سنة طيلة مدة بقائك فى باريس ، على أن تتسلم نصيبك الشهرى منهما من بنك (دانجلر) الذى هو من أكبر البيوت المالية الباريسية

ـ وهل يعتزم أبى البقاء فى باريس طويلا ؟

ـ بضعة أيام فقط ، فان خدمته العسكرية لا تسمح له بالتغيب أكثر من أسبوعين أو ثلاثة على أكثر تقدير !

وهنا بدا على أندريا السرور بقرب رحيل أبيه ·· بينما قال الكونت : انني لن أعوق لقاءكما المرتقب وقتا آخر . فهل أنت متأهب لمعانقة أبيك؟ ادخل اذن الحجرة المجاورة أيها الصديق ، فترى أباك مشوقا الى رؤيتك »

وانحنى اندريا للكونت محييا شاكرا ، ثم دخل الحجرة ·· أما الكونت فقد انتظر حتى أغلق الشاب الباب وراءه ، واذ ذاك مضى هو الى صورة كبيرة معلقة على الحائط فأزاحها فى رفق حتى انكشفت له وراءها ثغرة خفية تسمح للناظر خلالها برؤية ما يدور فى الغرفة المجاورة ·· فرأى الشاب يتقدم نحو الكهل قائلا بصوت عال ـ تعمد أن يسمعه للكونت فى الحجرة الاخرى

ـ آه ، أبى العزيز ! أهذا حقا أنت ؟

فقال الضابط فى لهجة الجد : « كيف أنت يا ابنى العزيز ؟ »

وعندئذ أردف الشاب وهو يأخذ ذراع الضابط فى ذراعه كمن يعرفه منذ زمن : « أيها العزيز مستر كافالكانتى ، كم دفعوا لك كى تمثل دور أبى ؟· انى سأصارحك بسرى كى تصارحنى بسرك ، انهم يدفعون لى

خمسين ألف فرنك في السنة كي أكون ابنك ! »

ـ وأنا بدوري يدفعون لي مثل هذا المبلغ لأمثل دور أبيك !

.. واختار الكونت هذه اللحظة كي يدخل الحجرة . فلما سمعا مقبض الباب يفتح ألقى كلاهما نفسه في أحضان الآخر وراحا يتبادلان القبلات .. وفي خلال عناقهما دخل الكونت فابتدرهما بقوله : « والآن أيها السيدان طاب يومكما . فاني منصرف ! »

فتساءل كافالكانتي : « متى يكون لنا شرف رؤية فخامتك مرة أخرى ؟ »

فأجابه « يوم السبت . اذا شئتما .. وسوف أتناول العشاء في منزلى في (أوتوى) شارع النافورة رقم ٢٨ . وقد دعوت كثيرين . بينهم مسيو دانجلر . ويسرني أن أعرفكما اليه فهو الذي سيدفع لك يا أندريا مرتبك الشهري ! »

وعندئذ انحنى الاثنان للكونت مودعين . ثم غادرا المنزل !

وصية مشلول

مشى مكسمليان موريل الى حديقة دار مسيو دي فيلفور . وقد سادها السكون وحجبتها أشجار الكستناء العالية المحيطة بها عن الانظار .

ولبث بعض الوقت قلقا يترقب ظهور فالنتين دي فيلفور من بين الاشجار . ويرهف سمعه ليسمع وقع خطاها فوق المشى المفروش بالحصى .. ولم تمض دقائق حتى أقبلت فالنتين للقائه . ووقفت ازاءه يفصل بينهما سور الحديقة المرتفع ثم ابتدرته قائلة : « طاب مساؤك يا مكسمليان . أعلم أني تركتك تنتظر ، لكن أوجيني دانجلر كانت معي فعاقتني . كانت تحدثني عن نفورها من الزواج من مسيو دي مورسيرف . فصارحتها أنا أيضا بنفوري من فكرة الزواج من مسيو ديبيناي ! »

فسألها : « هل الآنسة دانجلر تنفر من الزواج بالمسيو مورسيرف لانها تحب شخصا آخر ؟ »

فأجابت : « كلا !. فقد ذكرت لي أنها لا تحب أحدا . وأنها تعارض الزواج ذاته ، وتفضل أن تعيش حرة بلا قيود .. حتى انها لتتمنى أحيانا أن يفقد أبوها ثروته كي تحترف الفن مثل صديقتها الآنسة لويز دارميني .. لماذا تبتسم ؟ »

ـ دعينا من اضاعة وقتنا في الحديث عنها . فاني أريد أن نتحدث عنك أنت !

ـ هذا صحيح ، ويجب أن نسرع ، فليس أمامنا غير عشر دقائق نقضيها معا .. نعم أنت على حق . فلست سوى صديقة فقيرة لك . وأية حياة أفرضها عليك يا عزيزي المسكين مكسمليان ، أنت الذي خلقت للسعادة ؟! اني لألوم نفسي لوما مريرا !!

ـ ما هـذا الذي تقولين يا فالنتين ؟! وماذا يهمك من الأمر ما دمت أنا قانعا بهذه الحال . وما دمت شاعرا بأن لقاءك ولو لخمس دقائق ، وسماع بضع كلمات من فمك العذب يعوضانني حتى عن هـذا الانتظار الطويل الموجع ؟.. اني لأعتقد اعتقادا جازما أن السـماء ما كانت لتخلق قلبين منسجمين مثل قلبينا ، وتسمح لنا ـ بمعجزة ـ بأن ننشأ معا . لو أنها كانت تريد أن تفرق بيننا آخر الأمر !

ـ كلماتك رقيقة ومشجعة يا مكسمليان.. انها سوف تمنحني على الأقل سعادة جزئية !

ـ ولكن ما الذي يلجئك الى أن تفارقيني هكذا سريعا ؟

ـ لست أدرى التفصيلات بالضبط ، وكل ما أعرفه أن مدام دى فيلفور قد أرسلت في طلبى لأمر يتعلق بجزء من ميراثي .. ليتهم يأخذون ثروتي فليست بي حاجة اليها . ولعلهم لو أخذوها يكفون عن ازعاجي ويتركونني في سلام وسكينة .. واني لعلى يقين من أنك تحبني حينذاك مثلما تحبني اليوم ، أليس كذلك يا مكسمليان ؟

ـ اني أحبك دائما !.. وماذا يهمني من الغنى أو الفقر ما دامت حبيبتي فالنتين بجانبي ؟.. آه كنت أوشـك أن أذكر لك أنني قابلت مسـيو مورسيرف منذ أيام ، وكان قد تلقى خطابا من صديقه دابيناى يخبره فيه بأنه عائد توا

وهنا شحب وجه فالنتين واتكأت بيدها على سور الحديقة قائلة .

ـ رباه !.. لو كان الأمر كذلك ؟!.. ولكن لا .. ان المفاوضات قد لا تأتى من طريق مدام دى فيلفور . فقد خيل الى أنها عارضت ذلك الزواج، وان لم تشأ أن تصرح بذلك علانية !

ـ أظن أنها تعارض زواجك من مسيو ديبيناى وحده.. أى أنها سترحب بأى اقتراح آخر ؟

ـ كلا يا مكسمليان ، انها تعارض فكرة الزواج ذاتها .. وحين فكرت منذ نحو عام في أن أعتزل الدنيا وألجأ الى أحـد الأديرة ، سعت خفية الى تنفيذ هذه الفكرة ، بل لقد أقنعت أبي بقبولها ، ولولا توسـلات جدى المسكين لنفذت عزمى يومذاك .. انك لا تستطيع أن تتخيل التعبير الذى يبدو في عيني الشيخ الفاني حين ينظر الى . أنا المخلوق الوحيد الذى يحبه ويبادله الحب !

ـ حبيبتي فالنتين .. انك لملاك كريم . ولست أدرى أى عمـل طيب عملته حتى أستحق منك حبك وثقتك ؟!.. ولكن حـدثيني بربك . أية مصلحة لمدام دى فيلفور في أن تبقى أنت بغير زواج ؟

ـ ألم أقل لك منذ لحظة انني غنية ، وغنية جدا ؟.. لقد ورثت عن أمي

ما يدر على سنويا نحو خمسين ألف ريال ، فضلا عن ايراد مماثل سوف يتركه لي جدي وجدتي - لأمي - المركيز والمركيزة دي سانت ميران ٠٠ وفضلا عما يعتزمه مسيو نوارتييه - جدي لأبي - من جعلي وريثته الوحيدة ٠٠ وهكذا يصبح أخي ادوار - الذي لن يرث شيئا عن أمه - فقيرا بالنسبة لي ٠٠ أما لو دخلت الدير فسوف تؤول كل ثروتي هذه الى أبي ، ثم الى أخي ادوار ، ابنها !

- ما أغرب أن تكون بهذا الطمع امرأة مثل مدام دي فيلفور !

- انها لا تحب المال لنفسها بقدر ما تحبه لابنها ٠٠ وما تعتبره أنت رذيلة يغدو فضيلة من وجهة نظر الحب الأموي ٠٠ هل تسمع ؟ ٠٠ انهم ينادونني !

ثم صعدت فالنتين فوق مقعد خشبي ومدت يدها الى حبيبها من خلال السور ، فتلقى مكسمليان اليد الممدودة نحوه بغبطة ونشوة فائقتين ، ثم طبع عليها قبلة حارة تذكيها العاطفة ٠٠ واذ ذاك ارتدت اليد الى داخل السور ، ثم رأى الشاب محبوبته تهرع عائدة الى المنزل !

في الوقت الذي جرى فيه ذلك الحديث بين فالنتين ومكسمليان كان المسيو دي فيلفور وزوجته قد دخلا حجرة أبيه مسيو نوارتييه ٠٠ وبعد أن أوما بالتحية الى الشيخ المسن المشلول ، وقفا بجانبه يتحدثان مع (باروا) الذي قضى في خدمته خمسة وعشرين عاما

وكان المسيو نوارتييه قد انتهت حياته العامة والسياسية بوصفه من حزب نابليون منذ انفجر أحد الأوعية الدموية في مخه ، فقضى عليه بأن يظل بقية حياته حبيس مقعده المريح ذي العجلات الذي كان يوضع طيلة النهار في مواجهة مرآة كبيرة يستطيع المريض أن يرى أكثر أجزاء المسكن منعكسة على صفحتها ، كما يرى كل شخص يدخل الحجرة وكل شيء يدور حوله !

وبرغم ان مسيو نوارتييه كان في جلسته أشبه بالجثة الهامدة ، فقد ألقى على الداخلين نظرة سريعة ذكية ، أدرك بها من طريقتهما الحائرة في تحيته أنهما جاءا ليتحدثا اليه في أمور مالية ذات طابع هام ! ٠٠ ولم يكن قد بقي للمسكين من حواسه غير حاستي النظر والسمع ، اللذين تركز فيهما كل نشاطه وحدة ذهنه ، فصارت النظرة منه تغني عن حركة الذراع ونبرة الصوت ومرونة الجسم ، في التعبير عما يريد أن يفصح عنه ٠٠ ولو أن لغته هذه لم يكن يفهمها بوضوح غير أشخاص ثلاثة : ابنه دي فيلفور ، وحفيدته فالنتين ، وخادمه باروا ٠٠ !

وكان دي فيلفور قد أرسل ابنته الى الحديقة ثم أشار الى الخادم باروا



« ومدت فالنتين يدها الى مكسمليان من خلال السور ، فطبع عليها قبلة حارة »

بمغادرة الحجرة ، وجلس بعد ذلك عن يمين أبيه المشلول ، بينما جلست زوجته الى يساره ·· واستهل حديثه بقوله : « اننا نفكر فى تزويج فالنتين يا أبى ·· وسوف يتم الزواج فى مدى ثلاثة أشهر »

·· وهنا أضافت مدام دى فيلفور : « لقد كنا واثقين من أن هـذا النبأ سوف يفرحك ، ولاسيما أنك تخص فالنتين بحبك وحنانك ·· ولم يبق الا أن نذكر لك اسم الشخص الذى وقع عليه اختيارنا : انه شاب يملك الثروة الطائلة ، والمكانة الرفيعة فى المجتمع ، وكل الصفات الكفيلة باسعاد فالنتين ·· وهو ليس بالشخص الذى تجهله أنت تماما ، انه فرانز دى كينيل ، بارون دبيناى !

وبدا الغضب فى عينى نوارتييه، واحتبست فى حلقه صيحة حنق وحزن، بينما استطردت المرأة : « وهـذا الزواج يصادف هوى من نفس المسيو دبيناى نفسه وأسرته ، وأقرب الاحياء من أقربائه اليه هما عمه وعمته — فقد ماتت أمه عند ولادته وقتل أبوه سنة ١٨١٥ ، أى بعد سنتين من موت أمه — وهكذا يمكن القول بأن الفتى نشأ سيد نفسه وليس لأحد سلطان على رأيه أو اختياره لشريكة حياته »

وأردف فيلفور قائلا : « ان مصرع أبيه كان مأساة غامضة ، وقد نجا القتلة من العقاب ، وان حامت الشبهة حول أكثر من واحد ! »

ثم عادت الزوجة فقالت : « والآن يا سيدى أستأذنك فى الانصراف ·· هل تريدنى أن أرسل اليك ادوارد ليؤنسك بعض الوقت ؟ »

فحرك الشيخ المشلول أهداب عينيه مرات ، علامة الرفض ·· وعندئذ سألته المرأة : « اذن ·· هل أرسل اليك فالنتين ؟ » · فأغمض عينيه ، علامة القبول !

وهنا انحنى له الزوجان وغادرا الغرفة ، بعد أن أوصيا الخدم باستدعاء فالنتين تلبية لرغبة جدها ، وكانا يعلمان أنها ستجد عناء كبيرا فى تهدئة ثائرته ··!

دخلت فالنتين بعد خروج أبيها وزوجته من الحجرة بقليل ، وأدركت من أول نظرة الى جدها أنه قلق ، وأن فى ذهنه كلاما كثيرا يريد أن يفضى به اليها ·· فصاحت حزعة : « جـداه ! ·· ماذا حدث ؟· هل حدثاك عن تزويجى ؟ »

فأجابها الرجل بنظرة غاضبة : « نعم » .

— انك لا تحب مسيو دبيناى ؟

فأجابتها عيناه : « لا ، لا ، لا ·· ! »

وعندئذ ارتمت الفتاة على ركبتيها وأحاطت رقبة جدها بذراعيها قائلة : « وأنا أيضا لا أحبه ! » · فلمعت فى عينى الشيخ نظرة فرح !

ثم سألته : « هل تعتقد أنك تستطيع مساعدتى يا جدى العزيز ؟ »

فأغمض عينيه مرات يعني أنه يستطيع هذه المساعدة ، ثم رفع بصره الى السماء اشارة الى أنه يريد شيئا ، فسألته فالنتين : « ماذا تريد يا جدى العزيز ؟ » • ثم راحت تردد على مسمعه الاشياء التى رجحت أن تكون مبتغاه ، لكنه أجابها عن كل منها باشارة الرفض من عينيه • ففكرت فى تجربة طريقة أخرى ، وبدأت تسرد عليه الحروف الابجدية بالترتيب ، حتى أبدى حركة الموافقة عند نطقها بحرف « الميم » •• فقالت جذلة : « اذن فالشيء الذى تريده يبدأ اسمه بحرف الميم •• ترى : هل ميمه مفتوحة ؟ أم مكسورة ؟ أم مضمومة • واذا أدركت من نظرته أنه يريد شيئا يبدأ بحرف الميم المضمومة ، نهضت وأحضرت قاموسا وراحت تنقل أصابعها بين كلمات الميم المضمومة فيه ، الى أن أومأ جدها بعينيه موافقا عند كلمة « مسجل عقود » •• فدقت الفتاة الجرس وطلبت استدعاء أحد مسجلى العقود ••!

وبعد ثلاثة أرباع الساعة ، دخل « باروا » وبصحبته مسجل العقود المطلوب •• ثم دخل فى أعقابهما مسيو فيلفور ، وبعد تبادل التحيات التقليدية قال الابن يحدث المسجل :

ـ ها أنت ذا ترى الشخص الذى أرسل فى استدعائك •• ان جميع أعضاء جسمه مصابة بالشلل ، حتى صوته •• ونحن نجد صعوبة كبيرة فى فهم ما يريد أن يقول »

وهنا أومأ المريض الى حفيدته بنظرة آمرة ، فهمت قصده منها ، فقالت للمسجل على الفور : « سيدى ، انى أفهم كل ما يريد جدى أن يقوله »

فأجابها المسجل : « لكى تكون الوصية نافذة ، ينبغى أن أستوثق من رغبات موكلى • ان عجز الجسم لا يؤثر فى صحة التصرف ، اذا كان العقل سليما ! »

فقالت له الفتاة : « سوف ترى يا سيدى أن جدى مالك لجميع قواه العقلية ونشاطه الذهنى••وفى وسعك أن تتفاهم معه بالطريقة التىأتفاهم بها أنا معه • انه فى مقام الموافقة يغمض عينيه ، وفى مقام الرفض يحرك أهدابه عدة مرات •• والآن تستطيع أن تتفاهم معه بسهولة ! »

وهنا نظر الجد الى حفيدته نظرة شكر وامتنان لم تغب عن فطنة المسجل نفسه ، فقال يسأله : « لقد سمعت وفهمت ما قالته حفيدتك ، فهل توافق على مغزى الاشارتين اللتين تحدثت عنهما ، كوسيلة للتعبير عن آرائك ؟ »

ولما أغمض الشيخ عينيه علامة الموافقة ، التفت المسجل الى المسيو دى فيلفور قائلا :

ـ انها طريقة شاذة فى التفاهم ••!

فقال هذا منتهزا الفرصة : «نعم ، وأعتقد أنها ستكون شاذة فىتسجيل الوصية ، فلست أفهم كيف يمكن ذلك بلا تدخل من فالنتين ، ولعل لها

مصلحة في الوصية تجعلها لا تصلح مفسرة لائقة للتعبير عن رغبات جدها الغامضة غير الصريحة ! »

وهنا حرك المشلول أهدابه محتجا ، فسأله دي فيلفور : « ماذا تعني يا أبي ؟٠٠ أليس لفالنتين مصلحة في الوصية ؟ »

وأومأ الشيخ نافيا أن لها مصلحة فيها ، فقال مسجل العقود لدى فيلفور : « سيدي ٠٠ ان ما بدا لي مستحيلا منذ ساعة واحدة قد صار الآن ميسورا معقولا ، وسوف تكون الوصية شرعية نافذة اذا قرئت في حضور سبعة من الشهود وقرأها الموصي وسجلها المسجل أمام الشهود ! » ٠

ثم التفت الى الشـيخ الموصي وسأله : « هل تعرف مقـدار ثروتك بالضبط ؟ » ٠ فلما أجاب باغماض عينيه دلالة على الموافقة واصل المسجل كلامه فقال :

ـ سأذكر لك عدة أرقام ، فاذا بلغت الرقم الصحيح فعليك أن تنبهني باشارة الموافقة ٠٠ هل ثروتك ٣٠٠ ألف فرنك ، كلا ؟٠٠ اذن أهي ٤٠٠ ألف ؟٠٠ تقول : كلا أيضا؟٠٠ اذن هي ٦٠٠ ألف؟ ٧٠٠ ألف ؟ ٨٠٠ ألف؟ ٩٠٠ ألف ؟

وهنا أشار المسيو نوارتييه اشارة الموافقة ، فكرر المسجل سؤاله :

ـ هل تملك ٩٠٠ ألف فرنك ؟٠٠ حسنا !٠٠ وهل هي عقارات ؟ كلا ؟ اذن أسهم وسندات ؟٠ حسنا يا سيدي ، وهل الاسهم في حيازتك ؟

وهنا نظر نوارتييه الى خادمه (باروا) نظرة فهم الاخير معناها فخرج من الحجرة ثم عاد بعد حين يحمل صندوقا صغيرا٠٠فسأل المسجل الموصي: « هل تسمح لنا بفتح هذا الصندوق ؟ »

فأغمض المشلول عينيه علامة الموافقة ٠٠ فلما فتحوا الصندوق وجدوا فيه أسهما وأوراقا مالية قيمتها ٩٠٠ ألف فرنك بالضبط ، فقال المسجل:

ـ واضح أن المسيو نوارتييه محتفظ بقواه العقلية ونشـاطه الذهني كاملا !

ثم التفت الى الموصي يسأله : « الى من تريد أن تترك هذه الثروة ؟ »

٠٠ فقالت مدام دي فيلفور مقاطعة : « أوه !٠ ليس ثمة شك كبير في هذا الصدد ، فان مسيو نوارتييه يحب حفيدته الآنسة دي فيلفور

وهنا التفت المسجل يسأل نوارتييه : « اذن فأنت تترك هـذه الثروة لحفيدتك الآنسة دي فيلفور ؟ »

وتأهب المسجل لان يسجل موافقة الموصي على ذلك ٠٠ وكانت فالنتين خلال ذلك قد انزوت في أحد أركان الغرفة وأطرقت تبكي !٠٠ فنظر جدها اليها نظرة تفيض رقة وعطفا ٠٠ ثم حرك أهدابه مرات ، علامة الاجابة عن سؤال المسجل بالنفي !

وكانت مفاجأة ٠٠ بعدها سؤال المسجل للموصي : « اذن ، هل تبغي

ترك ثروتك لحفيدك ادوار دي فيلفور ؟ »

لكن الشيخ حرك أهدابه أيضا بما ينم عن الرفض البات !

فعاد المسجل يسأله : « أترفض ذلك أيضا ؟ .. اذن ربما يكون قصدك الايصاء بثروتك لابنك مسيو دي فيلفور ؟ .. ولا هذا أيضا ؟ »

وهنا انتقلت نظرة المشلول بسرعة من فيلفور وزوجته ، الى حيث استقرت على يد فالنتين .. فسألته في دهشة :

— يدى ؟ .. نعم ؟ .. ثم صاحت الفتاة : « آه ، فهمت .. أنت تقصد زواجى ، أليس كذلك يا جدى العزيز ؟ »

فكرر الجد اشارة الموافقة ثلاث مرات ، وهو ينظر الى حفيدته نظرة عرفان بالجميل لكونها فهمت مراده .. بينما قال فيلفور : « حقا ان هذا أمر شاذ للغاية ! »

فأجابه المسجل : « اسمح لى يا سيدى أن أقول ان الأمر على العكس ، فالمعنى الذى يقصده المسيو نوارتييه واضح تماما فى نظرى ، وفى وسعى أن أربط تسلسل الافكار التى تدور فى ذهنه بسهولة ! »

وهنا سألت فالنتين جدها : «أنت تريدنى ألا أتزوج من مسيو ديبيناى؟»

فأجابتها ايماءة عين جدها مؤمنة على كلامها

وعندئذ استطرد المسجل يسأله : «وأنت تبغى تجريد حفيدتك من الارث لانها خطبت الى رجل بلا موافقة منك ؟ .. حسنا ! .. هل اذا عدلت الفتاة عن الزواج من ذلك الرجل تصبح وريثتك الوحيدة ؟ »

فأومأ الشيخ المشلول موافقا !

ثم ساد صمت عميق ، قطعه المسجل مستطردا :

— كيف تبغى أن توزع ثروتك فيما لو أصرت الآنسة دى فيلفور على الزواج من مسيو فرانز ؟ .. هل تريد تخصيصها للاعمال الخيرية ؟ نعم ؟ .. لكنهم قد يثيرون نزاعا حول تنفيذ الوصية بعد وفاتك ؟ كلا ؟

وهنا تدخل فيلفور فى المناقشة قائلا : « ان أبى يعرفنى ويثق من أن رغباته سوف تعتبر مقدسة فى نظرى .. ثم انه يدرك تماما أنى بحكم مركزى لا أستطيع اتخاذ موقف عدائى نحو الطبقات الفقيرة ! »

وهنا ومضت عينا نوارتييه ببريق الانتصار .. فسأل المسجل دى فليفور : « وماذا تعتزم اذن يا سيدى ؟ » . فأجاب هذا : « لا شىء . لقد اتخذ أبى قرارا وأنا أعلم أنه لا يغير رأيه مطلقا ، فلم يبق أمامى غير الاذعان

.. ثم غادر دى فيلفور الغرفة على الأثر ، مصحوبا بزوجته ، تاركين للمشلول أن يفعل ما يشاء .. !

وفى اليوم نفسه سجلت الوصية بحضور الشهود ، وأقرها الموصى ، وختمت أمام الجميع ثم سلمت الى مسيو «ديشان» المشرف على تنفيذ وصايا الأسرة

مناورات فى البورصة

غادر الكونت دي مونت كريستو باريس فى اليوم التالى لتسجيل الوصية، متخذا الطريق المؤدى الى « اورليان » ، فبلغ برج « مونتليرى » الواقع فى اعلى بقعة من السهل المعروف باسمه .. وعند سفح التل ترجل الكونت وبدأ يتسلق ممرا ملتويا يؤدي الى حديقة صغيرة .. حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام رجل فى نحو الخمسين من عمره يقطف ثمار « الفراولة » ويضعها على اوراق العنب .. فابتدره الكونت قائلا وهو يبتسم ابتسامة تنم عن الشعور بالعطف : « هدىء من روعك يا صديقى. انى لست مفتشا، بل سائحا حضر مدفوعا بفضول يكاد يأسف الآن عليه اذ يراك توشك ان تضيع جانبا من وقتك معه »

فقال الرجل : « هل حضرت يا سيدى لترى البرقية ؟ »

فقال الكونت : « نعم .. اذا لم يكن ذلك مخالفا للقواعد .. لقد قيل لى انك انت نفسك لا تفهم دائما الاشارات التى تكررها . »

فأجاب الرجل وهو يبتسم : « هذا صحيح يا سيدى ، وهذا ما أفضله ، لانه يريحنى من المسئولية ويجعلنى أشبه بالآلة لا اكثر ولا اقل.. وما دمت أعمل فلن يطلب منى أحد شيئا آخر ! »

وصعدا الى غرفة البرق ، فى الطابق الثالث ، فنظر الكونت الى المقبضين الحديدين اللذين تدار بهما الآلة ، ثم قال : « هذا أمر مسل للغاية ، وهل انت حقا لا تفهم شيئا من هذه الاشارات ؟ »

فقال الرجل : « هناك اشارات توجه الى خاصة . وهى دائما تتكرر ، دون تغيير ما ، ونصها : (لا جديد .. أمامك ساعة .. او غدا !) .. وهكذا ترى انى لا يمكن ان افهم شيئا مطلقا من هذه الاشارات ؟ »

فقال الكونت : « هذا امر بسيط ، ولكن انظر .. ألا يخاطبك مراسلك الآن ؟.. ماذا يقول ؟ هل فهمت شيئا ؟ »

فقال الرجل : « انه يسألنى اانا مستعد ؟. ومتى أجبته بالاشارة التى تنبىء باستعدادى ، فان مراسلى ـ الذى الى اليمين ـ يفهم ذلك أيضا، بينما مراسلى الذى الى اليسار يأخذ أهبته بدوره ! »

فقال الكونت : « انه ابتكار ينم عن الذكاء الخارق ! »

فقال الرجل مزهوا : « سوف ترى .. انه سيتكلم خلال خمس دقائق » وهنا حدث مونت كريستو نفسه قائلا : « امامى اذن خمس دقائق ...

انها اكثر مما يلزم . . » ثم استطرد يسأل الرجل :

ـ هل انت شغوف بفلاحة الحدائق يا سيدى ؟. وهل يسرك أن يكون لك بدلا من هذه الحديقة التي طولها عشرون قدما بستان مساحته فدانان ؟ »

فقال الرجل : « انى لكفيل بان أجعل منها جنة ارضية ! »

فقال الكونت : « اذن . . انت توافق لقاء هذا على تغيير بسيط اريده في رسالة مراسلك ؟! »

فتساءل الرجل : « ماذا تعنى يا سيدى ؟. . ان هذا لا يمكن ان يحدث ما لم تقهرني على القيام به ! »

فقال الكونت : « اعتقد أن فى وسعى أن أقهرك ! »

ثم أخرج ما جيبه ظرفا ، مد يده به الى الرجل قائلا :

ـ هاك خمسة وعشرين الف فرنك ، تستطيع ان تشترى بخمسة آلاف منها منزلا صغيرا جميلا تحيط به أرض مساحتها فدانان . . . وبقية المبلغ تدر عليك ايرادا سنويا قدره الف فرنك !

ـ منزل له حديقة مساحتها فدانان ؟. وماذا يطلب منى أن أفعل مقابل ذلك ؟

ـ لا شيء سوى أن ترسل هذه الاشارات الى وزير الداخلية !

واخرج مونت كريستو من جيبه ورقة كتب عليها ثلاث اشارات موضح امام كل منها رقم ترتيبها بالنسبة الى الاشارتين الاخريين !

وبعد حوار قصير ، نفذ الرجل ما طلب منه وقد احتقن وجهه وتصبب العرق من جبهته ، وارسل الاشارات الثلاث الى وزير الداخلية كما طلب الكونت !

وبعد وصولها الى الوزير بخمس دقائق ، أمر سكرتيره « دبراى » باعداد عربته وهرع الى منزل « دانجلر » . . وحين لم يجده فى البيت سأل زوجته البارونة : « هل يملك زوجك أسهما اسبانية ؟ »

فقالت : « اعتقد ذلك . . واذكر أن عنده منها ما قيمته ستة ملايين من الفرنكات !

ـ اذن يجب أن يبيعها فورا باى سعر ، فلقد فر « دون كارلوس » من « بورج » وعاد الى اسبانيا !

وهرعت البارونة الى زوجها ، الذى هرع بدوره الى وكيله . وامره ببيع تلك الاوراق المالية فورا بأى ثمن . . وحين رئى فى البورصة ان دانجلر يبيع ما عنده هبط سعر الاسهم الاسبانية فى الحال . . وقد خسر دانجلر فى البيع خمسمائة الف فرنك ، ولكنه تخلص من جميع اسهمه الاسبانية . . وفى الليلة نفسها ، نشرت جريدة « لوميساجير » النبأ التالى :

« من مراسلنا بالبرق : غافل الملك دون كارلوس حراسه فى «بورج» وعاد الى اسبانيا مخترقا حدود قطالونيا ، فهبت برشلونة لمؤازرته ونصرته ! »

وفى تلك الامسية لم يكن للناس من حديث غير بعد نظر دانجلر وحظه المواتى الذى جعله يبيع كل اسهمه الاسبانية قبل انهيار اسعارها بساعات ، فلم يخسر فيها غير خمسمائة الف فرنك ، بينمـــا خسر الذين لم يبيعوا اسهمهم والذين اشتروا اسهمه خسارة مروعة تجعلهم فى عداد المفلسين !

وفى صباح اليوم التالى نشرت صحيفة « لومنتيور » التكذيب التالى :

ـ لم يكن النبأ الذى نشرته « لوميســاجير » امس عن فرار الملك دون كارلوس من منفاه والثورة التى شبت فى برشلونة اى نصيب من الصحة .. فالملك ما زال فى « بورج » لم يبرحها ، وشبه الجزيرة ينعم بسلام وسكينة تامين .. وقد نتج الخطأ عن رسالة برقية اسىء تفسيرها بسبب الضبـاب الذى كان منتشرا أمس !

وعلى اثر نشر هذا التكذيب عادت اسعار الاسهم فارتفعت الى أكثر ممـا كانت قبل الهبوط ، فبلغت خسارة دانجلر من البيع مليون فرنك !

وما وافت الساعة الخامسة مساء حتى وصل الكونت دى مونت كريستو الى منزله الريفى فى « أوتوى » ، يتبعه « على » خادمه العربى الامين . وفى تمام الساعة السادسة سمع وقع حوافر جواد عند مدخل البيت .. وكان « مكسيمليان موريل » هو الفارس القادم !

وفى اللحظة نفسها وصلت عربة تجرها جياد مطهمة يحف بها جـوادان آخران يمتطى صهوتهما رجلان ، هبط احدهما ـ وكان « دبراى » سكرتير وزير الداخلية ـ وتقدم نحو باب العربة ففتحه ومد يده لراكبتها البارونة ، فأخذت يد الشاب بطريقة لم تغب عن فطنة الكونت دى مونت كريستو . ثم لاحظ الكونت ايضا أن البارونة دست فى يد الشاب ورقة صغيرة ، وقد فعلت ذلك فى يسر وسهولة ، شان المراة التى الفت هذه المناورات !

وفى اعقاب البارونة هبط دانجلر من العربة وقد شحب وجهه كأنه خارج من قبره لا من عربته !

ثم القت البارونة على الفناء المحيط بها وعلى واجهة المنزل نظرة استطلاع سريعة لم يغب مغزاها على الكونت ، وراحت تصعـــد السلم وهى تقمع انفعالها جاهدة !

وعلى اثر ذلك اعلن رئيس الخدم وصول « البكباشى بارتلميو كافالكانتى » و « الكونت اندريا كافالكانتى » .. ودخل الاثنان يختالان فى ثيابهما الجديدة الانيقة !

وفجأة شحب وجه « برتوشيو » وكيل الكونت دى مونت كريستو ، حين وقع بصره من خلال باب الدخول المفتوح على مصراعيه ، على المـرأة التى تصعد السلم ، فهتف هامسا لسيده : « رباه ! .. هذه المراة ذات الثوب الابيض والجواهر الثمينة .. ! »

فسأله سيده : « مالها ؟ .. انها مدام دانجلر ! »

ـ لست أعرف اسمها ، لكنها هى بعينها العشيقة التى رأيتها فى هـــذه

الحديقة بالذات ليلة الجريمة .. المرأة التي كانت تنتظر مولودا ، والتي رأيتها من خلال السور تتمشى بين الاشجار في انتظار ...

ـ في انتظار من ؟

وثقل لسان بورتشيو في حلقه ووقف شعر رأسه فزعا ، وهو يحملق في الداخلين ويشير نحو المسيو دي فيلفور كما يشير الى شبح قائم من بين القبور : « في انتظار هذا .. اذن فأنا لم اقتله ! »

فقال له الكونت : « طبعا ما دمت تراه حيا امامك الآن فأنت لم تقتله !. انك قد طعنته بين الضلعين السادس والسابع ، حسب مألوف عادتكم ايها القرويون ، في حين كان ينبغي أن تطعنه في مكان يعلو او يهبط قليلا عن ذلك الموضع .. فان هؤلاء المحامين يتشبثون بالحياة أكثر من سواهم !.. والآن انظر الى المسيو اندريا كافالكانتي ، الشاب ذي السترة السوداء ..! »

وكاد برتوشيو يصرخ دهشة ، لو لم تسكته نظرة جازمة من سيده ، فاكتفى بأن غمغم « بنديتو ! » .. وإذ ذاك قال له الكونت متجاهلا كل ما مضى : « الساعة الآن السادسة والنصف ، وقد أمرت باعداد العشاء في هذه الساعة ، ولست أحب الانتظار ! » .. ثم تركه وعاد الى ضيوفه ، بينما استند برتوشيو الى الجدار حتى تمالك نفسه فمضى متجها الى غرفة الطعام!

وبعد خمس دقائق فتح برتوشيو باب القاعة المفضى الى الصالون على مصراعيه وصاح : « العشاء معد ! »

وهنا نهض الكونت دي مونت كريستو فقدم ذراعه الى السيدة دي فيلفور ، وقال يخاطب زوجها : « هل لك أن ترافق البارونة دانجلر الى المائدة ؟ »

وبعد الفراغ من العشاء الفاخر ، تناول الكونت دي مونت كريستو ذراع البارونة دانجلر وقادها ودي فيلفور الى الحديقة ، حيث وجدوا دانجلر يتناول قدحا من القهوة وقد جلس بين كافالكانتي الاب وكافالكانتي الابن .. فقال الكونت بعد أن مهد لحديثه :

ـ لكم أن تصدقوني او لا تصدقوا .. لكني اعتقد أن جريمة ما قد ارتكبت في هذا المنزل ! »

فهتفت السيدة دي فيلفور : « خذ حذرك ، فان قاضي التحقيق هنا ! »

فأجاب الكونت على الفور : « اذا كان الامر كذلك فسأنتهز فرصة وجوده كي اعلن ما عندي أمام شهود .. تعالوا من هذا الطريق يا سادة ، تعال يا مسيو دي فيلفور ، فان ما سأعلنه ينبغي أن يعلن في مواجهة السلطات المختصة ! »

ثم أخذ ذراع دي فيلفور من ناحية ، وذراع البارونة دانجلر من الناحية الاخرى ، وقادهما الى ظل احدى الاشجار الكثيفة ، فتبعهما الباقون .. ثم قال الكونت فجأة وهو يدق الارض بقدمه :

ـ هنا .. في هذه البقعة بالذات ، كان بستاني يحفر الارض كي يزودها

بتربة جديدة خصبة تعين هذه الاشجار القديمة على الازدهار ، فعثر على هيكل صندوق صغير من الحديد ، بداخله بقايا جثة طفل وليد ! »

وأحس الكونت دي مونت كريستو بذراع البارونة دانجلر يتصلب،وذراع دي فيلفور يرتجف ، بينما تساءل البكباشي كافالكانتي في براءة : « وبماذا يقضي القانون هنا على قتلة الاطفال الحديثي الولادة ؟ »

فأجابه دانجلر : « بالاعدام طبعا ! »

واذ رأى الكونت أن الشخصين اللذين اعد من أجلهما هذا المشهد يعجزان عن تحمل وطأته ، ورغبة منه في أن يتدارك الامر عند هذا الحد مؤقتا ، قال في بساطة متقنة :

ــ هيا أيها السادة نتناول القهوة ، لقد كدنا ننساها !

ولم يتكلم اندريا الا قليلا خلال العشاء ، فقد كان فتى ذكيا ، خشي أن ينطق بحماقة ما أمام هذا الجمع الحاشد من علية القوم ، الذين كان من بينهم رجل القانون والمالي الكبير . . . الخ ــ وكان دانجلر قد نقل بصره بين الاب والابن اللذين تبدو عليهما مظاهر الثراء الفاحش ، فخيل اليه أنه في حضرة أمير من امراء بلد شرقي بعيد قد أحضر ابنه ليتم تعليمه في باريس !.. فلما انتهى العشاء راح دانجلر يستجوب عميلي بنكه الجديدين،عن أسلوبهما في المعيشة، بحجة التحدث في « الاعمال » .. فأبدى كلاهما من اللطف والدماثة في الاستجابة لفضوله ما ادهشه

وفي خلال الحديث خاطبه كافالكانتي الاب قائلا في أدب مفرط :

ــ سوف يسرني أن أتشرف غدا يا سيدي بزيارتك بصدد بعض الاعمال

فأجابه دانجلر : « وسوف يسعدني ان استقبلك »

ثم عرض عليه البارون أن يأخذه في عربته الى حيث يقيم بفندق « دي برانس » .. مالم يحرمه ذلك من صحبة ابنه .. فأجاب الضابط على هذه العبارة الاخيرة بقوله :

ــ ان ابني قد ألف أن يعيش بعيدا عني ، وان لكل منا عربته وجياده ، بحيث يستطيع أن يذهب ويجيء مستقلا عن الآخر !

وهكذا استقل الاب عربة دانجلر وجلس الى جواره

اما الابن فقد نادى حوذيه وراح يعنفه لانه وقف بعربتـــه امام الباب الخارجي لا الداخلي ، الامر الذي سيكلفه ان يمشي على قدميه ثلاثين خطوة حتى يبلغ مكانها !.. واذ فرغ الشاب من هذا التأنيب وتأهب للركوب ، أحس يدا توضع على كتفه ، فلما التفت طالعه وجه رجل قد لوحته الشمس ذي لحية كثة وعينين براقتين وأسنان حادة مدببة كأسنان الذئب أو ابن آوى ، وقد ربط رأسه بمنديل احمر ، وارتدى ثيابا قذرة ممزقة لا تكاد تستر عظامه النحيلة الشبيهة بهيكل عظمي .. وكانت يده التي وضعها على كتف الشاب بالغة الضخامة ، فذعر لرؤيته وتراجع متسائلا : « ماذا تريد مني ؟ »

فأجابه الرجل ذو المنديل الأحمر :

ــ اغفر لي يا صديقي ازعاجي إياك ، لكني أريد أن اتحدث اليك ، وأن تجنبني مشقة العودة الى باريس على قدمي ، اني جائع جدا . . ! ولم أتناول عشاء فاخرا مثلك ! وهاأنذا لا أكاد أقوى على الوقوف . . ومن ثم أريد أن تحملني معك في عربتك . . فهل فهمت يا سيد « بنديتو » ؟

ولدى سماع هذا الاسم فكر الشاب في الأمر لحظة ، ثم اتجه الى حوذيه قائلا :

ــ هذا رسول كلفته بمهمة وقد جاء ليبلغني انباءها . . . فاذهب انت بأية وسيلة أخرى واتركنا في العربة وحدنا

وانسحب الحوذي متعجبا ، بينما انطلق الرجلان بالعربة ، حتى غادرا حدود « اوتوي » ، وإذ ذاك تلفت الشاب حوله ليستوثق من أن أحدا لا يمكن أن يراه أو يسمعه ، ثم عقد ذراعيه فوق صدره وابتدر الرجل الغريب قائلا :

ــ لماذا جئت تزعج حياتي ؟

فقال الرجل : « دعني اسألك أولا لم خدعتني ؟ . . لقد ذكرت لي عند ما افترقنا في (بون دي فار) انك ذاهب الى إقليمي (بيدمونت) و (توسكاني) . . لكنك بدلا من ذلك جئت الى باريس ؟ »

فقال له الشاب : « اذن أنت تتجسس على حركاتي ؟ . . دعني احذرك يا سيد (كادروس) من مغبة ذلك . . والآن حدثني ماذا تريد مني ؟ »

فقال كادروس : « أعتقد أني أستطيع العيش بمبلغ مائة فرنك في الشهر ، لكني لو حصلت على مائة وخمسين أكون أسعد حالا »

وهنا مد اليه الشاب يده بمائتي فرنك وقال له : « في وسعك ان تمر على وكيلي في بداية كل شهر فيعطيك مثل هذا المبلغ . . والآن وقد حصلت على مبتغاك ، وصرنا متفاهمين . . اقفز من العربة واغرب عن وجهي ! »

⁂

في اليوم التالي أمر دانجلر حوذيه بأن يحمله في عربته الى المنزل رقم ٣٠ بشارع الشانزليزيه ، حيث يقيم الكونت دي مونت كريستو وهناك استقبله مرحبا وقال له :

ــ انك تبدو متعبا محطما يا عزيزي البارون ، بحيث يزعجني أمرك . .

ــ لقد طاردني سوء الحظ خلال الأيام الأخيرة ، فتوالت على الأنباء السيئة . . وقد بلغني اليوم نبأ جديد ، هو ان ماليا آخر في « تريستة » قد أشهر افلاسه !

ــ حقا ؟ ترى هل يكون هذا المالي « جاكوبو مانفريدي ؟ »

ـــ هو بعينه !.. هل تصدق ان يفلس مالى مثله كان طيلة السنوات الطويلة التى تعاملت معه خلالها مثالا للانتظام فى الدفع ، دون أى مماطلة

ـــ اذن فقد خسرت ما يقرب من المليونين هذا الشهر ؟

ـــ نعم ، ولهذه المناسبة حدثنى عما يطلب منى أن أفعله لمسيو كافالكانتى ؟

ـــ اذا كان احد قد أوصاك به وكانت التوصية موثوقا بها ، فلا بأس بأن تعطيه ما يطلب من مال

ـــ لقد قدم لى هذا الصباح صكا بمبلغ أربعين الف فرنك مسحوبا عليك ومحولا منك الى ، وهو بتوقيع « بوزوني » .. وقد صرفت قيمته له فورا بالطبع .. ولكن هذا ليس كل شيء ، فقد فتح عندى حسابا لابنه هذا الصباح ايضا !

ـــ هل لى أن أسالك كم يعطى ابنه من المال ؟

ـــ خمسة آلاف فرنك شهريا !

ـــ اى ستين الفا فى السنة ؟.. لقد صدق ظنى فى مبلغ تقتير الرجل وشحه .. كيف يعيش شاب مثله بخمسة آلاف فرنك فى الشهر ؟

ـــ ولكن فى وسع الفتى اذا اراد أن يحصل على بضعة آلاف اخرى !

ـــ اياك أن تدفعها له ، فلن يسددها الأب لك .. انك لا تعرف هؤلاء الاثرياء المحدثين ، انهم غاية فى البخل !

ـــ الا تثق بكافالكانتى ؟

ـــ انا ؟.. انى ادفع ستة ملايين من الفرنكات بضمان توقيعه لا غير !

فقال دانجلر فى عدم مبالاة : « آه ، أن النبلاء يتزاوجون فيما بينهم ، فهم يحبون ان يوحدوا ثرواتهم ! »

ـــ هذا طبيعى ، بلا شك .. ولكن كافالكانتى مبتكر ، لا يفعل ما يفعله الآخرون .. وقد أحضر ابنه الى فرنسا لينتقى له زوجة !

ـــ آه ، اذن فسوف يجد له أميرة من بافاريا أو بيرو ، فهو يطمع فى تاج او ثروة طائلة !

ـــ كلا ، بل ان هؤلاء السادة العظام الذين يعيشون فى الجانب الآخر من الالب غالبا ما يتزوجون من أسرات بسيطة . ولذا لا احسبك تفكر فى الآنسة دانجلر ، الا اذا أردت أن يموت اندريا مذبوحا بيد البرت المسكين !

فقال دانجلر وهو يهز كتفيه : « البرت ؟. آه .. انه لن يعبأ بالامر كثيرا فيما أعتقد ! »

ـــ كيف ؟. اليست مخطوبة له ؟

ـــ لقد تحدثنا فى الامر ، أنا وابوه المسيو دى مورسيرف .. لكن مدام دى مورسيرف والبرت ..

ـــ لا احسبك تعنى انها لن تكون صفقة موفقة !

ـ اني افضل مسيو اندريا كافالكانتي على مسيو البرت دي مورسيرف ، فرغم انى لم اولد بارونا من النبلاء ، فان اسمى الحالى هو اسمى الأصلى الحقيقى على اية حال ، اما هو فليس اسمه مورسيرف .. ان مورسيرف كان صيادا حقيرا يدعى فرناند مونديجو !

ـ اذن لماذا فكرت فى اعطائه ابنتك ؟

ـ لان كلا من فرناند ودانجلر قد صار نبيلا وغنيا ، مساويا للآخر فى مركزه الأدبى ، فيما عدا ان هنالك بضعة اشياء تقال عنه ولا تقال عنى أنا مثلا !

ـ هذا الذى تقوله يذكرنى بانى سمعت اسم فرناندو مونديجو يقرن فى بلاد اليونان باسم على باشا !

ـ هـذا هو السر الذى انا على استعداد لان ادفع اى ثمن فى سبيل الوقوف عليه !

ـ الأمر غاية فى السهولة .. اكتب اذا شئت الى وكيلك فى « يانينا » واساله عن الدور الذى لعبه فرنسى يدعى فرناند مونديجو فى كارثة على باشا !

فقال دانجلر وهو ينهض مسرعا : « انت على حق .. ساكتب اليسه اليوم ! »

▭

اقتيدت مدام دانجلر خلال ممر خاص نحو مكتب مسيو دى فيلفور ، فوجدته جالسا فى مقعده يكتب ، وظهره الى الباب .. ولم يتحرك حين سمع الباب يفتح والحاجب يقول للزائرة : « تفضلى بالدخول يا سيدتى » . ثم يغلق الباب من جديد .. لكن خطوات الحاجب لم تكد تبتعد حتى نهض قاضى التحقيق فاغلق خشب النوافذ والستائر وفحص كل ركن فى الغرفة ، ثم قال :

ـ مضى زمن طويل منذ كانت لى متعة التحدث اليك على حدة يا سيدتى .. وانه ليحزننى أننا لم نلتق اليوم الا لنتبادل حديثا مؤلما ، فاستجمعى كل شجاعتك يا سيدتى ، فانك لم تعرفى بعد غير طرف من الموضوع ! »

وكانت البارونة تعرف مبلغ هـدوء دى فيلفور الطبيعى فى الأحوال العادية ، فافزعها ما بدا من انفعاله بحيث فتحت فاها لتصيح ، لـكن الصيحة اختنقت فى حلقها .. بينما استطرد هو فقال :

ـ ارايت كيف بعث ماضينا الرهيب من مرقده فى أعماق ضمائرنا حيث دفن .. كى يمثل امامنا الآن مثل الشبح فيجلل وجوهنا بالعار ويكسوها شحوب الأموات ؟ »

فقالت له هرمين : « انها المصادفة ولا شك ! »

ـ المصادفة ؟ . كلا يا سيدتى !. لا يوجد شىء اسمه المصادفة !

ـ بل يوجد .. أليست المصادفة التي كشفت كل ذلك ؟. أليست هي التي جعلت الكونت دي مونت كريستو يبتاع هذا البيت بالذات ، ويحفر أرض الحديقة في ذلك الموضع بالذات ، فيعثر على الطفل التعس مدفونا تحت الشجرة ؟ . ذلك المخلوق البريء المسكين الذي ولد مني ولم استطع حتى ان اقبله مرة واحدة ، والذي طالما بكيته بدموعي الحارة ؟ »

فاجابها دي فيلفور في صوت أجوف : « كلا يا سيدتي .. وهذا هو النبأ الرهيب الذي اصارحك به اليوم .. لم يوجد شيء مدفونا تحت الشجرة ، لم توجد جثة طفل .. انك لا ينبغي أن تبكي ، بل يجب أن ترتجفي هلعا ..! »

ـ اذن فأنت لم تدفن طفلي المسكين هناك ؟. لماذا اذن خدعتني ؟. أين وضعته ؟ قل لي .. أين ؟

ـ هناك ! ولكن اصغي الي .. ولسوف ترثين لحال شخص حمل العبء الثقيل وحده طيلة عشرين عاما .. العبء المفجع الذي يوشك أن يبوح لك بسره الآن ، دون ان يلقي أبسط جزء منه على عاتقك ! فمنذ عدت الى وعيي بعد أن شفيت من طعنة ذلك الكورسيكي اللعين ، جعلت همي أن أبحث عن جثة الطفل ، فعمدت الى الاستفسار فورا عن مصير البيت الذي كنا نلتقي فيه ، وحين علمت أن أحدا لم يقطنه منذ تركناه هرعت اليه من فوري ، فلم ادع موضعا من الحديقة لم اضربه بفاسي ، آملا أن تصطدم الفاس بسطح الصندوق الحديدي ، ولكن دون جدوى !.. لم اعثر بشيء !.. فجعلت اسائل نفسي : « ما الذي يجعل ذلك الرجل يأخذ جثة الطفل ؟ ان الأجسام الميتة لا تقتنى بل تعرض على قاضي التحقيق كي يستقي منها الأدلة التي يريدها ثم تدفن .. لكن شيئا من هذا لم يحدث ! »

فتساءلت هرمين وهي ترتعد في عنف : « اذن ما الذي حدث ؟ »

ـ شيء أفظع وأقسى عاقبة .. قد يكون القاتل وجد الطفل حيا فأنقذه ! »

وهنا أطلقت البارونة دانجلر صيحة ثاقبة وامسكت يد دي فيلفور هاتفة :

ـ ابني كان حيا ؟ .. هل دفنته حيا ؟ دفنته دون أن تستوثق من موته ؟. رباه !

ـ لست ادري ، وانما انا افترض ذلك ، كما افترض اي فرض آخر ..!

وزاغت عينا الرجل ، ودلت نظرته على أن عقله الثاقب قد بلغ حافة اليأس والجنون .. وراح يغمغم : « اذا كان الأمر كذلك » وصح هذا الفرض فاننا نكون قد هلكنا .. يكون الطفل ما يزال على قيد الحياة ، ويكون هناك شخص يعرف سرنا .. وما دام الكونت دي مونت كريستو قد تحدث أمامنا عن طفل وجد في الحديقة ، في حين أن ذلك الطفل لا يمكن أن يكون قد وجد .. اذن فهو الذي يقف على سرنا ! »

وبعد بضعة أيام كان دي فيلفور جالساً في بيتـه مكتئباً ، حين سمع صوت عجلات تدنو من الباب ، ثم تلاه وقع خطوات تصـعد السلم . . وفتح الباب بعد ذلك ، فدخلت منه عجوز تحمل معطفها على ذراعها وقبعتها في يدها . . وكان منظرها مؤلما بشعرها الأبيض ؟ وجبينها الأصفر ، وعينيها اللتين غضنتهما الشيخوخة وكادتا تختفيان وراء اجفانهـا التي قرحها البكاء !

وهتفت المرأة في لوعة : « أواه يا سيدي !. . أية كارثة حلت بي !. . انني سأموت حزنا بلا شك ! »

فنهض دي فيلفور وخف لاستقبال حماته ــ الاولى ــ متسائلا : « ماذا حدث ؟. ما الذي أزعجك ؟. هل مسيو دي سانت ميران معك ؟ »

فأجابت المركيزة العجوز دون مقدمات ودون أي تعبير على وجهها ، من فرط ذهولها : « أن مسيو دي سانت ميران قد مات »

فتراجع دي فيلفور وهو يضم يديه صائحا : « مات ؟. . هكذا فجأة ؟ »

فقالت المركيزة : « منذ أسبوع خرجنا معا في العربة بعد الغداء . وكان زوجي متوعك الصحة منذ أيام ، لكن فكرة رؤية عزيزتنا فالنتين مرة أخرى أمدته بالشجاعة ، فأغفل أمر مرضـه . . وعلى بعد ستة فراسخ من مرسيليا ، بعد تناول الأقراص التي ألف تناولها ، نام نوما عميقا الى درجة شعرت معها أنه نوم غير طبيعي. . لكنني ترددت مع ذلك في ايقاظه ، ولو اني لاحظت احتقانا في وجهه وعنفا غير عادي في نبضات عروق صدغه !. . ولم ألبث أن أغفيت أنا بدوري ، ثم صحوت بعد حين على حشرجة كالتي تصدر من شخص يتألم من كابوس. . وفجأة ألقى رأسـه الى الخلف بشدة ، فاستعملت الأملاح التي تزيل الاغماء . . لكن كل شيء كان قد انتهى ! ولم نصل الى « ايكس » حتى كان جثة هامدة ! »

وكان دي فيلفور يصغي الى القصة وقد فغر فاه من فرط ذهوله . . ولم ينطق بحرف !

⊏⊐

وفي مساء اليوم التالي غادر دي فيلفور المنزل ومعه الطبيب . . وقال القاضي لمرافقه : « أواه يا عزيزي !. لقد أعلنت السماء الحرب على بيتي !. . يا لها من ميتة فظيعـة ، أية كارثة ! لا تحاول مواساتي ، فما من شيء يستطيع أن يخفف من فداحة حزني ، ان الجرح عميق وحديث ! »

فأجابه الطبيب : « يا عزيزي دي فيلفور ، ما صحبتـك الى هنـا كي أواسيك ، بل على العكس ، فان وراء الخطب الذي أصابك خطبا آخر أمر وأدهى . لقد ماتت المركيزة دي سانت ميران من جرعة قوية من «البروسين الستركنين » لعلها قد أعطيت لها خطأ »

فتناول دي فيلفور يد الطبيب وقال : « هذا مستحيل .. لا بد أني احلم ! »

ــ هل للمركيزة دي سانت ميران اعداء ؟

ــ لست اعلم أن لها اي اعداء

ــ الا يحتمل ان يكون الخادم باروا قد اخطأ فاعطاها جرعة كانت معدة لسيده ؟

ــ لا ادري .. ولكن كيف يكون دواء مسيو نوارتييه ساما للمركيزة ؟

ــ هذا امر غاية في البساطة ، فهناك سموم تغدو أدوية للعلاج في بعض الحالات ، ومنها حالة الشلل .. وقد وصفت لمسيو نوارتييه في آخر زيارة ست حبات من البروسين ، وهي جرعة يحتملها هو لأنه أخذ من المادة جرعات سابقة صغيرة ، لكنها لو اعطيت لأول مرة لأي انسان لقتلته فورا !

ــ ولكن ليس هناك يا عزيزي اي اتصال بين جناح مسيو نوارتييه وجناح المركيزة دي سانت ميران ، ولم يدخل باروا مخدع حماتي قط !

ــ يا عزيزي دي فيلفور ، لو كان في طاقة الطب أن ينقذ المركيزة دي سانت ميران لانقذتها ، لكنها قد ماتت .. وواجبي الآن ينحصر في حماية الأحياء ، فلندفن هذا السر الرهيب في اعمق اعماق قلوبنا ، وأنا على استعداد ــ فيما لو ارتاب احد في الأمر ــ أن أعزو سكوتي عن التبليغ الى جهلي .. وفي اثناء ذلك عليك ان تشدد رقابتك ، فلعل الشر لا يقف عند هذا الحد . وحين تكتشف المجرم ــ اذا عثرت عليه ــ سأقول لك : « أنت قاضي تحقيق واعرف بواجبك ! »

سر مصرع الجنرال

على أثر الجنازة المزدوجة للمركيز والمركيزة دي سانت ميران ، عاد دي فيلفور بصحبة فرانز ديبيناي الى حي سانت أونوريه ، فمضى القاضي الى مكتبه مباشرة ، دون أن يعرج على حجرة زوجته أو ابنته .. وهناك قدم للشاب مقعدا وهو يقول له :

ـ مسيو ديبيناي ، اسمح لي أن أذكرك في هذه اللحظة بان الفقيدة قد أعربت ، وهي على فراش الموت ، عن رغبتها في الا يتأخر زفاف فالنتين عن موعده . وليس في هذا الأمر ما يجافي الذوق كما قد يبدو لأول وهلة ، فان تنفيذ رغبات الموتى أول ما يجب لهم على الأحياء !

فقال الشاب : « كما تشاء يا سيدي ! » . وواصل دي فيلفور كلامه فقال :

ـ اذن أرجو أن تتكرم بالانتظار نصف ساعة ريثما تهبط فالنتين من غرفتها .. وسأرسل في استدعاء مسيو « ديشان » كي نقرأ عقد الزواج ونوقع عليه قبل أن نفترق .. ولسوف تصحب السيدة دي فيلفور فالنتين الليلة الى ضيعتها على أن تلحق بهما بعد أسبوع !

وحين حضر مسجل العقود ابتدر فرانز بقوله : « ينبغي أن أخبرك يا سيدي ، بناء على طلب مسيو دي فيلفور ، بأن زواجك المرتقب من الآنسة دي فيلفور قد غير عواطف مسيو نوارتييه نحو حفيدته ، فجردها من ثروته التي كانت سترثها ! . وأضيف الى ذلك أن الموصي ـ الذى لا يملك غير حق التصرف في جزء من ثروته فقط ـ قد تصرف في ثروته كلها ، الأمر الذى يجعل الوصية قابلة للطعن والالغاء ! »

وهنا أردف مسيو دي فيلفور : « نعم ، لكني أبادر فأنبه مسيو ديبيناي الى أن وصية أبي لن ينازع فيها خلال حياتي ، فان مركزي يحول دون تجريحها ! »

ولم يكد الشاب يفرغ من هذا القول حتى فتح الباب وبرز على عتبته « باروا » وقال : « سادتي . ان مسيو نوارتييه يرغب في أن يتحدث الآن الى مسيو فرانز ديبيناي ! »

فالتفت دي فيلفور الى ابنته وقال لها : « فالنتين .. يجب أن تذهبي لتبحثي هذه النزوة الجديدة من جانب جدك ! »

فنهضت الفتاة على عجل وأسرعت نحو الباب مغتبطة ، ولكن صوت

ابيها ما لبث ان لاحقها اذ غير رايه فقال : « انتظري .. سأذهب معك ! »

وكان نوارتييه متأهبا للقائهم ، فلما دخل الاشخاص الثلاثة الذين كان ينتظرهم ، نظر الى الباب .. فاغلقه خادمه واذ ذاك همس دي فيلفور في اذن ابنته ، التي عجزت عن اخفاء فرحتها : « اصغي الي .. اذا اراد مسيو نوارتييه أن يتخذ اي اجراء يؤخر موعد زواجك فاني امنعك من أن تفهمي اشارته ! »

واوما نوارتييه الى فالنتين كي تقترب ، وادركت هي من أول اشارة أن جدها يريد مفتاحا .. ثم استقرت عيناه على درج في خزانة صغيرة تقع بين النوافذ ، ففتحت الدرج ، ووجدت مفتاحا ، وهنا أدار الشيخ المشلول عينيه نحو منضدة مكتب صغيرة مهملة منذ سنوات ، بحيث ما كان أحد ليعتقد انها تضم اوراقا ذات قيمة ... ففتحتها الفتاة واخرجت منها حزمة من الأوراق مربوطة برباط اسود ، تناولها فرانز وقرأ على غلافها هذه العبارة : « تسلم عقب وفاتي الى الجنرال « دوران » ، الذي سوف يوصي بالحزمة الى ابنه بعد أن ينبهه الى ضرورة المحافظة عليها باعتبارها تضم مستندات هامة ! »

ثم فض فرانز الحزمة وقرأ بصوت مسموع وسط سكون الحجرة : « صورة من محضر جلسة نادي أنصار بونابرت الكائن بشارع سان جاك ، يوم ٥ فبراير سنة ١٨١٥ »

وعندئذ توقف فرانز عن القراءة وقال : « ٥ فبراير سنة ١٨١٥ .. انه اليوم الذي قتل فيه ابي ! »

فلم ينبس دي فيلفور أو فالنتين بكلمة ، بينما اوما الشيخ المشلول الى الشاب كي يواصل القراءة .. لكن هذا قال وكأنه يحدث نفسه : « لقد اختفى أبي عند مغادرته هذا النادي ! » .. فلما استحثته عين المريض ، قرأ :

« يعلن الموقعون على هذا المحضر انهم قد تلقوا يوم ٤ فبراير خطابا من جزيرة (البا) يوصي بأن يضم النادي الى عضويته (الجنرال فلافيان دي كينيل) الذي خدم الامبراطور من سنة ١٨٠٤ الى ١٨١٤ وما زال يخص بعواطفه أسرة نابليون ، بغض النظر عن لقب البارون وضيعة دابيناي اللتين منحه اياهما لتوه الملك لويس الثامن عشر !.. ومن ثم طلب المجتمعون الى المرشح الجديد أن يحضر الجلسة التي تعقد في اليوم التالي – ٥ فبراير – فلما حضر بدأ الحاضرون يستجوبونه عن عواطفه السياسية ، لكنه اكتفى بالقول انها واضحة من الخطاب المرسل من جزيرة البا .. فحاول الرئيس اغراءه بأن يتكلم بمزيد من الوضوح والتحديد .. وحين شدد المجتمعون عليه الخناق قال : (لم تمض أيام على اعلاني ولائي للملك لويس الثامن عشر ، بحيث يصعب على أن احنث بعهدي فانضم الى الامبراطور السابق !) .. وكان الرد من الوضوح بحيث لا يدع مجالا للشك في حقيقة

عواطف الرجل .. فنهض الرئيس وقال يخاطب الجنرال : « سيدى ان كلامك يدل بوضوح على أن سلطات جزيرة البا خدعت فيك وخدعتنا ، ونحن لن نجبرك على أن تساعدنا ضد ضميرك . لكننا سنرغمك على ان تتصرف تصرفا كريما !) . فأجاب الجنرال : (تقصدون أن اقف على مؤامراتكم ولا ابلغ عنها ؟ انى اسمى هذا اشتراكا معكم فيها .. وهكذا ترون انى اكثر صراحة منكم !) .. فأجابه الرئيس : (ان أحدا لم يرغمك على حضور هذا الاجتماع ، وانت من الفطنة بحيث تدرك موقفنا الحالى . وصراحتك تملى علينا الشروط التى ينبغى ان نفرضها عليك !) .. فنظر الرجل فيما حوله فى قلق ثم تذرع بكل صلابة وقال : (اننى لن اقسم يمين الولاء) .. وعندئذ قال له الرئيس فى هدوء : (اذن يجب أن تموت !) .. ونهض الرئيس فأشار الى ثلاثة من الأعضاء كى يتبعوه ، ثم ركب الجميع العربة مع الجنرال بعد ان عصبوا عينيه .. حتى بلغوا ذلك الجزء من رصيف (أورم) الذى يقود سلمه الى النهر ، وهناك وضع المصباح على الارض ووقف الخصمان متواجهان .. ثم بدأت المبارزة .. وبرغم ان الجنرال دبيناى كان من أبرع رجال الجيش فى المبارزة ، فانه سقط ميتا بعد خمس دقائق .. وعندئذ ألقيت جثته فى النهر وعاد الشهود من حيث اتوا . وهكذا يتبين أن الجنرال مات فى مبارزة شريفة وليس فى كمين غادر كما اشيع ، وقد حررنا هذا المحضر وذيلناه بتوقيعاتنا اثباتا لهذه الحقيقة خشية أن يجىء اليوم الذى يتهم فيه أحد ظلما بقتل الرجل عمدا او بخرق قواعد الشرف وأصول المبارزة التوقيعات : بوربير .. ديشامبى .. ليشاربال »

وهنا قال ديبيناى يحدث نوارتييه : « سيدى ، ما دمت على علم بكل هذه التفصيلات التى يقرها شهود شرفاء ، وما دمت تهتم بأمرى — برغم انك اظهرت هذا الاهتمام فى صورة عكسية سببت لى مزيدا من الاسى — فلا تضن على باجابة مطلب واحد أخير . اذكر لى اسم رئيس ذلك النادى ، حتى اعرف على الاقل اسم قاتل ابى »

ثم التفت الى فالنتين وقال لها : « آنستى ، ضمى جهدك الى جهدى كى نكتشف اسم الرجل الذى جعلنى يتيما فى سن الثانية من عمرى ! »

لكن فالنتين بقيت جامدة صامتة ، بينما نظر نوارتييه الى القاموس ، فتناوله فرانز وهو يرتجف فى عصبية وراح يكرر على مسمع المريض جميع الحروف الأبجدية على التتابع حتى اوقفه هذا عند حرف « أ » ثم عند حرف « ن » ثم حرف « ا » .. وهى الحروف التى تكون كلمة « انا » .. فهتف فرانز مذعورا : أنت ؟ . انت يا مسيو نوارتييه الذى قتلت أبى ؟ »

فأجاب نوارتييه وهو ينظر الى الشاب نظرة ذات جلال :

— « نعم ! » واذ ذاك تهالك فرانز على مقعد هناك خائر القوى ، بينما فتح دى فيلفور الباب ولاذ بالفرار ، فقد راودته فكرة اخماد البقية الباقية من الحياة فى قلب الشيخ المسن الرهيب !

فى سوق الرقيق

جلس الكونت دى مونت كريستو وألبرت دى مورسيرف ـ بعد عودتهما من حفلة استقبال فى بيت دانجلر ـ يتناولان الشاى فى صـــالون منزل الـكونت ، ثم تطلع مورسيرف نحو البـــاب الذى كانت تنبعث من ورائه أصوات تشبه أنغام القيثارة .. فقال له الكونت كريستو :

ـ لقد قسم لك يا عزيزى الفيكونت أن تسمع الكثير من الموسيقى هذا المساء .. فانك لم تكد تنجو من بيانو الآنسة دانجلر حتى لاحقتك قيثارة « هايدى » !

فقال ألبرت : « هايدى ؟ » يا له من اسم ساحر ! . هل هناك حقا نساء يحملن اسم هايدى ، فى غير شعر بيرون ؟ »

ـ بلا شك .. ان اسم هايدى اسم نادر فى فرنسا ، لكنه شائع منتشر فى « ألبانيـــا » وجزيرة « ابيروس » ... وقد ولدت وارثة لكنوز لا تعد كنوز « ألف ليلة وليلة » بالقياس اليها شيئا مذكورا !

ـ لابد اذن انها أميرة ؟

ـ أنت على حق ، بل انها من أعظم أميرات بلدها !

ـ اذن كيف صارت جارية لك وهى أميرة عظيمة ؟

ـ انها نتائج الحرب يا عزيزى الفيكونت ، وتقلباتها ونزواتها

ـ وهل اسمها الكامل وشخصيتها سر من الاسرار ؟

ـ هل تعرف تاريخ على باشا والى يانينا ؟

ـ على باشا ؟ .. أوه ، نعم .. انه الوالى الذى كون أبى ثروته وهو فى خدمته

ـ هذا صحيح ، لقد نسيت ذلك .. اذن فلتعلم أن هايدى هى ابنة على باشا من الحسناء « فاسيليكى »

ـ وكيف صارت جارية لك ؟

ـ لقد اشتريتها ذات يوم وأنا مار فى سوق القسطنطينية

ـ هذه مصادفة رائعة .. ولهذه المناسبة هل لى أن أطمع فى أن تقدمنى لها ؟

ـ أقبل ذلك بشرطين : أولهما الا تبوح يوما لأحد بأنى منحتك هــذه

الفرصة ٠٠ والثاني ألا تخبرها قط بأن أباك كان يوما فى خدمة أبيها !

ــ حسنا !٠٠ انى أقبل هذين الشرطين !

جلست هايدى في انتظار زائريها فى الحجرة الاولى من جناحها ، وهى حجرة الاستقبال ٠٠ وكانت عيناها الواسعتان تفيضان دهشة وترقبا ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يسمح فيها الكونت دى مونت‌كريستو لانسان بزيارتها !٠ وكانت جالسة على أريكة فى زاوية من الحجرة ، وقد عقدت ساقيها تحتها على الطريقة الشرقية

وقال ألبرت بالايطالية : « يا مضيفى العزيز ، وسيدتى السنيورة ، اغفرا لى غبائى الظاهر ، فانى جد حائر ٠٠ ومن الطبيعى أن أكون كذلك ، فأنا الآن فى قلب باريس ، ومع ذلك أحس كأنى نقلت فجأة الى الشرق ٠٠ لا كما رأته عيناى ، بل كما رسمه خيالى ٠٠ آه يا سنيورة لو أننى كنت أستطيع أن أتكلم باليونانية ، لكان حديثك الطلى ، بالاضافة الى المناظر الساحرة الخيالية التى تحيط بى ، يمنحنى سهرة ممتعة يستحيل على أن أنساها !

فأجابت هايدى فى هدوء : « انى أعرف قليلا من الايطالية يتيح لى أن أجاذبك الحديث بها ٠٠ واذا كنت مولعا بكل ما هو شرقى فسوف أبذل جهدى كى أتيح لك ما يرضى ذوقك أثناء وجودك هنا ! »

فقال ألبرت للكونت بصوت خافت : « اسمح للسنيورة يا كونت أن تسرد على طرفا من تاريخها ، لقد منعتنى من الاشارة الى اسم والدى على مسمع منها ٠٠ ولكن لعلها تشير اليه من تلقاء نفسها أثناء الحديث ، وأنت لا تستطيع أن تتصور كم يلذ لى أن أسمع اسم أسرتنا تنطق به هاتان الشفتان الجميلتان ! »

وهنا التفت الكونت الى هايدى ، ثم قال لها باليونانية ، وعلى وجهه تعبير آمر : « حدثينا بقصة مأساة أبيك ، ولكن دون أن تذكرى اسم الخائن ولا تفصيل الخيانة ! »

فتنهدت هايدى من قلب مكلوم ، وكست وجهها سحابة من الحزن ٠٠ ثم قالت : « تريدنى اذن أن أسرد تاريخ أشجانى الماضية ؟٠ حسنا !٠٠ كنت فى الرابعة من عمرى حين أيقظتنى أمى فجأة ذات ليلة ، وكنا فى قصر يانينا ، فلم أكد أفتح عينى حتى رأيت عينيها مغرورقتين بالدموع ٠٠ ثم انتزعتنى من الفراش الوثير الذى كنت نائمة عليه ، دون أن تنبس بكلمة ، كى نلوذ بالفرار٠٠وقد قيل لى بعدئذ : ان حامية قصر يانينا التى أضناها العمل المتواصل ، قد استسلمت لخورشيد باشا الذى أرسله السلطان للقبض على أبى ٠٠ وبعد قليل كنا جميعا فى (الملجأ) الذى أعده أبى من

قبل وأطلق عليه اسم «المخبأ» ، بعد أن أرسل الى السلطان كتابا مع ضابط فرنسي كان يوليه ثقته الكاملة ! »

فسألها ألبرت : « ألا تذكرين اسم هذا الضابط يا سنيورة ؟ »

وهنا تبادل الكونت مع هايدى نظرة سريعة لم يلحظها الشاب ، فأجابت قائلة :

ـ لست أذكره الآن ، ولكن اذا تذكرته أثناء حديثنا فسوف أذكره لك!

وهنا كاد ألبرت ينطق باسم أبيه ، لولا أن ذكره الكونت بوعده السابق باشارة تحذير بسبابته ، فلاذ بالصمت •• بينما استأنفت الفتاة كلامها فقالت :

ـ كان المخبأ الذى لجأنا اليه جزيرة صغيرة تتوسط احدى البحيرات • وكان هناك كهف تحت الارض فأخذت اليه مع أمي وحاشيتنا من النساء•• وكان في الكهف ستون ألف حافظة تحوى ٢٥ مليون جنيه من الذهب ، ومائتا برميل من البارود بها ثلاثون ألف رطل من البارود !•• والى جوار البراميل وقف وكيل أبي الوفي المفضل « سليم » يحرس الكهف ليل نهار وفي يده حربة مزودة بثقاب دائم الاشتعال •• وكان لديه أمر بأن ينسف الكهف بكل من فيه وما فيه حتى ان كان أبي بداخله في اللحظة التى يتلقى فيها الاشارة المتفق عليها من قبل !

« وذات يوم أرســـل أبي يدعونا اليه ، وكانت أمي قد قضت ليلتها مؤرقة تبكى ، وهي فريسة لأشد حالات التعاسة••فوجدنا الباشا هادئا، ولكن أكثر شحوبا من المألوف••وابتدر أمي قائلا : (تشجعي يا فاسيلكى، فاليوم يصل المرسوم السلطاني الذى يقرر مصيرى •• فاذا كان قد منحني عفوا كاملا فسنعود منتصرين الى يانينا •• أما لو كانت الانبـــاء مريبة ، فينبغي أن نفر الليلة !)

« فقالت له أمي : (وماذا نصنع اذا حال عدونا دون هذا الفرار ؟) •• فأجابها وهو يبتسم : (لا تقلقي بشأن ذلك ، ففي هذه الحالة يتكفل سليم وحربته بحسم الموقف•انهم سوف يسرون برؤيتى ميتا ، لكنهم لن يسروا بأن يموتوا معى !)

« كان ذلك في الســـاعة الرابعة بعد الظهر ، وبرغم أن النهار كان مشرقا في الخارج ، كنا داخل الكهف في ظلمة تامة ، فيما عدا بصيص من الضوء في ركن منها ، ينبعث من حربة سليم •• كان أشبه بنجمة وحيدة في سماء معتمة !•• وفجأة سمعنا صيحات عالية ، تبينا فيها رنين الفرح، وتجاوب الحراس في الخارج باسم الضـــابط الفرنسى الذى أوفده أبي الى السلطان ، فأدركنا جميعا ان الرجل عاد يحمل ردا مرضيا

« وازداد الضجيج ، واقتربت خطوات تهبط السلم الى داخل الكهف ، وأعد سليم العدة لاشعال البارود في حالة حـــدوث ما يستلزم ذلك • وعندئذ ظهر في مدخل الكهف شخص لم يتبين سليم وجهه بسبب الظلام،

فصاح به : (من أنت ؟ ٠٠ حذار أن تتقدم خطوة أخرى !) ٠٠ فأجابه الآخر هاتفا : (عاش السلطان ! ٠ لقد منح جلالته على باشا وزيره عفوا كاملا ٠٠ ولم يرد اليه حياتها وحدها ، بل رد اليه أيضا ثروته وممتلكاته !)

« وهنا سأله سليم : (باسم من تتكلم ؟)

« فأجاب : (باسم سيدنا على باشا)

« فقال له سليم : (اذا كنت قادما من عند علي باشا نفسه ، فأنت تعرف العلامة التي يجب أن تظهرها لي ؟!)

« وقال الضابط : (نعم ٠٠ ها أنذا أحمل اليه خاتمه !) ٠٠ ثم رفع يده فوق رأسه ليظهر العلامة ، لكن المسافة كانت بعيدة والضوء أضعف من أن يسمح لسليم بتمييزها ٠٠ فقال له : (لست أرى ما في يدك ٠٠ ولن أسمح لك بأن تقترب ، بل لن أقترب أنا منك قبل أن تضع الشيء الذي تحمله في الضوء الذي يشع هناك ، ثم تنسحب ريثما أفحصه)

« ووضع الرسول العلامة في المكان الذي عينه له سليم ، ثم انسحب ٠٠ فاقترب سليم من المكان ، وتناول العلامة وتأملها مليا ثم قبلها وهتف قائلا : (انها هي ٠٠ انها خاتم سيدى !) ٠٠ ثم ألقى الشعلة من يده وداسـها بقدمه فأطفأها ! ٠٠ وعندئذ أطلق الرسول صيحة ظفر وصفق بيديه ٠٠ وسرعان ما ظهر فجأة أربعة من جنود (خورشيد) وسقط سليم على الفور مصابا بخمس طعنات ثم تقدم الضابط والجنود الاربعة والخوف يكسو وجوههم شحوبا ، وراحوا يفتشون أنحاء الكهف ليستوثقوا من زوال خطر الحريق والانفجار ٠٠ وعندئذ انقضوا على حقائب الذهب ينهبونها !

« وفي تلك اللحظة حملتني أمي بين ذراعيها ، ثم هرعت في سـكون عبر ممرات وسراديب خفية لم يكن يعرفها غيرنا ، حتى وصلت الى سلم آخر يفضي الى مدخل مستقل من مداخل الكهف ، وهناك كانت تسـود المكان ضجة واضطراب شديدان ٠ كان جنود خورشيد يملأون الحجرات السفلى ٠ وفيما كانت أمي توشك أن تفتح بابا صغيرا سمعنا صوت أبي يصيح مهددا فنظرنا من خلال فرجات بين الاخشاب ، واذا أبي يقول لبضعة أشخاص يحمل أحدهم في يده ورقة مكتوبة بأحرف من ذهب : (ماذا تريدون ؟) ٠ فأجابوه : (نريد أن نبلغك ارادة صاحب الجلالة ٠ هل ترى هذا الفرمان؟ ٠٠ ان جلالة السلطان يطلب رأسك فيه!) ٠٠ وأطلق أبي ضحكة مدوية مخيفة، ثم أطلق مسدسة فصرع اثنين من الجنود ٠٠ وفي هذه اللحظة بدأ اطلاق النار من الجهة المقابلة . واخترقت الرصاصات الحوائط من كل جانب ، ورغم ذلك بدا أبي جليل المظهر وهو يكر على خصومه فيفزعهم ويلجئهم الى الفرار ، وكان في الوقت نفسه يصيح بحارسه : (سليم ! ٠٠ سليم ! ٠٠ أد واجبك!) ٠٠ فأجابه صوت كأنه صادر من جوف الارض : (لقد مات سليم ، وأنت قد ضعت يا علي !) ٠٠ وفي هذه اللحظة نفسها دوى المكان بانفجار قوى ، وتناثرت أرض الحجرة التي كان فيها أبي . وكان الجنود يطلقون النار من

أسفل)٠٠ وعندئذ مد أبي أصابعه وهو يزأر بشـــدة الى الثغرات التى أحدثتها الطلقات فى أرض المكان وانتزع واحدا من الالواح الخشبية ٠ وعلى الفور انطلقت من جوف الارض عشرون طلقة قوية وتدافعت ألسنة اللهب كأنما يقذف بها بركان فالتهمت محتويات الغرفة ٠٠ وخلال هذا الضجيج المروع والصرخات المفزعة انطلقت طلقتان واضحتان تبعتهما صرختان حادتان جعلتا الدم يتجمد فى عروقى ٠٠ فقد أصابتا أبى ، ورغم ذلك ظل واقفا ، متشبثا بالنافذة ٠٠ بينما حاولت أمى اقتحام الباب ، كى تموت بجانبه ، لكنه كان مغلقا من الداخل ٠٠!

« وهنا تداعت فجأة أرض المكان بأكملهـا ، فسقط أبى على احـــدى ركبتيه ، وفى اللحظة عينها امتـــدت نحوه عشرون يدا مسلحة بالخناجر والمسدسات ٠٠ عشرون هجمة ركزت كلها ضد شـــخص واحد ، فاختفى والدى وسط اعصار من النار والدخان ، حتى لكأن الجحيم قد فغر فاه تحت قدميه ٠٠ وشعرت بنفسى أسقط الى الارض ، بينما أغمى على أمى!٠٠ وحين أفاقت من اغمائها كنا نمثل أمام خورشيد ، فهتفت به أمى : (اقتل ، ولكن أبق لأرملة على باشا شرفها !) ٠٠

« فأجابها : (لست أنا الذى ينبغى أن تلجئى اليــــه ٠٠ بل ينبغى أن تلجئى الى سيدك الجديد !) ٠٠ قال هذا وهو يشير الى شخص بجانبه كان قد ساهم أكثر من سواه فى قتل أبى ! »

ولاحظ ألبرت أن هايدى ازدادت لهجتها حدة وهى تنطق بهذه العبارة٠ ثم استطردت فقالت :

ـــ على أن هذا الشخص لم يجرؤ عـلى الاحتفاظ بنا ، وهكذا باعونا الى بعض تجار الرقيق المسافرين الى القسطنطينية ، فعبرنا بلاد اليونان حتى وصلنا الى أبواب عاصمة السلطان ونحن بين الموت والحياة ٠ وكانت تحيط بالبوابة جمهرة من الناس أفسحت لنا طريقا لنمر ٠ وفجأة حانت من أمى نظرة الى شىء كانوا جميعا يتأملونه ، فأطلقت صرخة مروعة وسقطت عـلى الارض وهى تشير الى رأس كان معلقا فوق البوابة ، وتحته لوحة كتب فيها (رأس على باشا والى يانينا)

« ولم أكد أقرأ ما فى اللوحة حتى صرخت فى مرارة ، وحاولت أن أرفع أمى عن الارض ، لكنها كانت جثة هامدة !٠٠ ومن ثم أخذت الى ســـوق الرقيق حيث اشترانى ثرى أرمنى تولى تعليمى وتثقيفى فأحضر لى المعلمين والاساتذة ، فلما بلغت الثالثة عشرة باعنى الى السلطان « محمود »

وسكتت هايدى ، فقال الكونت متمما قصتها : « ومنه اشتريتها أنا ! »

أما البرت فبقى بعض الوقت مأخوذا مشدوها من كل ما سمع ، الى أن قال له الكونت : « هيا ، أفرغ قدح القهوة الذى أمامك ٠٠ فقـــد انتهت القصة ! »

شراب قاتل !

لو أتيح لفالنتين أن ترى اضطراب خطوات فرانز والانفعال الذى بدا على وجهه حين غادر حجرة مسيو نوارتييه ، لأشفقت عليه ، برغم كل شيء !

وكان دى فيلفور قد غمغم ببضع عبارات متقطعة ثم انسحب الى حجرة مكتبه ، حيث تلقى بعد ساعتين الخطاب التالى : « بعد الامور التى انكشفت هذا الصباح ، لابد أن يقدر مسيو نوارتييه دى فيلفور استحالة عقد أى صـــلة بين أسرته وأسرة فرانز ديبيناى . وانه ليدهش مسيو ديبيناى ويصدمه أن مسيو دى فيلفور ــ الذى ظهر أنه كان عـلى علم بكل الظروف التى انكشف أمرها هذا الصباح ــ لم يبادر الى اخطاره بها قبل الآن ! »

وفى اليوم التالى دعا نوارتييه مسجل العقود وجعله يلغى الوصية الاولى ويسجل بدلا منها وصية أخرى يترك فيها كل ثروته لحفيدته فالنتين، بشرط ألا تنفصل عنه مدى حياته .. وعندئذ شـاع فى كل مكان أن الآنســـة دى فيلفور وريثة المركيز والمركيزة دى سان ميران ، قد اســـتردت رضا جدها ، وأنها سوف تصبح ذات ايراد يبلغ ثلاثمائة ألف ريال

وفى الساعة التاسعة من ذلك الصـــــباح ارتدى ألبرت دى مورسيرف سترة سوداء ومضى فى خطوات سريعة مضطربة فى اتجاه دار الكونت دى مونت كريستو فى الشانزلزيه .. وفيما هو يعبر شارع « ممر الأرامل » رأى عربة الكونت واقفة أمام حانوت لأسلحة الرماية هنـــاك ، ثم خرج الكونت فى هذه اللحظة من الحانوت فابتدره الشاب من دون أن يؤدى له التحية المفروضة : « انى سوف أبارز اليوم ، وقد جئت أرجو منك أن تكون شاهدى ..! »

فأجابه الكونت : « هذه مسألة أخطر من أن تناقش فى الطريق..فلندع الحديث فيها حتى نصل الى البيت ! »

ثم استقل كلاهما عربة الكونت الى منزله فبلغاه بعد دقائق .. وهناك أخذ الكونت ضيفه الى حجرة مكتبه .. وبعد أن جلسا قال له : « فلنتحدث الآن فى الأمر بهدوء .. من الذى تعتزم مبارزته ؟ »

ــ بوشان .. فقد نشر فى صحيفته فى الليلة الماضية .. ولكن انتظر واقرأ بنفسك ..

وأعطى ألبرت الصحيفة للكونت ، فقرأ فيها الفقرة التالية : « تلقينا من مراسلنا فى يانينا ما يكشف الستار عن حقيقة كنا نجهلهـا حتى الآن ،

وهي أن القلعة التي كانت تحمي المدينة قد سلمت الى الاتراك بواسطة ضابط فرنسي يدعى (فرناند) كان الوالي علي باشا قد وضع فيه ثقته الكاملة ! »

وقال له الكونت بعد أن أتم القراءة : « ماذا يهمك من أن قلعة يانينا سلمت بواسطة ضابط فرنسي ؟ »

فقال البرت : « ان أبي الكونت دي مورسيرف هو الضابط المقصود ، فان اسمه الاول فرناند ! »

فقال الكونت مهدئا ثائرة الشاب : « ما أظن أن في فرنسا من يعرف أن الضابط فرناند والكونت دي مورسيرف اسمان لشخص واحد ؟٠٠ ثم من ذا الذي يعني الآن بقلعة يانينا وقد سقطت سنة١٨٢٢ أو سنة ١٨٢٣؟٠٠ ولم يعد أحد يذكر عن ذلك شيئا بعد مضي هذا الوقت الطويل ؟ »

ولكن الشاب بقي ثائرا وقال : « هـذا يدل على حقارة الفرية ٠ لقد سكتوا كل هذا الوقت ثم جاءوا الآن فجأة فبعثوا الحوادث التي كانت قد نسيت ليتخذوها مادة للفضيحة يلطخون بها مركزنا الرفيع ٠٠ اني ذاهب الى (بوشمان) الذي نشرت صحيفته هـذا النبأ وسوف أصر على مطالبته بتكذيبه ! »

وتناول مورسيرف قبعته وغادر الغرفة الى حيث استقل عربته واتجه بها فورا الى مكتب الصحفي بوشان ٠ فاستقبله هـذا مرحبا وهو يطلق صيحة دهشة لرؤية صديقه يقذف بالصحف التي على المكتب الى الارض ويدوسها بقدمه في انفعال ٠٠ بينما استمر هو يصيح به وهو يمد يده لمصافحته « هيه ، هيه ، يا عزيزي البرت ، هل فقدت وعيك ؟ أم هل جئت لتتناول الافطار معي ؟ »

فاجابه الشاب : « بوشان ، لقد جئت أحدثك في شأن نبأ نشرته صحيفتك أمس وينبغي أن تكذبه فورا٠ولكن يبدو أنك تجهل تماماعلاقتي بهذا الخبر »

ـ هذه هي الحقيقة وأقسم بشرفي

ثم أخذ بوشان يبحث عن نسخة من الصحيفة ، فقال له البرت : « اليك نسختي فقد أحضرتها معي ! »

فتناول بوشان الصحيفة وقرأ النبأ الذي أشار اليه صديقه ، فلما فرغ من ذلك سأله : « هل الضابط المشار اليه قريبك ؟ »

ـ انه أبي ، مسيو فرناند مونديجو ـ الكونت دي مورسيرف ـ الذي حارب في عشرين معركةوحصل على أوسمة الشرف،من الجروح والاصابات التي يحاولون الآن اعتبارها وصمات عار !

فهز بوشان رأسه أسفا وقال :

ـ أهو والدك ؟٠ هذا أمر آخر !٠ في هذه الحالة أستطيع أن أفهم سبب

غضبك يا عزيزى البرت . لكن الخبر المنشـــور ليس فيه ما يدل على أن الضابط فرناند هو والدك !

فقال البرت وقد اســـتبد به الغضب والحنق : « سوف أرســل اليك شهودى ، ولك أن تتفق واياهم على مكان اللقاء وموعده ونوع السلاح ! »

فقال : « حسنا !.. انني أقبل أن أبارزك ، لكنني أطلب مهلة قدرها ثلاثة أسابيع ، وسوف أجيئك في نهايتها لأقول لك : (لقـــد كان النبأ كاذبا وسأكذبه) .. أو لأقول : ان الخبر المنشور لا شك في صحته .. ثم أستل سيفي من غمده أو مسدسي من جرابه — حسبما تشاء — لأبارزك ! »

فصاح البرت وهو ينهض لينصرف : « ثلاثة أسابيع !.. انها سوف تمر كأنها ثلاثة قرون ! »

وقبل أن يغادر مكتب بوشان ، صب غضبه على كومة من الصحف راح يطوح بها في أرجاء الغرفة بعصاه !

وفيما هو في عربته لمح مكسمليان موريل يســير في الطريق بخطى سريعة ونظرة مشرقة ، فحدث نفسه قائلا : « انه لسعيد ولا شك ! »

ولم يخطىء في رأيه ، فقد كان مكسمليان سعيدا جدا في تلك اللحظة ، اذ كان في طريقه الى مسيو نوارتييه الذى أرسل يدعوه لسبب لا يعلمه!.. وحين وصل الى الدار أدخله الخادم باروا من مدخل خاص ، ثم أغلق عليه باب حجرة سيده ، وسرعان ما سمع الشاب حفيف ثوب يعلن قدوم فالنتين .. وابتدرته الفتاة قائلة :

— مسيو موريل .. لقد اعتزم جدى أن ينتقل من هذا البيت ، وقد شرع باروا يبحث له عن مسكن ملائم !

فسألها : « وماذا تفعلين أنت يا آنسة دى فيلفور ، وهو لا غنى له عنك؟»

فأجابت بقولها : « انى لن أترك جدى ! هذا شيء مفهوم فيما بيننا ، ولسوف يكون مسكنى قريبا من مسكنه .. واذا وافق أبى على ذلك فسوف أترك البيت على الفور . أما اذا لم يوافق فسوف أضطر الى الانتظار حتى أبلغ سن الرشد بعد نحو عشرة شهور ، وعندئذ أغدو حرة وتكون لى ثروة مستقلة أستطيع بفضلها ، وبموافقة جدى ، أن أنجز وعدى لك ! »

ثم التفتت الى جــدها وقالت له : « هل أحسنت التعبير عن رغبتك يا جداه ؟ »

فأومأ المشلول موافقا ، بينما هتف الشاب وقد استبدت به رغبة في أن يجثو على ركبتيه خاشـــعا أمام نوارتييه وفالنتين : « رباه ماذا فعلت في دنياى كى أستحق كل هذه السعادة ؟! »

وأشار نوارتييه الى ابريق يحوى شراب الليمون وبجانبه كأس فارغة ، وكان الابريق مملوءا حتى آخره تقريبا ، باستثناء القدر الذى شربه منـــذ حين .. فقالت فالنتين للخادم الوفى : « هيا يا باروا ، خذ بعض هـــذه

« الليمونادة » فاني أراك تشتهيها ! »

فأجاب باروا : « أعترف يا آنستي بأني أكاد أموت ظمأ ، وما دمت قد تعطفت فأذنت لى فى ذلك فلسنت أزعم انى سأمانع فى أن أشرب قليلا منها، نخب صحتك ! »

وفيما كانت فالنتين ومكسمليان يتبادلان تحيةالوداع فى حضور جدهما، سمعا جرس الباب الخارجى يدق ، فنظرت الفتاة الى ساعتها •• وفى هذه اللحظة دخل باروا ، فسألته فالنتين : « من القادم ؟ »

فأجاب الخادم وهو يكاد يترنح كمن يوشك أن يسقط : « انه الدكتور دافريني ! »

واذ ذاك سألته سيدته : « ماذا بك يا باروا ؟ » •• لكنه لم يجب ، بل حملق فى سيده بعينين جاحظتين ، وهو يستند بيده الى قطعة من الاثاث كي يتجنب السقوط !••

وازدادت حدة الاعراض التى بدت على الخادم بالتدريج ، فاستدار وخطا بضع خطوات ثم سقط عند قدمى نوارتييه

وفى هذه اللحظة أقبل مسيو دى فيلفور على صوت الضجيج •• بينما صاحت فالنتين بزوجة أبيها وهى تصعد السلم لملاقاتها : « تعالى بسرعة ، وأحضرى معك زجاجة الاملاح المنبهة ! »

فأجابتها السيدة دى فيلفور فى صوت خشن غاضب وهى تهبط السلم وقد أمسكت باحدى يديها منديلها تمسح به وجهها،وأمسكت باليد الاخرى زجاجة الاملاح المنعشة : « ماذا حدث ؟ » •• واتجهت بنظرتها الاولى لدى دخولها الغرفة نحو نوارتييه ، الذى كان وجهه – باستثناء الانفعال الذى لابد يحدثه فيه مثل هذا الحادث – ينم عن اكتمال العافية !•• وعندئذ نقلت المرأة بصرها الى الخادم المحتضر ، فشحب وجهها على الفور وعادت تنظر الى سيده ••!

وفى أثناء ذلك هتفت فالنتين بمكسمليان : « اذهب أنت بأسرع ما تستطيع ، وابق حيث أنت حتى أرسل فى طلبك •• اذهب ! »

ونظر الشاب الى نوارتييه مستأذنا فى الانسحاب ، فمنحه العجوز اذنه وهو محتفظ بهدوئه المألوف ، فقبل الشاب يد فالنتين مودعا ، ثم غادر المنزل عن طريق السلم الخلفى •• وفى اللحظة التى ترك فيها الحجرة دخلها فيلفور والطبيب قادمين من باب آخر ، وكان الخادم المصاب يبدو كأنما استرد بعض وعيه ، فاشترك الرجلان فى حمله الى أريكة مريحة ••وهتف دى فيلفور :

– انظر ، انظر يا دكتور••ها هو ذا يعود الى رشده ثانية ، انى لا أعتقد فى الواقع أنه أمر ذو بال ! »

فأجابه الطبيب بابتسامة ساخرة وهو يستجوب المريض الذى أفاق :

« بماذا تشعر يا باروا ؟ .. ماذا أكلت اليوم ؟ »
فأجاب باروا . « لم آكل بعــد ، وانما شربت قدحا من شراب الليمون الذي يخص سيدى ! »
ــ وأين هذا الشراب ؟
ــ لقد أعدته منذ لحظات الى المطبخ !
فهرع الطبيب نحو السلم الخلفي المؤدى الى المطبخ ، وكاد أثناء اندفاعه يصطدم بالسيدة دي فيلفور التي كانت بدورها متجهة الى المطبخ،فصاحت تستوقفه . لكنه لم يعبأ بها وهبط الدرجات الأربع الباقية في قفزةواحدة ثم اقتحم المطبخ فوجد الابريق وقد بقى فيه نحو ربع الشراب ، فأخذه فى يده وعاد الى الغرفة التي كان فيها ، وأثناء عودته صادف السيدة فيلفور صاعدة الى عرفتها في خطوات بطيئة !
وسأل الطبيب الخادم المصاب : « هل هذا هو الابريق الذى شربت منه؟»
فأجابه : « نعم »
وصب الطبيب قطرات من الشراب فى راحة يده ثم تذوقها وبصقها في المدفأة..بينما صاح به باروا : « أغثنى يا دكتور ، النوبة ستعود ثانية »
فاجابه الطبيب : « كلا أيها الصديق !. انك لن تلبث أن تستريح »
فقال الخادم التعس : « آه ، انى أفهم ما تعنيه ، يا الهى ، ارحمنى ! »
ثم أطلق صرخة مروعة وسقط على ظهره كأنما أصابته صاعقة!..فجذبه الطبيب من ابطيه الى غرفة مجاورة ثم عاد ليأخــذ ابريق شراب الليمون وقال مخاطبا دى فيلفور : « تعال هنا »
وحين جلسا في الغرفة التى رقد فيها المصاب سأله دى فيلفور :
ــ هل النوبة مستمرة يا دكتور ؟
فأجاب : « بل انه قد مات .. لكن هذا ينبغي ألا يدهشك ، فقد سبقه كل من المركيز والمركيزة سانت ميران الى مثل هذا المصير العاجل الغريب!»
فصاح هذا فى رعب وفزع : « ماذا ؟.. أما زلت تحوم حول تلك الفكرة الرهيبة ؟ »
فأجابه الطبيب : « نعم يا عزيزى ، وسوف أظل كـذلك دائما ، فان الفكرة لم تبرح ذهنى لحظة واحدة .. ولكي تكون على ثقة من أنى لم أخطىء هذه المرة ، أرجو أن تصغى جيدا لما سأقول : هناك نوع من السموم يقتل دون أن يخلف أثرا،وأنا أعرفه جيدا وقد درسته في جميع أشكاله ووسائل تركيبه وآثاره .. وقد تبينت وجود هذا السم فى حالة باروا التعس ،كما تبينته فى حالة المركيزة دى سانت ميران ، وسوف أجزم بذلك أمام الله والناس ! »
فلم يجب فيلفور بكلمة ، واكتفى بأن ضم يديه وفتح عينيه الجاحظتين ثم غاص فى أقرب مقعد ..!

الأنتقام الالهى

انطلق الكونت دى مونت كريستو في طريقه الى داره الريفية في «أوتوى» يصحبه تابعه « علي » وبعض خدمه الآخرين ، كما أخذ معه بعض جياده الجديدة ليستوثق من قدرتها

وبعد حين دخل عليـــه خادمه « بابتستين » يحمل خطابا على طبق من الفضة ، وقدمه له قائلا : « رسالة هامة عاجله ! »

ففض الكونت الخطاب ، وقرأ فيه : « يهمني أن أنبه الكونت دى مونت كريستو الى أن رجلا سيتسلل الليلة الى بيته فى الشانزلزيه بغية سرقة بعض الاوراق الهامة المفروض أنها فى منضدة مكتبه الصغير »

وكان أول خاطر جال بذهن الكونت لدى قراءة الرســـالة انها خـدعة مكشوفة يراد بها تحويل انتباهه الى خطر تافه في ســبيل تعريضه لخطر أعظم !٠٠ فكاد يبلغ الأمر الى البوليس ، برغم نصيحة كاتب الخطاب ٠ ثم خطر له أن السارق المجهول قد يكون خصما شخصيا له ، فحدث نفسه : « انه لا يريد أوراقي ، بل يريد قتلي٠٠انه ليس سارقا ، وانما هو قاتل !»

واذ ذاك نادى خادمه «بابتستان» وقال له : « عد الى باريس حالا واجمع خدمي جميعا وأحضرهم الى هنا ! »

ثم أعرب الكونت عن رغبته في أن يتناول طعامه وحده والا يخدمه خلاله غير تابعه « علي » ٠٠ واذ فرغ من تناوله ، بهدوئه واعتـــداله المأثورين ، أشار الى « علي » كي يتبعه ، ثم خرج من باب جانبي فاستقل عربته الى غابة بولونيا ، وهناك استدار ــ دون خطة مرسومة ــ نحو طريق باريس٠٠فلما حان الغروب وجد نفسه تجاه داره في الشانزلزيه !

ودلف الى مخدعه ، ثم أشار الى علي كي يقف هناك ، ومضى هو وحده الى غرفة الزينة ففحصها بدقة،ووجد كل شيء فيها كما تركه ، ومنضدةالمكتب الثمينة في مكانها ، والمفتاح على درجها٠٠فاغلقه بعناية وأخذ المفتاح عائدا الى باب المخدع ففتح مزلاجه المزدوج ودخل ٠٠ وفى أثناء ذلك كان « علي » قد جهز الاسلحة التي طلبها الكونت ، فتسلمها منه ثم وقف خلف نافذة من نوافذ المخدع موازية لنافذة غرفة الزينة ومطلة على الشارع

وانقضت ساعتان على هـــذا المنوال ، ودقت ســاعة الانفاليد مؤذنة بانتصاف الليل٠ولم يكد صدى الدقة الاخيرة من دقاتها يتلاشى حتى خيل الى الكونت أنه سمع صوتا خفيضا صادرا من حجرة الزينـــة ثم تكرر

الصوت مرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة .. وعندئذ أدرك الكونت أن يدا بارعة ذات خبرة تحاول كسر زجاج النافذة بماسة !.. وكانت تلك النافذة مواجهة للفتحة التي يستطيع الكونت أن يرى خلالها ، من مكانه ما يجرى في غرفة الزينة .. ومن ثم ركز بصره على النافذة ، فرأى في الظلام شبحا يمد يده من خلال الثغرة التي فتحها في الزجاج فيفتح النافذة ، من الداخل ثم يثب منها الى الغرفة .. فهمس الكونت : « يا له من جرىء ! »

وفي تلك اللحظة لمس « على » كتف سيده ، مشيرا له من خلال النافذة المطلة على الطريق ، الى شخص يقف في الشارع فهمس الكونت : « اذن .. هما شخصان . أحدهما يتسلل الى البيت والآخر يراقب مدخل الدار ! »

ثم أوصى على بألا يدع الشريك الذى في الشارع يغيب عن بصره ، واستدار هو ليرقب الشخص الذى دخل حجرة الزينة .. فرآه يتجه الى منضدة المكتب ويحاول فتحها بطائفة من المفاتيح المصطنعة مستعينا على اختيار المفتاح المناسب بضوء (بطارية) ما لبث ضوؤها الشاحب أن وقع على وجهه ويديه ، فحدث الكونت نفسه قائلا وهو يتراجع : « يا الهى ! »

وفي تلك اللحظة لمح الكونت تابعه « على » يرفع في يده آلة حادة أشبه بالفأس فهمس له : « لا تتحرك ، ودع فأسك ، فلن يحوجنا الأمر الى سلاح ! »

ثم همس له ببضع كلمات أخرى ، مضى هذا على أثرها دون أن يحدث صوتا ثم عاد بعد حين يحمل رداء أسود وقبعة مثلثة الأركان !.. وفي أثناء ذلك كان الكونت قد خلع سترته وصداره وقميصه ثم ارتدى درعا من الفولاذ وفوقه رداء رجال الدين الكهنوتى الاسود ، وأخفى شعره تحت جمة من الشعر المستعار كالتي يرتديها القساوسة ، وحين وضع فوقها القبعة المثلثة الاركان تحول الكونت في لحظة الى قسيس !.. ثم أخرج من أحد الادراج شمعة أضاءها .. وفيما كان اللص مستغرقا في محاولة فتح القفل فتح الكونت الباب دون صوت وهو يحمل الشمعة بحيث يقع ضياؤها مباشرة على وجهه .. فذعر اللص بينما قال له الكونت :

ــ طاب مساؤك يا عزيزى كادروس .. ماذا تفعل هنا في هذه الساعة ؟

فهتف كادروس في دهشة وذعر : « الأب بوزونى ؟! » .. وأفلتت يده المفاتيح فسقطت على الارض ، وراح يتطلع حواليه باحثا عن وسيلة للهرب ، فلاحقه الكونت قائلا : « أرى أنك ما زلت كما عهدتك دائما : قاتلا !.. ألم تقتل الجوهرى الذى ابتاع منك الماسة التي أعطيتك اياها ؟.. »

فأجاب في صوت مرتجف : « نعم ، هذا صحيح يا سيدى القس ! »

فعاد يسأله : « من الذى أخرجك من السجن ؟ »

فأجاب : « اللورد ويلمور ! »

فسأله « : أكان ذلك الثرى الانجليزى يتولى حمايتك ؟ »

فأجاب : « لا .. لم يكن يحميني أنا ، بل كان يحمي شابا كورسيكيا

كان زميلي في السجن يدعى « بنديتو » ·· وقد صار هذا الشاب الآن ابنا لثري عظيم هو الكونت دي مونت كريستو الذي نحن في بيته الآن ! »

فقال له الكونت وقد أخذه العجب هو الآخر :

ـ بنديتو صار ابنا للكونت دي مونت كريستو ؟! ·· كيف كان ذلك ؟

فقال كادروس : « أعتقد ذلك ، فان الكونت قد اوجد له أبا زائفا، وصار يعطيه راتبا شهريا قدره أربعة آلاف فرنك ، فضلا عن نصف مليون فرنك تركها له في وصيته ! »

فقال الكونت وقد بدأ يفهم : « ما هو الاسم الذي يحمله ذلك الشاب الآن ؟ ·· أتعني أندريا كافالكانتي ذلك الشاب الذي استقبله صديقي الكونت دي مونت كريستو في منزله، والذي سيتزوج من الآنسة دانجلر ؟ »

فأومأ كادروس موافقا ، بينما واصل الكونت كلامه قائلا :

ـ كيف تصدق ذلك أيها التعس ، وأنت تعرف حياته وجرائمه ؟

فقال : « لم أشأ أن أقف عقبة في سبيل صديق من زملائي ! »

فرد عليه الكونت قائلا : « أنت على حق ، واذن ·· سأتولى أنا لا أنت ابلاغ هذه الحقيقة الى البارون دانجلر ·· سأكشف له كل شيء ! »

وغمغم كادروس قائلا : « انك لن تفعل مثل هذا يا سيدي القس ! »

وفي مثل لمح البرق ، استل كادروس خنجره وطعن به الكونت في صدره ! · وشد ما كان عجبه وفزعه حين ارتد الخنجر مكسورا بدلا من أن يثقب صدر القس المزعوم · وفي اللحظة نفسها قبض الكونت بيسراه على معصم كادروس وضغط بقوة جعلت الخنجر يسقط من بين أصابعه المتقلصة · فأطلق صرخة ألم حادة ، لكن الكونت استمر يضغط معصم الشقي حتى اضطره الى أن يرتمي على الارض وهو يتأوه ·· وعندئذ وطأ الكونت رأسه بقدمه قائلا : « لست أدري ما الذي يمنعني من أن أسحق جمجمتك ؟! »

فصرخ كادروس : « الرحمة ·· الرحمة ! »

واذ ذاك سحب الكونت قدمه وقال له : « انهض ، خذ هذا القلم والورق واكتب ما أمليه عليك »

فجلس كادروس وقد أذهلته قوة القس الخارقة ، وكتب :

« سيدي ·· ان الرجل الذي تستقبله في بيتك ، والذي تعتزم أن تزوجه لابنتك ، هو قاتل فر معي من السجن المؤبد في طولون ، وقد كان يعرف باسم بنديتو ، وكان رقمه (٥٩) بينما كان رقمي أنا (٥٨) · وهو يجهل اسمه الحقيقي لانه لم يعرف لنفسه أبا ! »

واستطرد الكونت فقال لكادروس : « هيا ·· وقع على الخطاب ·· واكتب العنوان : (الى البارون دانجلر ، المالي الكبير ، شارع دي لاشوسيه دانتان)

فكتب كادروس ما أملى عليه ، وحين فرغ من ذلك صاح به الكونت وهو

يشير الى النافذة : « والآن اغرب عن وجهي .

وحين خرج كادروس من النافذة وبدأ يهبط أدنى الكونت الشمعة منه ، كي يرى من في الشارع أن شخصا كان يمسك الشمعة للص أثناء نزوله! ثم تركه ومضى مسرعا الى مخدعه حيث أطل من نافذته ، فرأى كادروس يسير على الجدار متجها نحو الواجهة الجانبية للبيت - كمن يحاول الهروب من رفيقه الذي ينتظره في أسفل - ثم ينزلق على الانابيب بعد أن استوثق من أن صاحبه لم يره .. لكنه لم يكد يبلغ الارض حتى تلقاه هذا بطعنة حادة في ظهره ، فصاح مذعورا : « النجدة ! »

وعلى أثر ذلك فتح باب الدار الخلفي ، وظهر منه الكونت في ثياب القس ، ومعه على خادمه يحملان مصباحين ، وما لبثا أن نقلا الجريح الى احدى الحجرات حيث فحص الكونت جراحه الفظيعة وقال محدثا نفسه : « يا الهي! . ان انتقامك قد يتأخر أحيانا ، ولكن كي يتم آخر الأمر على أكمل وجه ! »

بينما نظر على الى سيده في انتظار تعليماته ، فقال له هذا : « استدع فورا قاضي التحقيق مسيو دى فيلفور ، وهو يقطن في شارع سانت أونوريه . وعند مرورك بالمسكن أيقظ البواب وأرسله كي يحضر جراحا »

وحين فتح كادروس عينيه مرة أخرى قال للكونت : «لقد خذلني وقتلني بعد أن أعد خطة اقتحام هذا البيت ، آملا بلا شك أن أقتل الكونت فيصبح هو وارثه ، أو أن يقتلني الكونت فيستريح هو مني الى الأبد ! »

فقال له : « تستطيع أن تملي على اعترافك ثم توقع عليه بنفسك ! »

فلمعت عينا الجريح ارتياحا لفكرة هذا الانتقام السريع ، بينما كتب مونت كريستو هذه العبارة : « اني أموت مقتولا بيد الكورسيكي المدعو (بنديتو) رفيقي في سجن تولوز ، رقم ٥٩ » .. ثم أعطى الريشة لكادروس ، فاستجمع هذا كل قواه ووقع عليها .. ثم خر على فراشه وقد بدأ يحتضر

وهنا قال الكونت دى مونت كريستو وهو يقرب الضوء من وجهه : « انظر الى جيدا ! » .. ثم خلع الشعر المستعار وترك شعره الطبيعي يسقط على رقبته .. واذ ذاك هتف كادروس كالمصعوق : « أوه ، لولا شعرك الاسود لقلت انك ذلك الانجليزي ، اللورد ويلمور ! »

فقال له : «كلا ! .. لست اللورد ويلمور ، كما اني لست الأب بوزوني»

ثم اقترب الكونت من الجريح وانحنى فوقه هامسا : « أنا .. أنا » .. ولفظت شفتاه شبه المغلقتين اسما بصوت خافت .. فأجفل كادروس مذعورا وحاول أن يتراجع ، ثم ضم يديه ورفعهما الى أعلى ، وهو يهتف : « أواه يا الهي ! .. اغفر لي أنني أنكرتك .. انك موجود ولا شك » . ثم تنهد تنهدة عميقة وسقط على ظهره . وما لبث أن لفظ نفسه الاخير !

محاكمة فى مجلس الشيوخ

استيقظ « البرت دى مورسيرف » ذات صباح فاذا خادمه يعلن اليه قدوم الصحفى بوشان ، ففرك عينيه وامر خادمه بأن يقود الزائر الى حجرة الاستقبال التى فى الطابق الأرضى .. ثم ارتدى هو ثيابه على عجل وهبط اليه فوجده يذرع الحجرة ذهابا وجيئـة ، ثم توقف حين شعر بدخوله ، فابتدره قائلا :

ـ ان قدومك الى هنا بلا انتظار لزيارتى لك اليوم يبدو فألا طيبا .. فهل ترى استطيع أن اصافحك قائلا : (أعترف يا بوشان بانك قد أسأت الى ، واسترد صداقتى) .. ام انك ستلجئنى الى أن اقترح عليك اختيار السلاح الذى يروقك ؟ !

فقال بوشان : « يا عزيزى البرت .. انى عائد لتوى من (يانينا) وقد كان يسرنى يا صـديقى أن أعتـذر اليك ، لكن ذلك النبأ كان صحيحا مع الأسف ، وذلك الضابط الفرنسى فرناند ، الخائن الذى سلم قلعة الوالى وهو يعمل فى خدمته ، كان بعينه والدك ! .. واليك الدليل فى هذه الورقة ! »

ونشر البرت الورقة التى قدمها له صديقه ، وكانت اقرارا موقعا عليه من اربعة من كبار أهل يانينا البارزين ، يشهدون فيه بأن الكولونيل فرناند موندیجو الذى كان يعمل فى خدمة على باشا والى المدينة قد سلم القلعة مقابل مبلغ مليونى ريال ! وكانت التوقيعات الأربعة صحيحة وشرعية !

ولم يكد البرت يفرغ من قراءة الورقة حتى ارتمى متهالكا على مقعد فى الحجرة ولم يعد لديه أى شك فى أن اسم اسرته قد لطخ بالعار الى الأبد ! وبعد فترة صمت كئيبة طويلة فاض به الحزن فاطلق لدموعه العنان !

ونهض بوشان بعد قليل للانصراف تاركا لألبرت تلك الورقة فتناولها هذا بيد مرتعشة وأحرقها ثم ألقى بها فى النار !

وبعد ثلاثة أيام نشرت صحيفـة أخرى الفقرة التاليـة : « ان الضابط الفرنسى الذى كان فى خدمة على باشا والى يانينا ، وأشارت اليه صحيفة (امبارسيال) منذ ثلاثة أسابيع ، لم تقتصر فعلته على تسليم قلعة المدينة ، بل أنه باع ولى نعمته للأتراك .. وقد كان اسمه وقتئذ فرناند ، لكنه أضاف اليه فيما بعد لقبا من ألقاب النبلاء فصار يدعى الآن الكونت دى مورسيرف ، وبات يعتبر فى مصاف الأمراء ! »

وهكذا بعث السر الرهيب من قبره فجأة كالشبح المخيف .. وفى اليوم

بفسه ثارت ضجة كبرى فى مجلس الشيوخ بين الأعضاء الوقورين بطبعهم ، فحرص كل منهم على أن يصل الى المجلس قبيل الموعد المعتاد ، وتبادل الجميع الحديث فى الحدث المروع الذى سوف يسترعى انتباه الجماهير نحو واحد من زملائهم اللامعين .. وكان بعضهم يعيد قراءة النبأ فى الصحيفة ، والآخرون يعلقون عليه ويذكرون وقائع وملابسات تزيد التهمة توكيدا

وبقى الكونت دى مورسيرف وحده يجهل تلك الأنباء ، فانه لم يكن قد طالع الصحيفة التى نشرتها ، بل انفق الصباح فى كتابة الخطابات وفى تجربة جواد جديد !.. وهكذا وصــل الى دار المجلس فى الموعد المألوف وعلى وجهه سيماه المعتادة من العجرفة والوقاحة ، فهبط من عربته ، ومر خلال ممرات الدار ، ودخل قاعة الجلسة ، دون أن يلاحظ همهمة الحراس أو فتور زملائه نحوه . وكانت الجلسة قد بدأت منذ نصف ساعة ، وأمسك كل عضو فى يده بصحيفة الاتهام .. ولكن كما هى العادة دائما ـ لم يشأ واحد من الأعضاء ان يأخذ على عاتقه مسئولية البدء بالمهاجمة .. وأخيرا نهض عضو له مكانته ـ وكان ألد خصوم مورسيرف ـ فارتقى المنصة فى صرامة توحى باقتراب اللحظة الحاسمة ، ثم بدأ يتلو ما ورد فى الصحيفة .. ولم يتنبه الكونت فى البداية للمقدمة . ولكن لم يكد المتكلم ينطق باسم (يانينا) واسم الكولونيل فرناندو مونديجو حتى شحب وجهه شحوبا مخيفا جعل كل عضو يتوجس شرا وهو يسلط عليه عينيه !

واعقبت تلاوة الاتهام موجة من الضجيج والاضطراب ، والهرج والمرج .. وعلق الجميع اسماعهم بفم المتكلم وهو يعلق على النبأ ويختم كلمته مطالبا بتأليف لجنة تتولى اثبات الاتهام أو دحضه

وبلغ من مفاجأة مورسيرف بهذه الكارثة غير المتوقعة انه لم يحر جوابا ، فلم ينطق بغير بضع كلمات مبهمة وهو ينظر حواليه الى اعضاء المجلس فى ذهول .. فعرض الرئيس اخذ الاصوات ، وأسفر الاقتراع عن الموافقة على وجوب التحقيق .. فسئل المتهم عن المهلة التى يطلبها لتحضير دفاعه ، فأجاب من فوره : « انا اليوم تحت تصرفكم ! »

رالفت لجنة من اثنى عشر عضوا لفحص ادلة الاتهام والنفى ، وتقر ان تبدأ اللجنة عملها فى الساعة الثامنة من ذلك المساء . فطلب مورسيرف الاذن له فى الانسحاب كى يجمع المستندات التى أعدها منذ زمن لمواجهة هذه العاصفة

وفى الموعد المحـــدد اجتمع أعضاء لجنـــة التحقيق ، ودخل الكونت دى مورسيرف يحمل فى يده أوراقا . وكان هادىء الوجه ، حازم الخطى ، مفرط العناية بزيه العسكرى . وفى تلك اللحظة دخل حارس يحمــل خطابا الى رئيس اللجنة ، فقال الرئيس وهو يفض الخطاب ، موجها كلامه الى الكونت دى مورسيرف : « لك ان تبدأ دفاعك يا مسيو مورسيرف »

فقدم الكونت مستندات تثبت ان والى يانيا كان يخصه بثقته الكاملة حتى آخر لحظة ، بحيث انه عهد اليه فى مفاوضة السلطان بشأن حياته أو

موته !.. ثم قدم الكونت الخاتم الذى كان على باشا يختم به أوراقه الرسمية وخطاباته ، وقد أعطاه اياه كي يمكنه من الدخول عليه في اية ساعة بالليل أو النهار ، حتى وهو في جناح الحريم !.. ثم اوضح الكونت كيف أن مفاوضاته مع السلطان بشأن العفو عن الوالي قد فشلت ؛ فلما عاد ليدافع عن ولي نعمته ويدفع عنه الأذى وجده قد مات .. ثم قال الكونت :

ـ لقد بلغ من ثقة على باشا بى انه وهو يودعنى قبيل سفرى عهد الى فى رعاية محظيته المفضلة وابنتها فى حالة وفاته ! »

وكان رئيس اللجنة قد فض الخطاب الذى سلم اليه ، وقرأه باهتمام ، مرة بعد مرة وهو يرمق المتهم بنظرات حادة ، ثم خاطبه قائلا : « انك ذكرت أن والى يانينا عهد اليك فى رعاية ابنته وزوجته ، فماذا تم فى امرهما ؟ »

فأجاب مورسيرف : « مما يؤسف له يا سيدى أن سوء الحظ لاحقنى فى هذا الشأن كما حدث فى مناسبات اخرى ، فحين عدت كانت « فاسيليكى » وابنتها « هايدى » قد اختفتا ، وقد سمعت فيما بعد أنهما سقطتا فريسة لأحزانهما ، وربما لفقرهما .. ولما لم أكن غنيا ، وكانت حياتى معرضة لخطر دائم ، لم استطع مواصلة البحث عنهما ! »

وهنا تجهم وجه الرئيس والتفت الى اعضاء اللجنة قائلا :

ـ ايها السادة .. لقد سمعتم دفاع الكونت دي مورسيرف . وبقى أن نسأله هل يستطيع أن يقدم لنا شهودا يثبتون صحة كلامه »

فأجاب الكونت : « الواقع يا سيدى ، أن جميع الذين كانوا يحيطون بالوالى أو الذين عرفونى فى بلاطه قد ماتوا أو اختفوا »

وهنا استطرد الرئيس فقال :

ـ لعلك ترحب اذن بسماع شهادة شخص يعتبر نفسه شاهدا هاما فى النزاع . انه ولا شك قد جاء ليثبت براءة الكونت .. وهانذا اتلو الخطاب الذى تلقيته منه وهو : « سيدى الرئيس .. فى استطاعتى أن ازود لجنة التحقيق بما يلقى الضوء على مسلك اللفتننانت جنرال الكونت دي مورسيرف فى « ابيروس » ومقدونيا ، فلقد حضرت وفاة على باشا ، واعرف مصير فاسيليكى وهايدى ، ويسرنى أن أضع نفسى تحت تصرف اللجنة ، بل واطالب بمنحى شرف سماع شهادتى .. وسوف أكون فى حجرة الانتظار بالمجلس حين تسلم هذه الورقة اليكم ! »

وبعد خمس دقائق ظهر الحارس ومعه تلك الشاهدة فنظر اليها الكونت دي مورسيرف فى دهشة ورعب .. وابتدرها رئيس اللجنة : « هل كنت شاهدة عيان للأحداث موضوع التحقيق ؟ »

فأجابت الحسناء المجهولة بذلك الصوت العذب الرنان المأثور عن الشرقيات : « نعم ، كنت فى الرابعة من عمرى ، ولكن لما كانت تلك الأحداث وثيقة الصلة بحياتى فقد وعيت جميع تفصيلاتها ! »

فسألها الرئيس : «من أية ناحية كانت الأحداث وثيقة الصلة بحياتك ؟ »

فأجابت : « انني انا هايدى بنت على باشــا والى يانينا من زوجتــه فاسيليكى ! »

فقال الرئيس وهو ينحني لها في احترام عميق : « هل تستطيعين اثبات هذه الصفة التي تدعينها لنفسك ؟

فقالت : « نعم استطيع ذلك .. فهذه شهادة ميلادى موقع عليها من ابى وكبار موظفيه الرسميين ، وهذه شهادة معموديتي ــ فقد انشأتنى أمى على دينها ــ ثم هذا خطاب مختوم من رئيس وزراء مقدونيا وايبيروس .. واخيراً ــ ولعله الدليل الأعظم ــ هذه وثيقة بيعى وبيع أمي الى التاجر الأرمنى (الكوبير) بواسطة الضــابط الفرنسي الذى احتفظ لنفسه ــ فى مساومته الدنيئة مع الباب العالي ــ بزوجة ولى نعمته وابنته ثمنا لخيانته اياه ! .. وقد باعنا بمبلغ أربعمائة ألف فرنك ! »

واخرجت الفتاة الوثائق من حقيبة حريرية كانت تمسك بها تحت نقابها ، ثم سلمتها لرئيس اللجنة !

وغامت على وجه الكونت سحابة من الشحوب المخيف ، واندفع الدم الى عينيه ازاء هذه الاتهامات الفاضحة التى أصغى اليها اعضاء اللجنة واجمين .. بينما ظلت هايدى محتفظة بهدوئها الذى بدا أقسى من كل ثورة ثم شرع المترجم يقرأ بصوت مسموع ترجمة وثيقة البيع ، المكتوبة بالعربية !

ولم ينطق الكونت دي مورسيرف بكلمة اثناء تلاوة هذه الوثيقة ، وقد تجلت تعاسته على وجهه واضحة الخطوط !

وقال الرئيس يخاطب المتهم : « ان الكونت دي مورسيرف يعلم يقينا ان عدالة المحكمة من عدالة الله ، وهى لاتعرف غير وجه الحق ، وعلى هذا لن تدع خصومك يسحقونك دون أن تتيح لك فرصة الدفاع عن نفسك ! هل تطلب مزيداً من التحقيقات والأدلة ؟ هل نرسل عضوين من اللجنة الى يانينا لهذا الغرض ؟ .. تكلم ، أجب ! »

فقال الكونت بصوت خائر : « ليس عندى ما أجيب به ! »

فقال له الرئيس : « هل تعنى أن ابنة على باشا صادقة فيما تقول ؟

ونظر الكونت حواليه نظرة تلين قلوب الوحوش ، لكنها لم تستطع أن تنسى قضاته واجبهم .. وعندئذ شق سترته التى أحس أنها تخنقه ، وفر من القاعة كالمجنون لا يلوى على شيء !

وحين سكنت الجلبة التى اعقبت ذلك قال الرئيس يخاطب أعضاء اللجنة : « ايها السادة ، هل ترون ادانة الكونت دى مورسيرف باعتباره قد ارتكب جريمة الخيانة وما يلابسها من التصرفات التى تجعله غير مستحق لأن يكون عضواً فى هذا المجلس ؟ »

فوافق اعضاء لجنة التحقيق على ذلك بالاجماع !

مبارزة لم تتم

حمل بوشان الى صديقه المحطم البرت دى مورسير ف أنباء محاكمة أبيه ، فلما انتهى من سردها رفع الشاب وجهه الذى كسته حمرة العار وغسلته الدموع ، وامسك بذراع بوشان قائلا :

ــ يا صديقى . . ان حياتى قد انتهت !. . وبودى لو اعرف خصمى الذى يلاحقنى بهذه الكراهية العمياء لكى اقتله او يقتلنى !. . وانا اعتمد على صداقتك كى تساعدنى فى هذا البحث ، اذا لم يكن الاحتقار قد اقتلع هذه الصداقة من قلبك ! »

فقال له بوشان : « اذكر لك ما احجمت عن الاشارة اليه لدى رجوعى من يانينا !. . لقد توجهت اثناء قيامى بتحقيق الأمر هناك الى مدير البنك الرئيسى فى المدينة كى اسأله عن معلوماته . . وما كدت اشير الى الموضوع قبل ان اذكر اسم أبيك ، حتى بادرنى الرجل قائلا : « اننى اعرف الأمر الذى جاء بك الى هنا . فقد سألنى عنه منذ أيام عميل لى من رجال المال الباريسيين هو مسيو دانجلر »

فصاح البرت : « يا للشيطان . . آه ، انه هو حقا الذى طالما لاحق أبى بغيرته العمياء من المكانة التى بلغها . . ثم هناك فسخ مشروع زواجى من ابنته دون سبب ، الأمر الذى يزيد المسألة وضوحا !. . اذا كان دانجلر هو المسئول فسوف يموت احدنا قبل أن تغرب شمس هذا اليوم ! »

فقال بوشان : « اذا كنت حقا تعنى ما تقول فينبغى ان تنفذ هذا القرار فورا . أعنى ان تذهب الآن لمقابلة دانجلر »

وبعد قليل كان خادم البارون دانجلر يعلن سيده برغبة البرت فى مقابلته ؛ لكن دانجلر ــ اذ تذكر حوادث اليوم السابق ــ أبى أن يستقبله . . على أن رفضه هذا لم يجده فتيلا فان البرت كان قد تبع الخادم الى قرب باب الحجرة التى يجلس فيها سيده فلم يكد يسمع كلمة الرفض حتى اقتحم الباب ، يتبعه بوشان . . فصاح به دانجلر : « سيدى . . أليس لى أن أستقبل أو لا أستقبل فى بيتى من اشاء ؟. ماذا تبغى منى ؟ ! »

فأجابه الشاب وهو يدنو منه : « ابغى أن أقترح لقاء فى مكان منعزل لا يزعجنا فيه أحد لمدة عشر دقائق ؛ هذا يكفى . . وبعدها لن يبقى على قيد الحياة سوى احدنا فقط ! »

فأجابه دانجلر وقد شحب وجهه من الغضب والخوف :

ـ دعنى احذرك اذن ، فمن عادتى حيثمـا التقيت بكلب مسعور ان اقتله !.. هل هى غلطتى ان يجلب ابوك على نفسه العار ؟ »

فقال البرت : « نعم أيها النذل التعس انها غلطتك !. من الذى كتب الى يانينا يستفسر عن الأمر ؟ »

فقال دانجلر : « أنا الذى كتبت بلا شك !. واحسب أن من حق كل أب يعتزم تزويج ابنته من شاب أن يستفسر ما شاء عن أسرة ذلك الشاب وماضيه !.. وأنا أجزم لك بأنه ما كان ليدور بخلدى قط ان أسأل أهل يانينا من تلقاء نفسى ! »

ـ أذن فمن الذى حثك على الكتابة ؟

ـ ليس غير صديقك الكونت دى مونت كريستو

ـ وهل عرف الكونت الرد الذى تلقيته ؟

ـ نعم ، لقد عرضته عليه !

واحس البرت أن دمه يصعد الى مخه ، ولم يعد لديه شك فى أن الكونت دى مونت كريستو متحالف مع خصوم ابيه !.. ومن ثم انتحى البرت بصديقه بوشان جانبا وصارحه بهذه الخواطر ، فقال له هذا :

ـ انت على حق ! ان مسيو دانجلر لم يكن غير عامل ثانوى فى هذه المأساة المحزنة .. أما المسئول الاول الذى ينبغى ان تطلب منـه ايضاحا فهو الكونت دى مونت كريستو !

وهنا التفت البرت الى دانجلر قائلا : « فلتعلم اذن أن هذا ليس فراق نهائيا بيننا ، الا اذا ثبت لى صحة كلامك . وانى اهب الآن لأطلب ايضاحا عن الأمر من الكونت دى مونت كريستو ! »

وعلم البرت أن الكونت موجود فى دار الاوبرا فقصد الى هناك ، ولم يكد ينتهى الفصل الثانى حتى اقتحم مقصورة الكونت يتبعه شاهداه : بوشان وشاتو رينو .. فابتدره الـكونت مرحبـا : « طابت ليلتك يا مسيو دى مورسيرف »

فأجابه البرت : « نحن لم نأت الى هنا يا سيدى كى نتبادل التحيات القائمة على الرياء والنفاق ، والأدب الزائف أو الصداقة المزعومة .. وانما جئنا لنطلب ايضاحا ! »

فقال الكونت فى هدوء : « الحق انى لست أفهمك يا سيدى ، واذا كنت أفهمك فلا مفر لى من أن أنبهك الى أن صوتك مرتفع أكثر مما ينبغى .. فأنا المضيف هنا ، وأنا وحدى صاحب الحق فى أن يعلو صوتى على صوت سواى .. فلتغادر مقصورتى حالا ! »

ثم أشار له نحو الباب ، فى أروع مظاهر الوقار !

فأجابه البرت وهو يضرب يده بقفازه : « حسنا !.. سأعرف كيف أجعلك تخرج من مكمنك ! »

فقال الكونت فى هدوء : « مرحى ، مرحى ، أرى انك تريد أن تتشاجر معى ، لكنى سأعطيك نصيحة واحدة فى هذا الصدد يحسن بك أن تعيها جيدا . انه لمن سقم الذوق ان تتظاهر بالتحدى ، فان التظاهر لا يخدع كل انسان يا مسيو دى مورسيرف ! »

وعلى كل حال لنتفق من الآن ، ولتكن المبارزة بالمسدسات ، فى الساعة الثامنة ، فى غابة فنسين !

وبعد حين استقل الكونت عربته ، وكان هادئا باسما ، فوصل الى منزله بعد خمس دقائق .. ولم يكد يدخل حتى نادى تابعه عليا وابتدره قائلا :

ـ احضر لى مسدساتى ذات الصليب العاجى ..

وحين احضرها له تناول احدهما فصوبه نحو طبق حديدى كان يتخذه هدفا يتدرب عليه ، وفى هذه اللحظة طرق الباب ودخل خادمه بابتستان .. وقبل أن ينطق بكلمة رأى الكونت فى الغرفة المجاورة امرأة تضع على وجهها نقابا مقبلة فى أثر الخادم ، فلما رأت المسدس فى يد الكونت والسيوف التى على المنضدة أمامه اندفعت داخله .. واذ ذاك خرج الخادم واغلق الباب .. فدارت المرأة بعينيها فيما حولها كأنما لتستوثق من أنهما وحيدان ، ثم انحنت كمن تتأهب للركوع ، وضمت يديها فى توسل يائس وهتفت فى ضراعة :

ـ ادمون !.. انك لن تقتل ابنى يا ادمون !

فتراجع الكونت واطلق آهة تعجب ، ثم ترك المسدس يسقط من يده وسألها :

ـ ما هذا الاسم الذى نطقت به يا مدام دى مورسيرف ؟

فصاحت وهى تزيح النقاب عن وجهها : « انه اسمك !.. اسمك الذى أنا وحدى لم انسه .. أن مدام دى مورسيرف ليست هى التى تتوسل اليك الآن .. بل مرسيديس ! »

فقال الكونت : « ان مرسيديس قد ماتت يا سيدتى ، ولست اعرف الآن امرأة بهذا الاسم ! »

فقالت : « كلا ! ان مرسيديس على قيد الحياة يا سيدى ، وهى ما تزال تذكر ، فهى وحدها التى عرفتك حين رأتك ، بل عرفتك بصوتك قبل أن تراك يا ادمون !. ومنذ تلك اللحظة تتبعت خطاك وراقبتك ، وخشيت بأسك ، ولست فى حاجة الى ان اسأل عن اليد التى انزلت الضربة التى يترنح تحت وطأتها الآن مسيو دى مورسيرف .. بل أن ابنى بدوره قد استنتج من تكون ، وقد عزا المصائب التى دهمت اباه الى تدبيرك ! »

ـ أنت مخطئة يا سيدتي ، فهي ليست مصائب ، وانما هي عقاب !.. ولست أنا الذي يضرب مسيو دي مورسيرف ، وانما هي العناية الالهية التي تعاقبه !

ـ ولماذا تمثل أنت العناية الالهية ؟ لماذا تذكر أنت ما ارادت هي ان يطويا النسيان ؟. ماذا يهمك من امر يانينا وواليها ؟. ادمون !. أي أذى الحقه بك فرناند موندبجو بخيانته لعلي باشا ؟

ـ آه يا سيدتي ، كل هذا أمر يخص الضابط الفرنسي وابنة فاسيليكي ولا يخصني انا ، انت محقة في ذلك .. واذا كنت قد اقسمت لأنتقمن لنفسي فان هدف انتقامي لم يكن الضابط الفرنسي ، أو الكونت دي مورسيرف وانما هو صياد السمك فرناند ، زوج مرسيدس سليلة عشيرة كاتالان ..

فصاحت الكونتيس : « آه يا سيدي ، يا له من انتقام رهيب من اجل غلطة كان القدر هو المسئول عن جعلي أرتكبها .. فالواقع انني انا المذنبة الوحيدة يا ادمون ، واذا كنت تبغي الانتقام من أحد فليكن انتقامك مني أنا التي لم يكن لي من قوة الخلق ما يمكنني من احتمال غيابك ووحدتي ..! »

ـ ولكن .. من كان السبب في غيابي ، وفي دخولي السجن ؟

ـ لست أعلم .. وصدقني !

ـ انني أصدقك يا سيدتي ، أو هذا ما أرجوه على الأقل !.. لكني سأذكر لك السبب . لقد اعتقلت وسجنت لأنه في اليوم السابق لموعد زواجي منك ، وفي مقهى (لاريزرف) ، كتب شخص يدعى دانجلر خطابا أرسله الصياد فرناند بنفسه الى الجهة الموجه اليها !

ثم مضى الكونت الى درج مكتبه ففتحه واخرج منه ورقة حال لونها وبهت حبرها من طول الزمن ، فوضعها في يد مرسيدس . ولم تكن سوى خطاب دانجلر الى قاضي التحقيق !

فقالت مرسيدس بعد أن قرأتها ، وهي تمر بيدها على جبينها المبلل بالعرق :

ـ يا للفظاعة !.. وكانت نتيجة هذا الخطاب أن ..

ـ كانت نتيجته ما تعرفينه جيدا يا سيدتي ، من اعتقالي على المائدة وايداعي السجن .. لكنك لا تعرفين كم بقيت في السجن . لا تعرفين اني عشت أربعة عشر عاما في زنزانة بقصر « ايف » ، على بعد بضعة كيلومترات منك !.. لا تعرفين أني قضيت تلك المدة أجدد القسم كل صباح على أن أنتقم .. ولو أني لم أكن أعلم وقتئذ انك قد تزوجت من فرناند ـ جلادي ـ وأن أبي قد مات من الجوع !

فقالت مرسيدس وهي ترتجف : « هل يمكن ذلك ؟ »

فأجابها الكونت : « هذا ما عرفته عند خروجي من السجن .. وهذا ما جعلني احرص على الانتقام لنفسي من فرناند ، وقد فعلت !

ونكست المرأة التعسة رأسها ، وتركت ذراعيها تسقطان الى جانبيها ، وتخاذلت ساقاها تحتها . . ثم ركعت على ركبتيها متوسلة قائلة : « اصفح يا ادمون ، اصفح من اجلي انا التي ما زلت احبك ! »

فاندفع الكونت نحوها ورفعها عن الارض . . فلما جلست على مقعد نظرت الى وجهه المهيب الناطق بالرجولة ، وبالحزن والكراهية ولم تتكلم ، فسألها هو : « اتريدين الا أسحق تلك الشجرة اللعينة ، وان اتنازل عن هدفي في اللحظة التي بلغته فيها !. هذا مستحيل يا سيدتي. . مستحيل ! »

فهتفت الأم التعسة : « ادمون !. عندما اناديك باسم ادمون ، لم لا تناديني باسم مرسيديس ؟ »

ـ مرسيديس ؟ !. . حسنا يا مرسيديس !. انت على حق ولا شك فما زال لهذا الاسم سحره القديم . وانها المرة الاولى منذ زمن طويل التي انطق فيها به في وضوح . اواه يا مرسيديس ! لقد هتفت باسمك في ظلمة اليأس والحزن والجنون . . مرسيديس !. يجب ان انتقم لنفسي ، فقد تعذبت اربعة عشر عاما . . بكيت أربعة عشر عاما ، والآن اصارحك بأني ينبغي ان انتقم لنفسي !

ـ انتقم لنفسك يا ادمون ، ولكن دع انتقامك يحل بالمذنبين لا بالأبرياء . . انتقم منه ، ومني ، ولكن ليس من ابني ! »

ـ مكتوب في التوراة ان ذنوب الآباء تقع على الابناء حتى الجيلين الثالث والرابع . . فاذا كان الله ذاته قد املى هذه الأحكام على نبيه ، فلماذا أكون انا أرحم من الله ؟

فاستطردت مرسيديس قائلة وهي تمد ذراعيها نحو الكونت :

ـ ادمون !. منذ عرفتك في البداية عبدت اسمك واحترمت ذكراك . . ادمون يا صديقي !. لا تلطخ الصورة النبيلة النقية التي تنعكس على مرآة قلبي !. . لو عرفت الصلوات التي رفعتها الى الله من أجلك وقت أن كنت احسبك حيا ومنذ رجحت انك مت !. . لقد ظللت عشر سنوات أحلم كل ليلة بحلم واحد هو انك حاولت الهرب من السجن بوضع نفسك في كفن سجين آخر ميت ثم ألقيت من قمة قصر ايف فسقطت على الصخور وتحطمت جمجمتك !. . ادمون ، اقسم لك برأس ابني الذي التمس الآن عفوك عنه اني لبثت ارى تفاصيل هذه الفاجعة المخيفة كل ليلة طيلة عشر سنوات ، واسمع صرختك المروعة ورأسك يصطدم بالصخر ، فكنت استيقظ من نومي ارتجف من الفزع وانا احس بقشعريرة كالبرد . . وهكذا ترى يا ادمون اني بدوري قد قاسيت آلاما مروعة . . والآن هأنذا أرى من احببت على اهبة ان يقتل ابني ! »

فاهت مرسيديس بهذه الكلمات في لهجة اسى ويأس مريرة ، لم يستطع الكونت دي مونت كريستو ازاءها أن يقمع زفرة حسرة موجعة !

ان الأسد روض نفسه والمنتقم قد هزم !. . ولم يلبث ان قال لها : «ماذا

تطلبين مني ؟. حياة ابنك ؟. حسنا ، انه سوف يعيش ! »

وهنا أطلقت مرسيديس صيحة جعلت الدموع تلمع فى عيني الكونت ، وقالت وهي تمسك بيده وترفعها الى شفتيها .

ــ شكرا ! شكرا لك يا ادمون ! الآن حققت ظني فيك ، فى الرجل الذى احببت على الدوام . . دعني أعترف بذلك الآن !

ــ ليس فى ذلك من بأس على كل حال ، فان ادمون المسكين لن يعيش طويلا كي يستمتع بحبك . ان الموت لن يلبث أن يعيده الى القبر ، شبحا يختفي فى الظلام !

ــ ما ! تعني يا ادمون ؟

ــ اعني انني ينبغي أن اموت ، فما أحسبك تفترضين ان فى مقدوري مواجهة الحياة لحظة واحدة بعد أن اهنت أمام الملأ من فتى سوف ينتشي بصفحي كما لو كان انتصارا له !. . ان أول شيء احببته بعدك يامرسيديس هو كرامتي ، وتلك هي القوة التي جعلتني اسمو على الآخرين . . والآن جئت انت فسحقتني بكلمة واحدة منك . . لذلك ينبغي أن اموت !

ــ لكنك تعدني بشرفك ان المبارزة لن تتم ، اليس كذلك ؟

ــ بل انها ستتم ، ولكن بدلا من أن يسيل دم ابنك على الارض ، سوف يسيل دمي انا !

فشهقت مرسيديس ، واندفعت نحو الكونت ، لكنها توقفت فجأة وقالت : « ادمون !. ما دمت قد نجوت من كل ما مر بك ، وما دمت قد رايتك ثانية على قيد الحياة ، فهناك اذن اله تعلو ارادته ارادتنا . . وأنا اومن به من صميم قلبي ، وفى انتظار معونتــه اركن الى وعدك بأن ابني سيعيش ، اليس كذلك ؟

فأجاب الكونت وقد ادهشه تقبل المرأة لتضحيته المميتة دون تردد :

ــ نعم يا سيدتي ، سوف يعيش !

ــ ادمون لم تبق لي غير كلمة واحدة أقولها لك : لئن كنت ترى أن وجهي قد ذبل ، وعيني قد انطفأتا ، وجمالي قد ذهب ، فلم تعــد مرسيديس تشبه المخلوقة التي كانتها فيما مضى . . فانك سترى أيضا ان قلبي لم يتغير . . فوداعا اذن يا ادمون ، ليس لي ما اطلبه من الســماء اكثر مما حبتني به . لقد رايتك ثانية يا ادمون ، ووجدتك نبيلا عظيما كعهدي بك فى الماضي . . فوداعا يا ادمون ، وداعا . . وشكرا ! »

. . ثم فتحت مرسيديس باب حجرة المكتب واختفت قبل أن يفيق الكونت من الصدمة الموجعة التي احدثها له حبوط انتقامه المرموق !

وحين دقت ساعة الانفاليد ايذانا بحلول الساعة الاولى بعد الظهر ، كانت عربة مدام دي مورسيرف تبتعد بها فى طريق الشانزليزيه . . بينما رفع الكونت دي مونت كريستو رأسه وهتف محدثا نفسه كمن يفيق من حلم :

ـ يالي من غبي !.. كيف لم امزق قلبي وعواطفي في هذا اليوم الذي اعتزمت فيه أن انتقم لنفسي ؟

□

وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي مضى الكونت وشاهده مكسمليان موريل الى مكان المبارزة ، حيث تقدم مكسمليان نحو «بوشان» و « شاتو رينو » شاهدي خصمه ، فانحنى الثلاثة بعضهم لبعض في ادب ، ثم وصل البرت دي مورسيرف فقفز من جواده على بعد خطوات وانضم اليهم !

كان البرت شاحب الوجه غائر العينين ، شأن من لم يذق طعم النوم طيلة الليل .. وبعد ان شكر الحاضرين على تجشمهم عناء الحضور قال :

ـ عندي كلمة أريد أن أقولها للكونت دي مونت كريستو امامكم جميعا !

فتقدم الكونت منه في هدوء واتزان يتناقضان مع اضطراب خصمه ، ووقف الاثنان تفصل بينهما ثلاث خطوات .. فقال البرت في صوت مختلج :

ـ سيدي الكونت !.. لقد وجهت اليك اللوم على تصرفك بصدد مسلك مسيو دي مورسيرف في « ايبيروس » .. وكان من رايي بصرف النظر عن آثامه التي ارتكبها ان ليس لك حق في مؤاخذته عليها !.. لكنني وقفت بعد ذلك على ما بدل رأيي واقنعني بانك تملك هذا الحق... وليس غدر فرناند موندييجو بعلي باشا هو الذي من اجله التمس لك العذر ، وانما هو غدر الصياد فرناند بك انت ، والتعاسة البالغة التي لحقت بك بسببه .. وهأنذا اقول علانية وعلى رؤوس الأشهاد أنك كنت محقا في الانتقام لنفسك من ابي ... واني ـ بوصف كوني ابنه ـ اشكرك لانك لم تقس عليه اكثر مما فعلت ! »

ومد الكونت كريستو يده الى البرت وقد تندت عيناه بالدموع ، فصافحه هذا في احترام وتوقير اقرب الى الخشوع !.. بينما غمغم الكونت : « حقا ان الله موجود .. الآن فقط اكتمل ايماني باني مبعوث من السماء للانتقام ! »

□

عاد البرت الى منزل أبيه في شارع هلدر • وبعد أن القى نظرة ساخرة على كل أسباب الترف التي جعلت حياته منذ الطفولة سعيدة سهلة •• بدأ يجمع كل حاجياته مبتدئا بصورة أمه ، وأسلحته ، وتحفه ، ثم ترك في أحد الأدراج المفتوحة جميع النقود التي كانت في جيبه ، وكشفا بكل الاشياء التي تركها في الخزائن • وحين فرغ من ذلك سمع صوت عربة تقف أمام الباب ، ورأى أباه يستقلها ثم تسير مبتعدة به •• فاستدار



« ووقف الاثنان تفصل بينهما ثلاث خطوات »

الابن عن النافذة واتجه نحو حجرة أمه · وكأنما تحرك الاثنان بوحي فكرة واحدة ، فقد وجد أمه تفعل مثلمـــا كان يفعله هو منذ برهة !· رأى كل ثيابها ومجوهراتها ونقودها مرتبة في أدراجها ، وهي تجمع مفاتيحها ·· ففهم ألبرت مغزى ذلك ، وهتف بأمه وقد كاد تأثره يعجزه عن الكلام « أوه يا أمي ، لا يمكن أن تكوني اعتزمت مثل ما اعتزمته ·· لقـــد جئت لأودع بيتك ، وأودعك ! »

فأجابته قائلة: «أنا أيضا ذاهبة !· وقد وطنت نفسي على أنك سترافقني فهل تراني خدعت في ظني ؟ »

ـ سأنفذ جميع رغباتك يا أمي العزيزة ، وما دام عزمك قد استقر على هذا القرار فلنتصرف بحكمة · لقد خرج أبي منذ هنيهة ، والفرصة الآن سانحة كي نذهب دون أن نقدم له ايضاحا ! »

ـ أنا على أتم استعداد يا ابني !

وخرج ألبرت ليستدعي عربة ، وقد أعد في ذهنه خطة الانتقـــال إلى مسكن مفروش متواضع في شارع «دي سانت بير» ·· وحين عاد بالعربة وهبط منها لينادي أمه اقترب منه شخص مجهول وسلمه رســـالة قائلا « انها من الكونت » ثم اختفى « برتوشيو » من حيث أتى !

ولم يكد الشاب يقرأ الرسالة حتى لمعت في عينيه الدموع ، ودون أن ينطق بحرف سلم الرسالة الى أمه ، فقرأت فيها : « عزيزي ألبرت ··لقد اكتشفت خطتك ، وأرجو أن أقنعك بوجهة نظري · أنت حر في أن تغادر بيت أبيك وتأخذ أمك الى بيتك ، ولكن أذكر يا ألبرت أنك مدين لها بأكثر مما يستطيع قلبك المسكين النبيل أن يبذل لها · فاحتفظ بالصراع لنفسك واحتمل جميع آلامك ، ولكن جنب أمك محنة الفقر التي لا بد مســتقترن بمحاولتك ، ولو في البداية ·· فهي لا تستحق شيئا من النكبة التي حلت بها اليوم ، والله لا يحب أن يتألم البريء من أجل المذنب !·· أنا أعلم انكما قد اعتزمتما مغادرة منزل شارع دي هيلدر دون أن تأخذا شيئا من أموالكما أو متاعكما · لا تسألني كيف علمت بذلك ، وانما حسبك أني علمت به وكفى ·· ! »

وكان الكونت دي مورسيرف قد توجه بعربته الى دار الكونت دي مونت كريستو ، حيث أمر رب البيت بادخاله الى الصالون · وفيما كان هـــذا يذرع الحجرة للمرة الثالثة ، دخل مضيفه ، قائلا في هدوء :

ـ أهذا أنت يا مسيو دي مورسيرف ؟ حسبت اني أخطأت السمع !

فقال دي مورسيرف وشفتاه تختلجان في انفعال عاقه عن الاستمرار في الكلام : « نعم ، انه أنا ! »

ـ وهل لي أن أعرف سبب تشرفي بزيارتك في هذه الساعة المبكرة ؟

ــ جئت لأقول لك : انني بدوري أنظر اليك باعتبارك عدوي ·· جئت لأقول لك اني أمقتك بوحي الغريزة ، بحيث يخيل الى أنني طالما عرفتك، وطالما كرهتك ·· وبالاختصار ، ما دام شباب اليوم لن يتبارزون ، فقد بقي علينا أن نفعل · هل أنت مستعد ؟ ·· أنت تعلم أننا سنظل نقتتل حتى يموت أحدنا !

فأومأ الكونت دي مونت كريستو موافقا ، وواصل دي مورسيرف كلامه فقال :

ــ اذن فلنبدأ ! · لسنا في حاجة الى شهود !

ــ هذا صحيح ، فنحن نعرف أحدنا الآخر تمام المعرفة ··

ــ بل بالعكس ، فنحن لا يكاد أحدنا يعرف عن الآخر شيئا يذكر !

وهنا شحب وجه الكونت دي مونت كريستو شحوبا مخيفا ، ولمعت عيناه ببريق كاللهب ، ثم اندفع نحو غرفة مجاورة وعاد بعد لحظات مرتديا سترة لبحار وقبعة ينسدل من تحتها شعره الأسود الطويل ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره وتقدم من غريمه شامتا ، بينما اصطكت أسنان هذا وارتجفت قدماه تحته ،أخذ يتراجع في فزع حتى اصطدم بمنضدة فاستند اليها ·· بينما صاح به الكونت دي مونت كريستو :

ــ فرناند ! · من بين المائة اسم التي أطلقها على نفسي لست في حاجة الى أن أذكر لك غير اسم واحد ، لعلك عرفته الآن من هيئتي ·· فانني برغم الأحزان والعذاب الذي قاسيته أطالعك اليوم بوجه ترد اليه سعادة الانتقام والتشفي شبابه القديم !·· وجه لا بد أنك رأيته مرارا في أحلامك منذ زواجك من مرسيديس ، خطيبتي !

ومد الجنرال يديه مستنجدا من الرعب الشديد الذي اعتراه ، ومضى يتلمس الجدار حتى بلغ الباب فانسحب منه وهو يطلق هذه الصرخة اليائسة : « ادمون دانتيس ؟ ! » ·· وما بلغ الباب الخارجي حتى ارتمى بين ذراعي حوذيه الذي عاونه على ركوب العربة ، وعاد به الى البيت !

·· وأمام البيت كانت تقف عربة متواضعة ــ لم تر من قبل أمام بيت نبيل مثله ــ فدلف الجنرال الى الداخل ، بينما كانت زوجته وابنه يهبطان السلم ، والفتى يخاطب والدته :

ــ تشجعي يا أماه ، فلم يعد هذا بيتنا !

فاختفى الأب وراء احدى الستائر في آخر لحظة وهو يشهق شهقةمروعة لم يصدر مثلها يوما من صدر انسان ·· شهقة رجل تهجره زوجته وابنه في يوم واحد !

وحين بلغ مخدعه أطل ليلقي نظرة أخيرة على العربة وهي تبتعد حاملة أعز من له في الوجود ·· وفي اللحظة التي كانت العربة تختفي فيها عن ناظريه سمعت طلقة نارية تصاعد على أثرها الدخان من خلال ثغرة فيزجاج النافذة أحدثها الانفجار !

سم ينقذ من سم

كان مكسمليان موريل قد عاد من مكان المبارزة الى منزل أسرة فيلفور ، حيث كانت فالنتين فى انتظاره فى غرفة جدها .. وأثناء حديثها عن اعتزام جدها الانتقال بها الى مسكن مستقل بسبب عدم ملاءمة طقس ذلك الحى لصحتها ، قالت له :

ـ الواقع أنى فقدت شهيتى وصرت أحس كأن معدتى تجاهد كى تألف شيئا ما !

فسألها مكسمليان : « وأى علاج تستعملين لمداواة هذه الحالة ؟ !

ـ أبتلع كل صباح ملعقة صغيرة من المزيج الذى أعد من أجل جدى .. أعنى أنى بدأت بملعقة واحدة والآن أتناول أربع ملاعق .. وهو مزيج مر الطعم الى أقصى حد !

شحب وجه نوارتييه وهو يصغى الى كلام حفيدته، كأنما أدرك خطورته، فأشار لها كى تحضر القاموس لأنه يريد أن يتكلم ..

وفى تلك اللحظة اندفع الدم الى وجنتى الفتاة ، وصاحت وهى تترنح قليلا : « أوه ، هذا غريب ! .. لست أدرى ، لكأن الشمس تسطع فى عينى ! »

واستندت الى النافذة ، فهرع مكسمليان نحوها منزعجا ، لكنها ابتدرته مطمئنة : « لا تقلق ، انه عارض طارىء ، وقد زال .. ولكن ، أليس هذا صوت عربة تقف أمام الباب ؟ »

وفتحت الباب وأطلت ، ثم قالت : « نعم ، انها مدام دانجلر وابنتها ، جاءتا لزيارتنا .. الى اللقاء ، فانه ينبغى أن أذهب قبل أن ترسلا فى طلبى .. ابق مع جدى يا مكسمليان ، والى اللقاء ! »

لبث الشاب يراقبها وهى تهبط السلم المؤدى الى جناح مدام دى فيلفور وجناحها هى .. وما كادت تنصرف حتى أشار الشيخ المشلول الى مكسمليان كى يحضر القاموس ويترجم اشاراته ، وكان الشاب قد عرف طريقة التفاهم معه هكذا من فالنتين

وقال نوارتييه للشاب : « احضر الابريق والكوب اللذين فى غرفة فالنتين ! »

فدق الشاب الجرس للخادم ، وأمره باحضار الآنيتين ، وكانتا فارغتين تماما ، فسأله سيده :

ـ كيف ذلك وفالنتين قالت انها لم تشرب غير نصف محتويات الابريق؟
وأجاب الخادم بأنه لا يدرى ، ولعل الخادمة أفرغت الباقى
وأشار اليه سيده أن يسأل الخادمة ، فأومأ مطيعا ثم انصرف وعاد بعد حين يقول : « كانت الآنسة دى فيلفور تعبر غرفتها الى غرفة زوجة أبيها، حين أحست بالظمأ فشربت ما تبقى فى القدح ، أما الابريق فقــد أفرغه السيد ادوارد كى يصنع بحيرة تمرح فيها بجعاته ! »

وفى أثناء ذلك كانت مدام دانجلر تنهى الى مضيفتها بشرى خطبة الأمير كافالكانتى لابنتها ، وأثناء الحديث التفتت الضيفة الى فالنتــين قائلة : « ماذا بك يا ابنتى ؟ لقد تعاقب الشحوب والاحمرار على وجهك أربع مرات فى دقيقة واحدة ؟ »

وانتهزت مدام دى فيلفور الفرصة فقالت للفتاة : « يحسن أن تذهبى لتستريحى يا فالنتين ، فانك لست على ما يرام ، ولتشربى قدحا آخر من الماء ، فهو ينفعك ! »

وعلى أثر انصرافها قالت المرأة لضيفتها : « ان أمر هذه الفتاة يزعجنى وأخشى أن تكون مصابة بمرض خطير ! »

وأثناء عودة فالنتين الى حجرة جدها غامت على عينيها سحابة جعلتهــا تنزلق من السلم وتسقط على الارض ، فلحق بها مكسمليان ورفعهــا بين ذراعيه .. وطفرت من عينى نوارتييه صرخة رعب شلت على فمه .. ثم أقبل دى فيلفور فهرع نحو ابنته وأخذها بين ذراعيه وصاح قائلا : « طبيب .. طبيب .. مسيو دافرينى .. أو لعل الأفضل أن أدعوه بنفسى » . وخرج على عجل ، بينما خرج مكسمليان من الباب الآخر !

وحين عاد مسيو فيلفور وبصحبته الطبيب ، كانت فالنتين قد عادت الى وعيها ، لكنها ظلت عاجزة عن الحركة أو الكلام . وبعد أن فحصها وكتب لها العلاج مضى الى غرفة نوارتييــه وأغلق البــاب وراءه .. ثم قال له : « أتعتقد أن اليد التى أصابت باروا هى التى تهاجم فالنتين الآن ؟ » .
فأومأ موافقا ، ثم ابتسم وهو ينظر الى زجاجة المزيج الذى يتناول منه كل صباح .. فهتف الطبيب :

ـ حسنا !.. فهمت يا سيدى .. انك جعلت جسمها يألف هذا السم بالتدريج قبل أن تعطى الجرعة القاتلة .. ولولا هذا الاحتياط لماتت فالنتين قبل أن نتمكن من اسعافها !

وفى الوقت الذى عاد فيه الطبيب الى مخدع فالنتين ، برفقة أبيهــا ، استأجر راهب ايطالى يدعى السنيور جياكومو بوزونى المنزل الملاصق لبيت فيلفور !

□

فى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم نفسه كان البــارون دانجلر

يذرع حجرة صالونه في قلق ظاهر . في انتظار دخول ابنته التي طلبت أن تتحدث اليه على انفراد في تلك الغرفة بالذات • ولم تلبث أوجيني أن دخلت مرتدية ثوبا من « الساتان » الأسود ، وقد صففت شعرها وأمسكت قفازيها كما لو كانت ذاهبة الى دار الأوبرا !

وسألها أبوها : « ماذا تريدين أن تقولى لى ؟ »

فأجابته في لهجة حازمة جعلته يقفز من مقعده كالملدوغ :

ـ أريد أن أقول باختصار : انني لن أتزوج الكونت أندريا كافالكانتي !

ـ ماذا ؟ •• اصغي الى يا ابنتي، ولسوف أحدثك بالصراحة التي تحبينها • انني حين طالبتك باتمام هذا الزواج كنت أنظر الى هدف خطير من ورائه !

ـ تعني أن مركزك المالي مهدد ؟

ـ نعم يا بنيتي ، وأنا أريد تزويجك من الكونت كافالكانتي لأنه سوف يضع بين يدى ثروته الطائلة البالغة ثلاثة ملايين من الجنيهات

فقالت الفتاة باحتقار : « هذا عظيم ! »

ـ انت تخشين أن أحرمك من هذه الثروة ؟ ولكن هذه الملايين الثلاثة سوف تدر ربحا قدره عشرة ملايين أو اثنا عشر مليونا ، بفضل مشروع امتياز للسكك الحديدية حصلت عليه بالاشتراك مع زميل لى •• ومطلوب منى أن أودع خلال أسبوع أربعة ملايين ، مقدار حصتى فى المشروع ، على أن زواجك نفسه من هذا الثرى كفيل بأن يرد لى سمعتي المالية

ـ هل تعدنى بأن تسترد مركزك المالي باستغلال هذه السمعة ، دون أن تمس مبلغ الثلاثة الملايين ذاته ؟ وأن تدفع مهرى البالغ نصف مليون فرنك عند الزواج ، وأن تترك لى حريتي الشخصية كاملة ؟

ـ أعدك بذلك !

ـ اذن سأتزوج مسيو كافالكانتي !

وحددت الساعة التاسعة من مساء اليوم نفسه موعدا لتحرير عقد الزواج، فارتدت العروس ثوبا بسيطا أنيقا ، بينما جلست أمها تثرثر مع بوشان وشاتو رينو ودبراى •• وجلس دانجلر يتحدث الى نفر من رجال المال المدعوين عن مشروعات الضرائب التي يعتزم تنفيذها اذا عين وزيرا •• ثم تحدث الكونت أندريا كافالكانتي عن ألوان الترف التي قرر ادخالها على المجتمعات الرفيعة بفضل ايراده السنوى الضخم !

وفى الساعة التاسعة أعلن وصول الكونت دى مونت كريستو ، وقد دخل بينما كانت مدام دانجلر تضع توقيعها على عقد زواج ابنتها ، قائلة لصديقتها مدام دى فيلفور : « أليس من سوء الحظ أن يحول حادث سرقة دار الكونت دى مونت كريستو ، دون حضور صديقنا مسيو دى فيلفور ؟ »

وهنا قال الكونت دى مونت كريستو ، الذى كان قليل الكلام بحيث كانت كل كلمة ينطق بها تلفت الاسماع :

ـ أخشى أن أكون أنا المتسبب بلا قصد في اعاقة مسيو فيلفور عن الحضور .. فلقد عثر خدمي اليوم على سترة السارق الذى قتله شريكه عند هبوطه من نافذة داري ، وكانت قد فقدت أثناء فحص رجال البوليس والاسعاف لجراحه .. وبتفتيشها وجدت فيها ورقة تتضمن خطابا موجها الى البارون دانجلر !

وهنا هتف دانجلر متعجبا : « لى أنا ؟ ! »

فقال الكونت : « نعم ! ولما كانت هى والسترة هما الدليل المادى فى الجريمة فقد أرسلتهما الى قاضى التحقيق ، خشية أن تكون هناك مؤامرة مدبرة ضدك ! »

فقال دانجلر : « هذا معقول !.. ألم يكن السارق القتيـــل قاتلا من « خريجى » الليمان ؟ »

ـ نعم .. وهو يدعى « كادروس » !

وهنا شحب وجه دانجلر قليلا ، بينما تسلل الكونت أندريا كافالكانتى فى سكون الى خارج الغرفة .. فقال الكونت دى مونت كريستو :

ـ أرى أن قصتى قد أثارت جوا من الانزعاج ينبغى الاعتـــذار بسببه للبارونه والآنسة دانجلر .. فهل لكم أن تتابعوا اجراءات العقد ؟ »

وكانت البارونة قد فرغت من التوقيع ، وردت الريشة لمسجل العقود ، فصاح هذا مناديا : « الامير كافالكانتى .. الامير كافالكانتى !.. أين سمو الأمير ؟ »

وفى تلك اللحظة اقتحم الصالون نفر من جنود البوليس يتقدمهم ضابط اقترب من البارون دانجلر فى حركة مريبة ، فأطلقت البـــارونة صرخة وسقطت مغشيا عليها ، بينما بدا على وجه دانجلر رعب شديد !

وتساءل ضابط البوليس : « أيكم يا سادة يدعى أندريا كافالكانتى ؟ »

فساد المكان هرج ومرج ، وراح الكل يبحثون عن الامير المختفى ، بينما هتف دانجلر مستفسرا : « لماذا تبحثون عنه ؟ »

فأجاب الضابط : « انه مجرم هارب من ليمان طولون ، وهو متهم الآن بقتل زميله السابق فى الليمان ، المدعو كادروس ، أثنـــاء فراره من دار الكونت دى مونت كريستو ! »

لكن أندريا كان قد لاذ بالفرار .. !

□

دقت الساعة الحادية عشرة ، وفالنتين راقدة فى فراشها تغالب الحمى ، بعد أن انصرفت الممرضـــة منـــذ عشر دقائق .. وكانت الحمى قد هيأت للمريضه ألوانا من الأخيله والهواجس والرؤى المتتابعة المختلطة .. وكان المصباح يرسل ضوءه الضئيل المرتعش ، الذى يرسم أشــــكالا وأشباحا تزيد فى هواجس المحمومة ، وفجأة خيل الى فالنتين أنها ترى باب غرفتها يفتح على مهل فى سكون ، ويتسلل منه الى الداخل شبح يقترب من فراشها

متلصصا . وتذكرت فالنتين أن خير وسيلة لتبديد تلك الرؤى هي أن تشرب جرعة من الدواء الذى أعده لها الطبيب ، فمدت يدها تتلمسه .. وفي هذه اللحظة هرع الشبح نحوها كأنما ليمنعها من أن تشرب ، فاسترددت هي ذراعها مذعورة ، بينما تناول هو الكأس فسكب فيها ملعقة من دواء كان معه ... ثم همس لها :

ــ الآن يمكنك أن تشربي !

كادت فالنتين تصرخ مذعورة ، لولا أن وضع الشبح يده على فمها ، فغمغمت وقد تبينت شخصيته : « الكونت دى مونت كريستو ؟ »

فأجابها : « اصغي الى ، أو بالأحرى انظرى الى شحوب وجهى واحمرار عيني !.. اننى منذ أربع ليال لم يغمض لى جفن ، كى أسهر على حمايتك ، من أجل مكسمليان ! »

فغمغمت فالنتين وقد عاودها الاطمئنان : « هل حدثك بما كان ؟ »

فقال الكونت لها : « نعم لقد ذكر لى كل شيء ، وأكد أن حياتك عنده أثمن من حياته ، وقد وعدته بأنك ستعيشين ! »

ــ تقول انك سهرت على حمايتي ؟.. لكنى لم أرك !

ــ قضيت معظم وقتي مختبئا خلف هذا الباب ، الذى يقود الى المنزل الملاصق ، وقد استأجرته خصيصا لهذا الغرض .. وأثناء مراقبتي الطويلة رأيت الاشخاص الدين يزورونك ، والطعام والشراب الذى يعد لك . وكنت كلما وضع لك سم قاتل استبدلت به شرابا صحيا منعشا !

ــ سم قاتل ؟!.. ما هذه الاشياء المرعبة التى تحدثني عنها ؟

ــ لم تكوني أولى من تعرض لهذا الخطر هنا .. هل نسيت ما حدث للمركيز والمركيزة دى سان ميران ، ولذلك الخادم الأمين (باروا) ؟.. لقد سقطوا جميعا صرعى بالطريقة نفسها !.. وكان المنتظر أن يلقى المسيو نوارتييه مثل هذا المصير فيموت بالسم أيضا ، لولا أن العلاج الذى يتعاطاه منذ ثلاث سنوات أعطاه مناعة ضده !

ــ يا للسماء .. اذن فهذا هو السبب الذى جعل جدى يسقيني من دوائه طيلة الشهر الاخير ؟

ــ انه دواء مر المذاق ، أليس كذلك ؟ اذن فجدك يعلم أن قاتلا يعيش تحت سقف هذا البيت ، ولعله يرتاب في شخصه .. وقد حرص على أن يحصنك ــ وأنت محبوبته ــ ضد ذلك السم . ولكن حتى هذا التحصين لم يكن لينقذك من سلاح آخر مميت استعمل ضدك خلال هذه الايام الاربعة الأخيرة !

ــ ولكن من يكون هذا القاتل ؟

ــ ألم ترى أحدا يدخل غرفتك أثناء الليل ؟

ــ لقد طالما رأيت أشباحا تقترب ثم تبتعد ، لكنى حسبتها من خيالات الحمى ، كما حسبتك أنت في البداية !

ـ اذن تذرعي بكل شجاعتك ، وارهفي سمعك لكل صوت ، وراقبي كل شيء جيدا خلال تظاهرك بالنوم ·· وعندئذ ترين كل شيء !

فأمسكت فالنتين بيد الكونت وهمست : «أعتقد أني أسمع صوتا يقترب ·· اتركني الآن ! »

ـ الى اللقاء اذن

ومشى الكونت على أطراف أصابعه الى الباب الذى دخل منه ، فاختفى وراءه ·· ومرت عشرون دقيقة ، بطيئة ، رهيبة ، ثم فتح باب غرفة فالنتين دون صوت ·· ولمحت شبحا يقترب من فراشها ، ثم يهمس : «فالنتين !·· فالنتين ! » فلما لم تجب ، سمعت سائلا يصب في الزجاجة التى تشرب منها · واذ ذاك بذلت جهدها كي تفتح أجفانها قليلا وتنظر من خلالها ·· فرأت امرأة تصب في الماء سائلا من قارورة معها ·· ولم تكن هذه المرأة سوى زوجة أبيها ، مدام دى فيلفور !

ولم تفق فالنتين من ذهول المفاجأة الذى استمر دقائق بعد خروج المرأة الآثمة الا حين فتح الباب المقابل في سكون ودخل منه الكونت دى مونت كريستو وقال لها : « تنزعجي من أى شيء يحدث لك ، حتى لو شعرت بأنك فقدت النظر أو السمع أو الوعي ·· أو حتى لو صحوت فوجدت نفسك داخل نعش مغلق !·· وانما قولى لنفسك عندئذ : (هناك صديق ، بمثابة أب ، يعيش من أجل سعادتي وسعادة مكسمليان ، وهو سيحميني) ·· ذلك لانني وحدى من يستطيع انقاذك ، وسأفعل ! »

ثم أخرج من جيبه حبة في حجم الحمصة وقدمها لها ، فابتلعتها ·· واذ ذاك قال لها : « الآن يا طفلتي المحبوبة ، وداعا الى حين » ·· ثم اختفى!

وفي الصباح استيقظت المرضة يقظة المريضة فدخلت لتوقظها ·· فلما رأتها هامدة ، بيضاء الشفتين صرخت مذعورة·· فدخل على صوت صرختها الطبيب دافرينى وقال : « ماذا ؟ أهى الأخرى أيضا ؟ رباه ! »

◻

هبط الكونت دى مونت كريستو من عربته أمام منزل البارون دانجلر ، واستقبله هذا بابتسامة حزينة قائلا :

ـ أجئت تعزيني ؟·· لقد تكاثرت المصائب في بيتي ، فقد فرت ابنتي وهجرتني ، بعد فضيحة كافالكانتى !

فقال الكونت في هدوء : « ان أى حادث من النوع الكفيل بتحطيم من لا يملك كنزا غير ابنته ، يصبح محتملا في نظر من يملك الملايين ! »

فقال البارون دانجلر : « اذا كان الثراء يجلب التعزية فينبغي أن أتعزى فاني ثرى ·· وفي اللحظة التى دخلت فيها كنت قد فرغت من توقيع صكوك بمبلغ خمسة ملايين من الفرنكات ! »

فسأله الكونت : « هل هي مستحقة الدفع فورا ؟ » . واذ أومأ موافقا قال له :

ــ اذن سأقبل المغامرة !.. لقد فتحت عندك حسابا بستة ملايين من الفرنكات ، لم أسحب منها حتى الآن الا تسعمائة ألف فرنك ، أى أن لى عندك خمسة ملايين ومائة ألف ، لكنى سآخذ هذه الصكوك التى تساوى خمسة ملايين وأعطيك ايصالا بأنى تسلمت كل حسابى !.. انى فى حاجة الى هذا المبلغ اليوم !

وسارع الكونت الى وضع الصكوك فى جيبه ، فبدا الفزع على دانجلر وقال له : « ولكن .. ولكنى مدين بهذا المبلغ لجهة ما ، وقد وعدت بدفعه اليوم ! »

ــ اذن تدفع لى المبلغ بأية وسيلة أخرى غير هذه الصكوك .. ولو أنى كنت سأفاخر بأن بنك دانجلر قد دفع لى خمسة ملايين من الفرنكات فى اللحظة التى طلبتها فيها .. انه أمر يدعم الثقة فيك !

وطافت بذهن دانجلر فكرة مفاجئة ، فرضخ لطلب الكونت

وفيما كان الكونت دى مونت كريستو يتأهب للانصراف دخل ممثل الجهة التى تدين دانجلر بالخمسة الملايين ، فقال له البارون :

ــ لقد سبقك الكونت دى مونت كريستو فأخذ من حسابه مبلغ خمسة ملايين من الفرنكات ، ولو أنى حررت فى يوم واحد صكوكا بعشرة ملايين لأحدث ذلك هزة فى السوق ، فهل لك أن تحضر ظهر غد ؟

فوافق الرجل على ذلك وانصرف ، بينما همس دانجلر لنفسه :

ــ فى هذا الموعد سوف أكون فى مكان بعيد !

أما فالنتين فدفنت فى مقبرة «الأب لاشيز» ،واغرق أبوها نفسه فى العمل، لكنه عجز مع ذلك عن أن ينساها .. فدخل ذات يوم جناح زوجته،وكانت جالسة تقلب بعض الصحف والمجلات ، وقد ارتدت ثيابها وقفازيها تأهبا للخروج .. وبادر فيلفور فأحكم اغلاق الباب بالرتاج ثم وقف بين زوجته وبين الباب ، فسألته وهى تحاول أن تقرأ أفكاره : « ماذا هناك ؟ »

فقال لها : « سيدتى .. أين تحتفظين بالسم الذى تستعملينه ؟ »

فانطلقت من المرأة صرخة او شهقة مكتومة ، وشحب وجهها شحوب الأموات ، وأجابته متلعثمة : « انى .. انى لا أفهم ماذا تعنى ! »

ــ لقد سألتك أين تخفين السم الذى قتلت به صهرى وحماتى وخادم أبى ثم ابنتى ؟

ــ ما هذا الذى تقول ؟

ــ ليس لك أن تسألى بل عليك أن تجيبى فقط !

ــ هل أجيب القاضى أم الزوج ؟

ــ القاضى يا سيدتى .. القاضى !

فأخفت المرأة وجهها بين يديها وغمغمت : « أواه يا سيدى !٠٠ أتوسل اليك ٠٠ لا تصدق الظواهر ! »

ـ يا لك من جبانة ! لقد طالما لاحظت حين أمثـــالك من الذين يقتلون بالسم ٠ ولكن فاتك وأنت تعدين سمومك وتزيلين آثارها ببراعة تبلغ حد الاعجاز ، أن تقدرى النهاية التى سوف تقودك اليها آثامك ٠ ولكن لعلك قد احتفظت ببقية من سمك العجيب الفعـــال كي ينجيك من العقاب الذى تستحقينه ٠٠!

فركعت الزوجة الشابة على ركبتيها ومدت اليه يدها مناشدة، فقال لها: « أرى انك تعترفين بجرائمك،لكن الاعتراف للقاضى في آخر لحظة لا يخفف من شدة العقوبة ٠ على أن زوجة القاضى الاول فى العاصمة ينبغى ألا تموت على المشنقة فتلطخ بضربة واحدة سمعة زوجها وابنها ٠ ســـيدتى ، انه لتصرف حكيم منك أن تموتى بذلك السم نفسه !

وارتمت عند قدمى زوجها وهى تطلق ضحكة هستيرية مخيفة ، فقال لها وهو يهم بمغادرة الغرفة ٠ « فكرى فى الأمر يا سيدتى ، وسأخرج الآن فاذا وجدت عند عودتى أن العدالة لم تأخذ مجراها فسوف أبلغ ضـــدك بلسانى . وأقبض عليك بيدى ! »

تمكن البوليس من القاء القبض على المجرم الهارب اندريا كافالكانتى ـ أو « بنديتو » ـ ثم قدم للمحاكمة بفضل الجهود التى بذلها مسيو دى فيلفور قاضى التحقيق،وقد افتن فى صياغة تقرير الاتهام بأسلوبه القوى الصارم. وفى الجلسة نودى المتهم وتليت عليه التهمة ثم سأله القاضى ٠

ـ اسمك ولقبك ؟

ـ اسمح لى يا سيدى انأجيب عنأسئلتك بغير الترتيب التقليدى المتبع، والا فلن أجيب على الاطلاق !

فنظر القاضى الى المحلفين فى دهشة . ونظر هؤلاء بدورهم الى فيلفور٠٠ بينما ظل المتهم محتفظا بهدوء عجيب !

ـ سنك ؟

ـ سوف أبلغ الحادية والعشرين بعد أيام قلائل . فقد ولدت ليـــلة ٢٧ سبتمبر سنة ١٨١٧ فى ضاحية أوتوى القريبة من باريس !

وهنا رفع فيلفور رأسه عن الاوراق التىكان نكتب فيها ، وشحب وجهه لدى ذكر تاريخ الميلاد ومكانه ٠٠ بينما مسح المتهم شفتيه بمنديل فاخر !

وعاد فيلفور يسأله ٠ « مهنتك ؟ »

فأجاب ٠ « فى البداية كنت مزيفا ، ثم صرت لصا ، وأخـــيرا أصبحت قاتلا ! »

وأحدثت هذه السخرية ضجة في صفوف المحلفين والنظارة ، ونظر الجميع الى المتهم الوقح باشمئزاز ، بينما احمر وجه فيلفور وتململ في مقعده كمن يبغى هواء يتنفسه .. فسأله المتهم وهو يبتسم : « هل تبحث عن شيء يا سيدي المحقق ؟ »

ولم يجب فيلفور ، فتابع الرئيس استجواب المتهم :

ـ والآن ، هل لك أن تذكر اسمك ؟

ـ لست أستطيع ذلك ، لاني لا أعرفه .. لكنني أعرف اسم أبي ، وفي وسعي أن أذكره لكم !

وهنا تساقطت قطرات العرق من جبين فيلفور على الاوراق التي أمسكها بيده المتقلصة .. بينما استطرد المتهم فقال في هدوء :

ـ ان أبي يشغل منصب قاضي تحقيق !

فتساءل الرئيس ذاهلا ، دون أن يلحظ الانزعاج البادي على فيلفور : « قاضي تحقيق ؟.. تقول قاضي تحقيق ؟ »

ـ نعم ، واذا أردتم معرفة اسمه فسأذكره لكم .. انه يدعى « فيلفور » !

واذ ذاك انفجرت بين النظارة العاصفة التي حاولوا في البداية قمعها توقيرا للمحكمة .. وشخصت العيون جميعا نحو فيلفور ، وكأنما حولته الصدمة الى جثة هامدة .. بينما تابع المتهم اعترافه في صوت قوي فقال :

ـ أيها السادة .. اني مدين لكم بالبراهين المثبتة لأقوالي ، لقد ولدت في المنزل رقم ٢٨ شارع « النافورة » في حجرة مبطنة بالحرير الاحمر .. ثم أخذني أبي بين ذراعيه ، بعد أن ذكر لأمي أني ولدت ميتا ، ولفني في منشفة عليها حرفا « هـ.ن » ثم حملني الى الحديقة حيث دفنني حيا !

وسرت بين المحلفين قشعريرة رهيبة ، بينما تابع الرئيس أسئلته :

ـ كيف وقفت على كل هذه التفصيلات ؟

ـ كان هناك شخص أخذ على نفسه أن ينتقم من أبي ، فكمن له في الحديقة في تلك الليلة ، حتى رآه يدفن صندوقا في الارض ، فطعنه بسكينه ثم أخرج الصندوق الذي حسبه يحوي كنزا ، فلما وجدني حيا أخذني الى ملجأ اللقطاء في باريس حيث بقيت به ثلاثة أشهر حتى أخرجتني منه زوجة أخيه وعادت بي الى بيتها في (كورسيكا) .. وهناك نشأت في رعاية أولئك القوم الطيبين ، لكن الوضع المقلوب الذي صاحب مولدي طغى على الفضائل التي حاولوا بثها في قلبي .. فنموت في الرذيلة حتى صرت مجرما ، وذات يوم كنت ألعن الاقدار التي خلقتني شريرا فقال لي منقذي : (لا تجدف على الاقدار أيها الفتى التعس ، فالجريمة جريمة أبيك الذي نذرك للجحيم حين دفنك حيا كي تموت خاطئا ، قبل أن يدركك غفران الله)

« ومنذ ذلك اليوم كففت عن التجديف على خالقي ، وصرت ألعن أبي ! »

ولهذا نطقت الآن بهذه الاقوال التي ملأت قلوبكم اشمئزازا ٠٠ فاذا كنت قد ارتكبت بذلك جريمة اضافية فعاقبوني،واذا شعرتم معي بأني منذ يوم مولدي لاحقتني الاقدار بالأسى والمرارة والبؤس . فارثوا لحالي ! »

وسأله الرئيس : « وأمك ؟٠٠ »

فأجاب : « أمي بريئة !٠٠ فقد حسبتني ميتا ٠٠ لذلك لم أعبأ حتى بأن أعرف اسمها ، ولست أعرفه ! »

وعندئذ انطلقت من بين صفوف النظارة صرخة ثاقبة صادرة من امرأة كانت تغطي وجهها بنقاب ٠٠ فلما أجهشت بالبكاء في نوبات هستيرية سقط النقاب عن وجهها فعرف الجميع فيها « مدام دانجلر » !٠٠ ولم يكد بصر فيلفور يقع عليها حتى هب من مقعده واقفا دون وعى منه ٠٠ وتابع الرئيس أسئلته للمتهم قائلا :

ـ الأدلة ٠٠ الأدلة ٠٠ تذكر يا هذا أن هذه الاقوال المروعة يجب أن تستند الى أدلة حاسمة !

فأجاب بنديتو ضاحكا : «تريدون الأدلة ؟٠٠ انظروا اذن الى وجه مسيو دى فيلفور ثم طالبوني بالأدلة ! »

واتجهت جميع الانظار الى قاضي التحقيق ، الذى عجز عن مواجهة آلاف العيون المسلطة عليه ٠٠ فنهض من مقعده وسار مترنحا مشعث الشعر وقد بدت على وجهه خدوش أظافره ، فانطلقت من الجميع غمغمة دهشة ٠٠ وخاطبه المتهم قائلا :

ـ أبي !٠ انهم يطالبونني بالأدلة ، فهل تريدني أن أقدمها ؟

وهنا قال فيلفور : « كلا !٠٠ لا فائدة من ذلك ! »

فصاح به الرئيس : « ماذا تعنى ؟ »

فقال : « أعنى أنني أشعر باستحالة مقاومتي لليد الجبارة المميتة التي تسحقني ٠٠ انني الآن بين يدى اله منتقم جبار ، ولستم في حاجة الى أدلة ، فان كل ما ذكره هذا الشاب صحيح !٠٠ واني منذ هذه الساعة أضع نفسي تحت تصرف ممثل الاتهام الذى سيخلفني ! »

ثم سار نحو الباب كمن يمشي نائما ومضى الى منزله حيث دخل غرفة زوجته ، وصاح بها : « هيلويز !٠٠ هيلويز ! »

ووجدها واقفة في وسط الغرفة شاحبة الوجه غائرة العينين ، فهتف بها : « هيلويز ، ماذا حدث ؟ »

فاجابت في حشرجة بدت كأنما تمزق حلقها .

ـ لقد تم لك ما أردت ٠٠ ماذا تبغي بعد ذلك ؟!

ثم سقطت بكل ثقل جسمها على الارض !٠٠ فهرع فيلفور نحوها وأمسك بيدها التي كانت متقلصة على قنينة صغيرة ثم هتف : « ربـاه !٠٠ لقد ماتت ! »

واندفع كالمخبول الى خارج الغرفة وهو يصرخ : « ادوارد ·· ادوارد ! ·· أين ابني ؟ يجب ابعاده عن البيت حتى لا يرى ! »

فأجابه الخدم : « السيد ادوارد في غرفة والدته ·· لقد استدعته منذ نصف ساعة ولم يخرج بانيه ! »

وأسرع عائدا الى تلك الغرفة فانطلقت من صدره صرخة مروعة وهو يلمح جثة ابنه في ركن قصي وعمغم : « انها يد الله ! » ·· ولم يستطع البقاء في رهبة حنين ، وكأنما أراد ان يجد شخصا يقص عليه أحـزانه ويبكي الى جواره ··· فمضى الى غرفة أبيه !

وهناك وجد نوارتيه يصغي بانتباه الى الأب « بوروني » ، الذى كان جالسا باردا كعادته ·· فقال له فيلفور : « هل أنت هنا يا سيدي ؟ ·· أولا تظهر الا في صحبة الموت ؟ »

فالتفت الأب بوزوني اليه ، واذ رأى هيئة فيلفور ادرك انالقضية التي دبر أمر اثارتها في المحكمة قد تمت طبقا لخطته المرسومة . فأجاب : « لقد جئت لأصلي على جثمان ابنتك ·· ولأقول لك انك قد دفعت دينك بما فيه الكفاية ، وانني منذ هذه اللحظة سأصلي الى الله كي يغفر لك ، كما أغفر لك انا أيضا ! »

فهتف فيلفـور وهو يتراجع الى الخلف مفزعا : « يا للسماء ! ·· ليس هذا صوت الأب بوزوني ! »

فابتسم هذا وأومأ موافقا ، ثم خلع عباءته وشعره المستعار ، وأسـدل شعره الطبيعي على عنقه ·· فصاح دي فيلفور مرتاعا : «الكونت دي مونت كريستو ! »

ـــ انك لست مصيبا تماما يا سيدي القاضي ·· ينبغي أن ترجع بذاكرتك الى الوراء أكثر من ذلك لكي تعرف مواطنك القديم ادمون دانتيس

وجن جنون دي فيلفور ، وانطلق يعدو حتى بلغ الحديقة ، فأخذ يحفر الارض بفأس في يده وهو يصيح :

ـــ انه ليس هنا ·· ليس هنا ! لكنني سوف أجده ·· سوف أجده ولو ظللت أحفر الى الأبد !

وكأنما خشي الكونت ان تنطبق عليه جدران البيت المشؤوم فاندفع الى الشارع وهو يسائل نفسه لاول مرة عما اذا كان قد أصاب أم أخطأ فيما عمل ! ·· « أوه ، كفى ·· كفى ·· فلأنقذ الاخيرة ! »

وحين بلغ منزله وجد مكسمليان في انتظاره ، فقـال له وهو يبتسم : أعد نفسك للسفر يا مكسمليان ·· فسوف تغادر باريس غدا ! »

ـــ أليس عندك ما تفعله هنا بعد الآن ؟

ـــ كلا ! ·· فالله يشهد أني فعلت أكثر مما ينبغي !

وفي اليوم التالي رحلا ، يرافقهما من الخدم « بابتستان » وحـده ، فقد

أخذت هايدى عليا معها ، وبقى « برتوشيو » مع نوارتييه !

دخل البارون دانجلر بعربته مدينـــة « روما » من طريق بوابة « ديل بوبولو » ٠ ثم اتجه بها الى اليسار حتى أمر الحـــوذى بالوقوف أمام باب « فندق اسبانيا » ٠٠ وهناك دخل فتناول وجبة شهية وسأل عن عنوان بنك « تومسون وفرنش »

وحين غادر الفندق بصحبه الدليل انسل من جمهرة المتسكعين عند الباب شخص تبع البارون ودليله بخفة رجال البوليس السري وبراعتهم ٠٠ ولما دخلا البنك تبعهما الى الردهة الداخليه حيث كلف دانجلر أحد الكتبـــة بابلاغ المدير نبأ حضوره ، ثم أدخل الى حجرة المدير بعد قليـــل ، بينما جلس مراقبه على أحد المقاعد بالردهة أمام الكاتب الذى انصرف عنه نحو خمس دقائق ٠ ثم رفع رأسه عن أوراقه ، واذ اطمأن الى أن أحدا لا يسمعه غير ذلك المراقب قال يحدثه : « أهذا أنت يا بيينو ؟ »

فرد عليه هذا هامسا : « لعلك وجدت في هذا السيد صيدا دسما ؟ »

فقال الكاتب : « كيف لا ، وقد جاء ليسحب خمسة ملايين من الفرنكات بايصال من الكونت دي مونت كريستو ؟ »

وسأله المراقب : « كيف عرفت كل ذلك ؟ »

فأجاب : « لقد أخطرنا به من قبل ! »

ثم خرج دانجلر متهلل الوجه ، فودعه المدير حتى الباب ٠٠٠ ثم تبعـــه « بيينو » بعد ذلك !

وفي الصباح استيقظ دانجلر متأخرا ، فتنـــاول افطاره ثم أمر باعداد العربة للسفر ٠ معتزما الرحيل الى البندقية ، حيث يتسلم جانبا من ثروته التى بقيت له ، ثم يتابع السفر الى فينا ، حيث يتسلم بقينها ويقيم هناك

على أنه لم يكد يقطع بعربته ثلاثة فراسخ بعد روما حتى أوقفت عربته فجأة وفتح بابها ، وأطل منه أربعة من رجال العصـــابات المسلحين ، أمره أحدهم بالهبوط ، ثم عصبوا عينيه وقادوه الى مغارة فى قلب الصخر ، حيث أدخلوه زنزانة خالية نظيفة تقع تحت سطح الارض بعشرات الامتار ، وفى ركن منها فراش من القش مغطى بجلد الماعز ٠٠ ثم أغلقوا عليه الباب !

ومر يوم كامل ، ذاق فيه المليونير السجين آلام الجوع ، وتنبه أخيرا على حركة بقرب الباب ، فاذا « بيينو » يجلس خارج الزنزانة يعد طعاما شهيا وقد وضع الى جواره زجاجة من النبيذ وسلة من العنب ٠٠ فسال لعـــاب دانجلر ، وطرق الباب بخفة ، فأقبل عليه اللص يسأله ٠ « هل فخامتـــك جائع ؟ »

فقال له : « عجبا !٠٠ كيف لا وانا لم أتناول طعاما منذ ٢٤ ساعة ؟٠٠
نعم يا سيدى ، انى جائع ٠٠ جائع جدا ! »

فسأله ببينو . « ماذا تحب من ألوان الطعام ٠٠ اننا هنا جميعا رهن اشارة فخامتك ! »

ــ أريد دجاجة ، وسمكا ٠٠٠ أى شىء ٠٠ المهم ان آكل !

وعندئذ نهض اللص وصاح كما يفعل الندل فى المطاعم : « دجاجةمحمرة لصاحب الفخامة ! »

ولم تمض لحظات حتى أقبل شاب نصف عار يحمل على رأسه صينية بها الطبق المطلوب ، فوضعه اللص أمام السجين ٠ ولم يكد هذا يتناول السكين والشوكة ويهم بقطع الدجاجة حتى استوقفه « ببينو » قائلا :

ــ العادة هنا أن تدفع قبل الأكل ، فقد لا يعجبك الطعام ! »

وقال دانجلر لنفسه : « لقد سمعت أن الدجاج رخيص هنا فى ايطاليا ، حتى ان الدجاجة لا يزيد ثمنها على ١٢ سنتيما ، ولن أدعهم يخدعوننى ! »
ثم أخرج من جيبه ليرة قذف بها الى اللص ، فتناولها هذا ولكنه استوقف السجين عن الأكل مرة أخرى قائلا فى هدوء :

ــ فخامتك مدين لى الآن بمبلغ ٤٩٩٩ ليرة !

ففتح المليونير فاه ذاهلا ثم قال ساخرا : « كم أنت لطيف !٠٠ يا لها من دعابة !٠٠ اليك ليرة أخرى ودعنى آكل ! »

فأخذ اللص الليرة الجديدة فى عدم مبالاة وقال : « يبقى لى فى ذمتك الآن ٤٩٩٨ ليرة ٠٠ سأحصل عليها فى الوقت المناسب »

فقال دانجلر وقد ساءه أن الدعابة طالت : « انك لن تحصل عليها على الاطلاق ٠ اذهب الى الشيطان انت ودجاجتك ما دمت لا تعرف مع من تتعامل ! »

وهنا أشار ببينو الى الشاب نصف العارى ، فرفع المائدة ورجع بها من حيث أتى ، بينما عاد اللص الى تناول طعامه خارج الباب !

وارتمى دانجلر على جلد الماعز ، وانقضت ثلاثون دقيقة بدت له قرنا من الزمان . فلما عجز عن تحمل آلام الجوع ، نهض واتجه الى الباب وهتف قائلا : « تعال هنا يا سيدى ٠٠ لماذا تدعنى أموت جوعا ؟٠٠ قل لى ماذا يطلبون منى ؟ »

فأجاب : « انك أنت يا سيدى الذى ينبغى أن تطلب ٠٠ مر ونحن ننفذ ! »

ــ اذن افتح الباب فورا ٠٠ اسمع يا هذا ٠٠ أريد شيئا آكله ، أتفهم ؟

ــ أى لون من الطعام تفضله ؟

ــ قطعة من الخبز الجاف ، ما دام الدجاج يباع فى هذا المكان اللعين بسعر جنونى !

ــ خبز ؟ حسنا ! اذن تدفع أربعة آلاف وتسعمائة وثمانية وتسعين ليرة ،

فقد دفعت فخامتك لبرتين مقدما !٠٠ ان كل ألوان الطعـــام هنا سواء في الثمن ! وفخامتك تملك خمسة ملايين وخمسين الف فرنك ، أى ثمن خمس دجاجات ونصف دجاجة ٠٠!

وهنا ارتعد دانجلر ، اذ انكشفت الحقيقة لعينيـــه ، وأدرك مدى الخطر الذى يهدده ، فصاح باللص :

ــ انكم تريدون تجريدى من كل شيء ٠٠ الأفضل من ذلك أن تنهشوا لحمي وعظامي ! أين هو كبيركم ؟ أريد أن أراه حالا !

وفي اللحظة التالية ظهر « لويجى فامبا » أمام البـــاب فسأله دانجلر : « كم تطلب فدية لى ؟ »

ــ لا شيء غير الملايين الخمسة التى تحملها !

فازدرد دانجلر لعابه وقد شعر برعب لا مثيـل له ، وقال : « ولكن ، هذا المبلغ هو كل ما بقى لى من ثروة ضخمة ، فاذا حرمتنى منه فالأولى أن تأخذ حياتى أولا ! »

ــ نحن ممنوعون من أن نريق دمك ! هنا رئيس أعلى منى !

واستمر تصميم دانجلر على عدم الدفع يومين، عرض بعدهما مليون فرنك ثمنا لوجبة طعام ٠٠ فأرسلوا اليه عشاء فاخرا وأخذوا منه المليون ! ٠٠ ومنذ تلك اللحظة اعتزم السجين ألا يضن على نفسه بشيء ، وفى نهـاية اليوم الثاني عشر تناول عشاءه الشهى ثم حسب حســـبته ٠٠ فاذا المبلغ الباقى معه لا يجاوز الخمسين ألف فرنك !

وهنا حدث أمر غريب ، فان الرجل الذى فرط فى الخمســـة ملايين لم يتحمل التفريط فى الخمسين ألفا ٠٠ بل اعتزم أن يحتفـــظ بها ولو مات جوعا !

وانقضت ثلاثة أيام على هذا المنوال ، وفى اليوم الرابع كان قد أصبح حطام انسان ، هيكلا باليا ٠٠ حتى لقد راح يفتات من فتات الجير والحصير الذى يكسو بلاط الحجرة ! ٠٠ وأحيانا كان يهذى ٠٠ ثم عرض على بيبينو ألف فرنك ثمنا للقمة واحدة من الخبز ، لكن اللص لم يجب !

وفى اليوم الخامس جر جسمه جرا الى الباب ، وركع على ركبتيه مناشدا اللص قائلا : « ألستم مسيحيين ؟ أتريدون قتل شخص هو فى نظر السماء أخ لكم ؟ » ٠ وهنا سمع دانجلر صوتا عميقا رزينا يسأله : « هل شعرت بحاجتك الى التوبة والتكفير عن ذنبك ؟ »

فجعل الصوت شعر رأسه يقف !٠٠ وحاولت عيناه الضعيفتان أن تميزا الأشياء ، فرأى وراء اللص شخصا ملتفـــا بعباءة ، تكاد تحجبه الظلال ، فسأله وهو يرتعد فرقا :

ــ اكفر عن أى ذنب ؟٠٠ ماذا تعنى يا سيدى ؟

ــ عن الشر الذى ارتكبته !

ــ انى أكفر عن كل شرورى يا سيدى لعلى أنال الغفران !

ـ اذن فانا أصفح عنك !

ثم خلع الرجل الغريب عباءته ، وتقدم نحو النور ٠٠ فهتف دانجلر

ـ الكونت دى مونت كريستو ؟ !

فقال له : « انت مخطىء ، اننى لست الكونت دى مونت كريستو ؟ »

ـ اذن من أنت ؟

ـ أنا الرجل الذى بعته وانتزعت منه خطيبته وسحقته ، كى تصل على جثمانه الى المجد والثراء !٠٠ أنا الرجل الذى قتلت أباه جوعا ، وعرضته هو للموت جوعا ٠٠ ومع ذلك فهو يغفر لك ، لأنه يطمح فى أن يغفر الله له !٠٠ أنا ادمون دانتيس !

وعندئذ اطلق دانجلر صرخة مروعة وخر على ركبتيــــه ٠٠ فصاح به الكونت : « انهض ٠٠ فحياتك فى أمان ، الأمر الذى لم يتح لشركائك ٠٠ فأحدهم جن ، والثانى مات ٠٠ احتفظ بالخمســـين ألف فرنك لك ٠ انى أمنحك اياها ٠٠ أما الملايين الخمسة التى سرقتها من المستشفيات فقد ردتها اليها يد أمينة ! »

ثم التفت الى فامبا قائلا : « حين يفرغ من طعامه ٠٠ أطلق سراحه ! »

▭

كانت الساعة السادسه مساء ، حين انزلق اليخت الفاخر على صفحة البحيرة الكبرى الممتدة بين جبل طارق والدردنيل ، وبين تونس والبندقية. حاملا على ظهره مكسمليان موريل ، فى طريقه الى جزيرة الكونت دى مونت كريستو حيث واعده الكونت على اللقاء هناك

وحين هبط الشاب وجد الكونت فى انتظاره ، وأخذه هذا الى كهــوفه المفروشة بالدمقس والحرير وأفخر الطنافس والرياش ، ثم قال له :

ـ اصغ الى يا صديقى ٠٠انت تعلم أنه ليس لى أهل ، وأننى قد اتخذتك بمثابة ابن لى ، وسوف أورثك المائة مليون فرنك التى أملكها ٠٠ فاستمتع بها ، انها تفتح لك أبواب المجد والسعادة وكل شىء !

فأجابه الشاب فى لهجة التصميم : « كلا ، لن يعوضنى ذلك عن فقــد ملاكى الجميل ٠٠ اريد أن أموت كى ألحق بفالنتين ٠٠ لقـــد وعدتنى بأن تمنحنى الموت ، بطريقتك السهلة المريحة ٠٠ فانجز وعدك ! »

واذ رأى الكونت تصميم الشاب ، سقاه جرعة من مادة كان يحتفظ بها فى زجاجة صغيرة محلاة بالأحجار الكريمة ٠٠ فبدأ مكسمليان يفقد حواسه بالتدريج ، حتى خيل اليه انه يرى أبواب السماء تفتح لاستقباله ، وفالنتين تخف للقائه ٠٠ ثم غاب كل شىء عن ناظريه ٠٠ ورقد بلا حراك !

وبعد قليل احس أنه يفيق ، فتململ فى رقدته حتى استرد شــيئا من

وعيه ، ثم هتف : « آه ، لقد خدعني الكونت ! ما زلت على قيد الحياة ! .. »
ومد يده ليختطف سكينا كانت على منضدة قريبة ، كي ينهي بها حياته .. واذ ذاك سمع صوت فالنتين يهتف به : « أفق يا حبيبي ، وأنظر الى ! »
كان الكونت دى مونت كريستو قد سقى فالنتين ليلة زارها في مخدعها مخدرا يجعلها تبدو في هيئة الميتة ، فلما دفنت وانصرف المشيعون أخرجها من نعشها الـذى كان قد ترك به ثقبا يمر فيه الهواء ، ثم سقاها سائلا أعادها الى وعيها .. ونقلها الى جزيرته كي يمهد الطريق الى لقائهـا مع حبيبها مكسمليان
وأثناء اغفاءة الشاب أدخلها الى حيث يرقد . ولبث الاثنان يرقبان يقظة النائم . وقال الكونت يحدث الفتاة : « فالنتين .. لا شيء سوف يفصلكما على الارض ، بعد أن دفع مكسمليان نفسه الى أحضان الموت كى يلقاك ! .. يكفيني سعادة انى جمعت بينكما .. فليسعدكما الله ! »
وبعد لحظات أفاق الشاب من تأثير المخدر ، فلم يكد يصدق عينيه .. وركع جاثيا على ركبتيه أمام حبيبته التى ردت اليه !
وفي الصباح التالى كان الحبيبان يتنزهان على شاطىء البحر ، حين اقترب منهما قبطان اليخت وسلم الى الشاب رسالة من الكونت دى مونت كريستو هذا نصها :
« عزيزى مكسمليان .. سوف يحملكما اليخت الى حيث ينتظر نوارتييه حفيدته الغالية ، كي يباركها قبل الزواج .. أما كهوفى التى فى الجزيرة ، وقصرى فى الشانزليزيه وقصرى الآخر فى « تريبور » فهى هدايا الزواج التى يهبها ادمون دانتيس لابن سيده القديم موريل ، ورجائى أن تشاركك زوجتك اياها .. أما ثروتها التى ورثتها عن أبيها الذى جن ، وأخيها الذى مات بين أحضان أمه ، فانى أطمع فى أن تتنازل عنها للفقراء !
« وقل للملاك التى ستشاركك حياتك أن تصلى بين حين وآخر من أجل رجل حسب نفسه ــ كما فعل ابليس من قبل ــ فى مرتبة الله ، لكنه يعترف الآن فى خشوع ومذلة أن الله وحده هو الذى يملك الارادة العليا والحكمة اللانهائية .. فلعل هذه الصلوات تخفف من وخز الضمير الذى يشوب حياته ! .. أما أنت يا موريل فاليك سر تصرفى معك : ليس فى الدنيـا سعادة مطلقة و شقاء مطلق ، وانما هناك مقارنة بين حالة وأخرى .. ومن ذاق الألم والعذاب كان أقدر الناس على أن يحس السعادة القصـوى . وينبغي أن نعرف الموت كى نقدر متع الحياة
« فلتعش يا عزيزى ولتسعد مع فالنتين .. واياك أن تنسى يوما أن حكمة البشرية جمعاء تتلخص في هاتين الكلمتين : « انتظر ، وتذرع بالأمل ! »
صديقك
ادمون دانتيس
أو
الكونت دى مونت كريستو

القصص العالمية للجميع

الفرسان الثلاثة "جزئين"	اسكندر ديماس
الكونت دي مونت كريستو	"
ذهب مع الريح "جزئين"	مارغريت ميتشل
رجال ونساء .. وحب	جون شتاينبك
ليلة غرام	سومرست موم
كنت جاسوساً	"
غادة الكاميليا	مارسيل موريت
جريمة في الريفيرا	جورج سيمنون
الأرض الطيبة	بيرل بك
عذارى الحب	"
ايفانهو "أو الفارس الأسود"	سيروالتر سكوت
دافيد كوبرفيلد	شارلس ديكنز
أحدب نوتردام	فيكتور هيجو
الام فرتر	يوهان جوته
العجوز والبحر	ارنست همنغواي
سوف تشرق الشمس	"
الكأس الأخيرة	اجاثا كريستي
عدالة السماء	"
القاتل الخفي	"
الرجل الغامض	"
غادة طيبة	"
عذراء وثلاثة رجال	جيمس هيلتون

مطابع المؤسسة العامة للوسائل التعليمية   حلب المطبعية المتقدمة